

إدريس هاني

دار المحجّة البيضاء

كفى

ثقافة طائفية
ومثقفون طائفيون



كفى

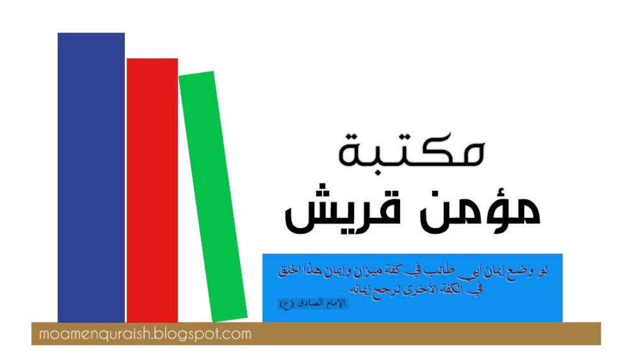
ثقافة طائفيّة
ومُثقفون طائفيّون

إدريس هاني

دار المحجة البيضاء

الطبعة الأولى

١٤٣٠هـ / ٢٠٠٩م





الرويس - مفرق محلات محفوظ ستورز - بناية رمال

ص.ب: ٥٤٧٩ / ١٤ - هاتف: ٠٣/٢٨٧١٧٩ - ٠١/٥٤١٢١١

تلفاكس: ٠١/٥٥٢٨٤٧ - E-mail:almahajja@terra.net.lb

www.daralmahaja.com info@daralmahaja.com

مقدمة

ليس قصدي من هذا العمل تأجيج نار الفتنة، إنما كان سبب تعالي أوارها سيادة الجهل وإطباق البعض حتى عن أن يدفع أراجيف المغالطين. فليس ثمة طريق إلى إيقاف هذا النزيف إلا بمزيد من البيان والتبيين، والتصدي لثقافة التجديف التي استبدت بالعقل العربي. حتى ما عاد يحسن تشخيص مصالحه. فلقد انقاد بصورة فجّة إلى ثقافة غوغائية تهريجية، نزل بها منزلة طليعة تخلف الأمم، وقعدت به مقاعد المرجفين. ويزداد الأمر خطورة والوضع خطلاً لما يتعلق الأمر بمثقفين طالما حرضوا العقل العربي على عمق التفكير ومبارحة سنة التكفير، فإذا بهم اليوم طليعة التجديف، لما تسافلوا وصغرت مقاصدهم، فأعادوا استدعاء جهالات الطائفية الهوجاء التي لا ينهض بها فكر ولا يسندها فقه. ولقد مرت السنوات القليلة الماضية على الأمة قاسية. لكنها لطول سكون العقل عنها أفرزت الزيت من الماء، ولطول الاحتكاك أظهرت معادن الرجال، ولم يعد ثمة شيء يخفى، حيث من مزايا الفتن بوح البائح وانكشاف المستور.

ومع ذلك ينتابني إحساس عارم بأن الخلاف بين الأمة سيظلّ ماكثاً مكث تخلفنا. حيث الاختلاف إن هو غدا مشكلة بين أبناء الأمة ومدعاة للخلاف فلن تنحلّ معضلتها إلى يوم القيامة. ولعلنا أخطأنا كثيراً حينما كنا ولا زلنا ننتظر أن تتوحّد الأمة اتحاد حلول لا اتحاد تعايش مشترك. إننا نبحث عن التماهي والاندماج المطلق وليس عن التفهم والتفاهم

والتفهيم. فإلى عقلاء الأمة حيثما كانوا شيعة وسنَّة، فلتكن هويتكم الإسلام الكبير لا الطائفية الصغيرة. اكبروا بإسلامكم، ولا تصغروا بطائفيتكم. فحتماً ستجدون أنفسكم بقلوب وعقول كبيرة تجعلكم قابلين باستيعاب شريككم في المرسل والرسول والرسالة. واكبروا أكثر لتسترعبوا الآخر إنساناً. ليس التموقف السلبي من الطائفية أن لا نتطرق إلى مشكلاتها، بل من الطائفية ما هو نتاج هذا الصمت المزيف وذلك التعالي المفتعل. فلنتدانى أكثر ونعالج قضايانا بمزيد من الدنو وبشجاعة المؤمنين بالأمة. فلنتدانى لنتعالى بالأمة كلها لا بشخوصنا التي أحياناً لا تستحق أن تتعالى بقلوب هواء. إنني يا قارئي العزيز حتى لا يحرفوا كلامي ويتعالموا عليك ليحذروك من هذا الكلام، سأصدقك القول بأن الطائفية مرض عفانا الله منه. حيث وجب التمييز بين الطائفية والرغبة في تفهيم الآخر عن صورة المختلف معه خارج منطق التزييف، بعقلٍ كبير وأخلاق عالية. وإني سأهجم على الطائفية كما هي وكما أنا. لا أخادعك قارئي، ثق تماماً، أن خطابي يزعج الطائفيين لا العقلاء الأحرار. سأهديك رأيي كما هو دون تزويق المغالطين. لنفضح الطائفية في متن الطائفيين وآرائهم.

مهما بدا كلامي قاسيًا في نظر البعض، فإنني أعلن أنهم لا زالوا لم يفهموا المقصود، ألا وهو أن تسامحنا هو من دعانا للدفاع عن المختلف وتفهمه والانفتاح عليه من دون عقد. وبينما كان الكلام يطول إزاء ما يكتبه صنّاع الطائفية السذج من ثقافة التفريق والاختلاف، وجدنا أن ثمة من انضم للجوقة الطائفية منحدراً من ثقافة ما فتئت تنبذ الفرقة وتدعو للإصلاح. وقد لعبت الظروف دورها بجدارة لتكشف عن أن الطائفية لا تزال تسكن اللاوعي وتؤثث خلفية الفكر، لكنها تظهر عند أبسط امتحان. وحيث وجب السكوت عن كل إثارة من إثارات غلمان الطائفية وفتّانها الصغار، وجب الكلام إزاء كل تجديف يأتي من قبل

مثقفين أساؤوا للثقافة ولا يزالوا بتخندقهم الرخيص ضدّ المختلف مزدرئين مهونين مجدفين لا يرعوون.

سيقولون حتماً: لماذا يدافع الكاتب عن الشيعة؟ أقول: إني أدافع عن الشيعة اليوم لأنهم حقًّا المظلومون، وحتما سأدافع عن السنَّة غداً لو قدر أنهم سيظلمون.. قبح الله الطائفية!

الشيعة واللامعقول الجابري

توطئة:

بعد ثلاثة عقود من ملحمة نقد العقل العربي، وما تلاها أو رافقها من أعمال جانبية أو مكملة، لا يزال محمد عابد الجابري يطالعنا بأميته المعهودة في مقاربة التراث. وكأنه لم يلتفت البتة إلى كل تلك النقود التي عبرت عن مزاعم باحث كان يأخذ الأشياء على الخفيف، ولا يبذل من وسع المجتهد في التحقيق ما يرفع عنه أميته بالتراث الشيعي؛ مهزلة. إحدى أهم مظاهر هذه الأمية، الحديث عن الكليني وما يحتله في التراث الشيعي الإمامي الاثني عشري ـ مع أنه لا يضع قيداً احترازياً في المقام ـ كموقعية البخاري عند السنَّة. أمية أخرى تنضاف هنا، حيث ما فتئنا نحتج على ذلك في كل مناسبة، بأن موقف الشيعة الاثنا عشرية من كتاب الكليني يختلف عن موقف السنَّة من البخاري، من جهة عده في المعتبر، فلا صحيح عند الشيعة، بمعنى أن كل المصنفات الروائية خاضعة لأساليب الجرح والتعديل. . فهي معتبرة ليس إلا، وإن شئت فقل هي صحيحة بالجملة، فما يغني هذا عن وجود الضعيف وغير الصحيح فيها، فالصحة فيها عامة ليست استغراقية كما لا يخفى.

ومع أن مصنفات السنَّة تفيض بالقول بما يفيد تساقط سور وآيات من القرآن، فهو يعيد إحياء آراء سلفويين باتهام الشيعة بالقول بالتحريف، وقد ظهر أن ما كان يعتبر مصحف فاطمة خارج عن النزاع، وأن ما

ذهب إليه الشيخ النوري لم يرد به التحريف كما فهموا، ولا يوجد في الأقدمين والمحدثين من الشيعة من قرأ قرآناً غير هذا أو اعتقد في مصحف غير هذا، والكلام هاهنا يطول. شئنا أن نذكر الجابري بأنه في أرذل العمر لا يزال يعاند ويكابر ولا يبذل من الجهد ما يحتاجه التحقيق.. في زمان لم يعد عسيراً الوقوف على المصادر، التي باتت في متناول العوام.. مرة أخرى ندعو الجابري أن يكفّ عن العناد والتراخي في التحقيق، وندعوه أن يقرأ التراث الشيعي من مصادره المقررة، أو ليأخذ له دورة في ذلك..

جدل الخطابة المتستر بمناهج علمية في ظاهرها الخاصية التي تتبادر إلى الذهن، ونحن نقرأ أبحاث د. الجابري حول الفكر الشيعي وتاريخه السياسي، هي تلك المحاولة التي لم تقطع مع طرائق الجدل، ونعني بها طرائق الخطابة القائمة على كثرة الأقيسة الناقصة والمصادرات على المطلوب، والمغالطات...، حتى وهي تتستر وراء مناهج ومفاهيم، تبدو ـ في ظاهرها ـ علمية، وبرهانية. على أنه لا يكفي، في التحليل العلمي، إيراد المفاهيم العلمية، هذه التي من اليسير تحويلها إلى أساس لرؤية مفارقة، حينما لا نحسن استخدامها أو توظيفها.

لم تكن محاولة الجابري، إذن، سوى عملية جريئة، لتحيين ذلك الصراع التقليدي، الذي يتم فيه الانتصار لعقلانية فانتازية، تجد إطارها ـ بتكلفٍ وإسرافٍ زائدين ـ في ظاهرية ابن حزم وسلفية ابن تيمية، وهي محاولة تراثية استهدفت العقل نفسه عند المعتزلة وعموم الفلاسفة.. في حين لا يجد المشروع العقلاني، كما خطط له الجابري، إطاره الحالم، في إسهامات الفلاسفة المسلمين، الذين نعتهم بأنصار العقل المستقيل. لا ندري، إذا كان الجابري هنا ينحو في كل ذلك، منحًى جدليًّا، أرغمه على ممارسة انتقائية مبتسرة في أغلب الأحوال، من تقارير استشراقية، وقعت في المأزق، الذي أشرنا إليه آنفاً. ما عدا ذلك، لم تعكس تلك

المحاولات، أي إلمام بالتاريخ أو الفكر الشيعيين، كما تدل على ذلك مصادره المعتمدة. نعزو تلك المحاولة التي لم تحقق النجاح المطلوب إلى الهاجس السياسي والأيديولوجي الساكن ـ بقوة ـ في أعماق مشروع الجابري، مضافاً إليه عدم التخصص، والبعد عن المصادر، والسرعة ـ وهي آفة كلِّ مشروع إيديولوجي ـ في تركيب الصور والأحكام التاريخية. ويكفي، في هذا الإطار، تصدي الكثير من النقاد إلى تفكيك هذا المشروع وبيان هواجسه ونقائضه.

وحينما نعود إلى جملة المصادر التي اعتمدها الجابري في تناوله للفكر الشيعي، وهي العملية التي ستكشف، ليس فقط، عن عجز في الاستيعاب، بل، وهو الأخطر من ذلك، عن عجز في الفرز بين مختلف الفرق الشيعية، خصوصاً الإسماعيلية منها والاثني عشرية. بل حتى على صعيد العرفان الشيعي، في تلك الصلة التي أوجدها في ما بين تصوّف ابن عربي أو الجنيد وعموم الباطنية، وبين التيار الغنوصي نتبين الخلط الذي يعود إلى ذهنية البحث عن الأشباه والنظائر، كما تعكسها مجمل الأبحاث الكلاسيكية، الناظرة في تلك العلاقات. لكننا، وبغض النظر عن هذه الملاحظة، نعود للقول، إننا نعثر على مصادر هزيلة جداً، من الصعوبة بمكانٍ تقبلها بوصفها آثاراً مرجعية كافية، لتشكيل رؤية متكاملة عن التشيع. نجد اعتماداً بسيطاً على ما لا يتجاوز ثلاثة مصادر أو أربعة. في مقابل ذلك، وبالإضافة إلى عدد من المصادر الاستشراقية، مثل أبحاث هنري كوربان ـ الذي أساء الجابري فهمه ـ ، نجد مادة مصدرية غنية، تتعلق بجملة من المؤلفات ذات المنزع السلفي أو السنّي الأشعري، وأعني بذلك كتاب: «مقالات الإسلاميين» للأشعري، وكتاب: «الفرق بين الفرق»، لعبد القاهر البغدادي، و«نهاية الإقدام في علم الكلام» للشهرستاني و«المسائل في الخلاف بين البصريين والبغداديين» لأبي رشيد النيسابوري، و«فتاوى» ابن تيمية. إلخ..

ولا يخفي الجابري ـ مثلما يفعل دائماً ـ هذه الحقيقة التي عبّر عنها في كتابه «العقل السياسي العربي»، فقال: «وإن جميع من له إلمام بأحداث القرن الهجري الأول يعرف كيف أن مصادرنا التاريخية أو بعضها على الأقل ـ المصادر السنية عموماً ـ تجعل «الفتنة» زمن عثمان، من تدبير شخص، اسمه عبدالله بن سبأ (. . .) وقد أطلقت مصادرنا التاريخية على حركة المعارضة لمعاوية، اسم «السبئية» نسبة إلى عبدالله ابن سبأ هذا.

لقد وقع الجابري بين قوى جذب مختلفة، بين نزعة تمركز الإسلام السنِّي، التي تأثر فيها، لا أقول بهاملتون جيب فحسب، بل بمجمل البيئة الثقافية للباحث وبين ذلك الجهل الكبير بالتراث الآخر، بالإضافة إلى جاذبية المشروع النهضوي في بيئة، اقتضت الانتصار على مجمل الفرق الأندلسية والمغربية، حيث يصير «على مجدد الخطاب التاريخي العربي التقليدي، أن يجعل فلاسفة الشرق، وفي مقدمتهم، الشيعة، يدفعون ثمن هذا الصرح الإيديولوجي الضخم! ولا يكلفه ذلك أي جهد معرفي لإقامة الحدّ على جزء طليعي من التراث العربي والإسلامي، في محيط لا يوفر رأياً جديداً. ها هنا، تستبد الأيديولوجيا بالبحث، ويستغني الباحث المنتمي، عن الآلية الابستمولوجية في استكشاف البنية الحقيقية، التي تستقر في مكامن هذا الخطاب التاريخي المتعصب لمعصوميته المزعومة، والمتسلح بعناصر غير معرفية: عناصر الغلبة، والتمركز، والأمر الواقع!

وليس غريباً أن نقع مع الجابري على صور من التلفيق، وأخرى من الوعي المفارق. فالجابري عندي، لا يناقض نفسه. . هو وفيّ لعالمه الفكري ومشاريعه الحالمة. فالتناقض ـ وهو منطقي ـ من شأن الجهد العلمي والنظر المعمد بموضوعية الباحث. غير أن الجابري هنا يتمسك بمنهج خطابي، ويستثمر كمًّا هائلاً من المصادرات الخطابية، للوصول

إلى غايته، إنه مشروع تستبد النتيجة بمقدماته. والمشروع النهضوي بكيفيته الإيديولوجية، عنصرٍ كافٍ لتشكيل العلة الغائية لهذا التطاحن والتضارب الذي لا يخلو من افتعال.

هكذا بتنا نرى، مع الجابري، انقلاباً جذرياً في رؤية الأشياء، وجرأة خطابية تتنكر لمتطلبات النظر الابستمولوجي. مع هذا الانقلاب، يتشكّل المعقول الديني لدى الجابري، على مصادرات الخطاب التاريخي العربي، المتواصل الخطو، على طريق النفي والإقصاء والتغليب. والمعقول الديني هو المشروع الظاهري المعادي للمعقول العقلي. فالعقلانية الجابرية تجد خياراتها في نماذج من المعقول الديني، حيث يستحيل ابن حنبل قمة هذه العقلانية. وفي نزوة لا يستسيغها بطش الإيديولوجية ـ المبتذلة ـ تصبح السينوية، ثلمة في مسيرة هذا المعقول الديني والعقلي معاً. . ردة دينية وعقلية! ويقام الحدّ في معركة لا هوادة فيها، على أنصار اللامعقول: الرازي، إخوان الصفا، جابر بن حيان، الفارابي، ابن سينا، وبصورة ضمنية الإمام جعفر بن محمد الصادق .

فالمعقول الديني، لا تجسده سلفية الخطاب، بقدر ما تمثله معيارية القرب من دائرة السلطة أو البعد عنها! ولذا ألفينا ميلاً شديداً، من الباحث، إلى تسويغ مواقف وانتماءات، تقع في قلب ذلك اللامعقول الديني. . ابن عربي، الذي كادت أندلسيته تشفع له للحاق بالكتلة المغربية الأندلسية رائدة المعقول الديني والعقلي. شأنه، شأن ابن خلدون. اما الغزالي، فقد كان لذاكرته السياسية ودوره البارز في خلق التوازن أو التنكر المعرفي، عاملاً ساهم في انتشاله، بقدرة قادر، من مأواه الباطني، ربما يعود ذلك إلى أشعريته التي كرس لها جهده أثناء توليه المسؤولية في المدرسة النظامية، أو لمعاركه الضارية التي خاضها ضدّ الباطنية الإسماعلية بناءً عليه، ليس الجابري، في ما اختلقه من عوالم فانتازية، متناقضاً، إنما كان مهووساً بعلم نهضوي ومشروع

سياسي، ومن شأن مشروع كهذا أن يسحق في طريقه أشخاصاً ويضحي بأفكار! خطاب أصحاب الملل والنِّحل متجدداً التشيع، في رأي الجابري، لا يحظى بجذور فكرية أصيلة في تعاليم الإسلام. فهو، وإن كان في نشأته الأولى، تياراً سياسيًّا محضاً ـ وهو ما أكد عليه عدد من المستشرقين، نذكر منهم برنارلويس ـ إلا أنه في تكوينه المذهبي اللاحق، كما يرى الجابري، كان من وحي اليهودي المتأسلم عبدالله بن سبأ، وهذه فكرة أخذها ـ على علاتها ـ من المصادر السنية، حسب تقريره السابق.

وهذا التشيع الذي بدا سياسيًّا ـ نتيجة ظروف تاريخية ـ سرعان ما انتظم في تعاليم دخيلة، انتحلها، بشكلٍ منتظم، هاشم بن الحكم، بالنسبة لعموم الشيعة الإمامية، وميمون القداح، بالنسبة للإسماعيلية. ومن خلال هذه المماحكة، يحاول الباحث لفت الأنظار إلى كون الأمة التي تفجّر عنها ذلك الصراع السياسي الأول، وبالتالي الموقف الشيعي من عليّ بن أبي طالب، يصعب الإمساك بها. . في حين، لم تعد الجماعة التي ناصرت عليًّا، تملك أي مشروعية، غير أنها ضالة، وانتهى بها الإخفاق السياسي إلى مد الجسور مع القوى المتآمرة، ضدّ السلطة السياسية القائمة، وضدّ الإسلام بشكلٍ عام. وهذا أسلوب دشنّه أصحاب الملل والنِّحل، يتجدد بكامل عناصره في هذا الخطاب. فالشرعية التي يمكن أن يحتج بها الطرف الشيعي،أو الأصول التي تحدد هذه الهوية المتجذرة في تاريخية الإسلام نفسه، تكمن في ذلك الموقف الأول من عليّ بن أبي طالب، موقف سياسي قام وانتهى. . وبقيت امتداداته تشهد نوعاً من الخروج والمروق إلى أن غيّر مجراها عبدالله بن سبأ، واكتمل صرحها مع الإمام الصادق وحاشيته الهرمسية الظلامية! وهذا يعني ـ بالتأكيد ـ أن الموقف الآخر في هذا المشهد السياسي الأول ـ المشروع نوعاً ما ـ انتهى هو الآخر، ولم تبق له أصداء في دائرة البيان أو المعقول الديني السائد.

ليس إلا الشيعة يحملون آثاراً باهتة، وضالة، عن ذلك الموقف السياسي، ويستحضرونه في بكائية شبيهة ـ في ميثولوجينها وضلالها، أيضاً، ببكائيات اليهود. لقد انتهى الجابري من هذا الصراع دون أن يخبرنا إن كان فعلاً، انتهى، ومتى، ومن أنهاه؟! فهذا الطرف الذي تمركز، هو الرأي الثالث المحايد ـ هكذا يوحي الجابري ـ أي الإسلام الأصيل والمعقول الديني! من هنا تواجهنا صعوبة في الاهتمام بهذا الرأي، باعتباره عرضاً منقولاً، لا جدة فيه! وهو فوق هذا، مجرد استثمار، يتخذ منحى تغليب جزء من التراث على آخر في مغامرة صعبة! هكذا يهيئنا الجابري لمواجهة منهج لا يخلو من غرائبية.

فإذا كان إرجاع التشيع إلى عبدالله بن سبأ، وهذه مقولة قال بها مستشرقون والتزموها، وبعضهم تخلّى عنها حينما وقف على علاتها ـ فإن الجابري، سيلتزم بكلّ الآراء التمثيلية التي قال بها المستشرقون. أي بالأصل السبئي ـ اليهودي للتشيع، وأيضاً الفارسي الغنوصي.. والبوذي والمسيحي لمقاربة العرفان الشيعي وانتظاريته، ولعله فاته أن يرجع الطقس الماتمي الذي أحياه بنو بويه في القرن الرابع الهجري، إلى أصوله في طقوسيات «البورورو» و«النامبغوار» في الأمريكتين! نحن، إذن، أمام مشروعية زئبقية، للموقف الشيعي. مشروعية لم تبرح كونها في الزمن الأول، ولاءً سياسيًا لعلي بن أبي طالب، حيث في عصر هذا الأخير تنطلي اللعبة، على خليفة لا يحسن السياسة، فلا يكون عليّ بن أبي طالب، متزعم الحملة التصحيحية، ويسميها بعضهم «الفتنة»، بل كان الأمر هنا يتعلق بيهودي مجهول الأصل، وظف شخصية عليّ بن أبي طالب في مؤامرة يهودية، ذلك، في ترجيحي، الدافع الأساسي الذي جعل الجابري، يغالي إلى أبعد الحدود في هرمسية التشيع. وهذه فكرة أخذها عن كوربان كما أكدنا سالفاً، وتعود في الأصل إلى ماسينيون. وقد طرحها كوربان في سياق تأويلي مغاير لما رامه الجابري،

الذي ألف إخفاء الكثير من مصادره وبتر العديد من النصوص، التي من شأنها أن تكون شواهد ضدّ خطواته الانتقائية.

وقد تبين موقف كل من ماسينيون وكوربان، حول التعاليم الأصيلة للنظر الشيعي. يقتفي الجابري طريقة كوربان في عرض التعاليم الشيعية المؤسسة للفكر الباطني، مع الفارق، بأن كوربان يجعل الباطنية نتيجة طبيعية للتعاليم الإسلامية الأصيلة. والسياق الذي اتّبعه كوربان هو التوصل إلى ما مفاده أن الباطنية هي السمة الأساسية لفلسفة الإسلام، التي هي فلسفة النبوة فإذا كانت التعاليم الشيعية كما مثلها كوربان، بعينات، دقيقة ومنسجمة، ما يعطي الإحساس بمعقولية الربط، ونزاهة الباحث. . فإننا، مع الجابري، أمام تقمص باهت، أبهت من محفزاته الأيديولوجية نفسها، يخفي كل هذه الإحالات جميعاً، ثم يجعل من تعاليم الأئمة أساساً لما سيشيده جمهور العرفانيين من حجج شرعية على مذهبهم، العرفانيون بمن فيهم رواد التصوّف السنِّي المتهرمسين، كابن عربي والجنيد والحلّاج... كما أن من بين تلك التعاليم التي يقوم عليها صرح العرفان المتين، ما ينقله الباحث، من رواية عن أبي هريرة أنه قال: «حفظت من رسول الله ﷺ وعاءين، فأما أحدهما فبثثته، وأما الآخر، فلو بثثته قطع مني هذا البلعوم».

هذا الخبر هو كلام لأبي هريرة الدوسي، اقتضى الالتباس، أو التلبيس، أن يكون خبراً مؤسساً للعرفان. وهذا كلام صادر عن شخصية لم يحصِ لها التاريخ ميزة روحية أو عرفانية، ناهيك عن أن كلاماً كهذا، يعكس موقفاً سياسيًّا، لشخصية كانت تتحرك برأي ثالث ـ إن لم نقل ـ برؤية انتهازية في حادثة مقتل عثمان وما بعدها.

لا تقف محاولة الجابري عند هذا الحدّ، فقد واصلت سعيها، و«جهادها» لطرد الشيعة من دائرة الإسلام. كانت ذهنية الإقصاء حاضرة بكلِّ قوة في مشروع الجابري. هذا الإقصاء الذي لم يكتفِ بتسخير ملف

الهرمسية ـ الورقة الخطيرة ـ في هذه اللعبة لملاحقة كل من بدا له فيه أثر من تلك العقلانية التي تسمو على منطق «الظاهر». لقد كانت استراتيجية «البنينة» (ذرخژچژخدچزس ژح س زژث) تم حيث ومضاء، حدة أكثر استثمارها في تشطير التراث واللعب على جميع أوراقه.

«البنية» هذه التي تتحول من شامتها «الابستمولوجية» إلى لعبتها الخطابية. . «بنية» تنتقل ـ وقد جعلها الجابري تنتقل رغماً عنها ـ لنمضي مع هذه الرحلة «الابتسمية» داخل ترسبات الخطاب التاريخي العربي، ببنية، غير ثابتة، غير قارة، أي بالنتيجة ـ المنطقية ـ لا بنية! فمن ثلاثية «البيان» و«البرهان» و«العرفان» إلى ثلاثية «القبيلة» و«الغنيمة» و«العقيدة»! كإنما عسير على الباحث في بنية العقل العربي، أن يحدد بنية واحدة، للمعرفة والسلطة، كما لو أنهما مجالان، لا ينتميان إلى عقلٍ واحد. . أو طبيعتهما تقتضي بنيتين مختلفتين. وهذا التجزيئي في النظر، لم يكن إلا استجابة لمقتضيات الجدل الأيديولوجي الذي خاضه الباحث في عملية التغليب. ومهما تزحزحت هذه البنيات من مجالاتها، حسب مقتضيات خطابية، فإنها تبقى مكسورة أمام معيارية المسافة من السلطة.

ويصل الهوس الأيديولوجي بالجابري إلى حدّ استصحاب الموقف السلبي الغاضب والفاقد للأعصاب، فيبتكر قاموساً جديداً ـ ومموهاً أيضاً ـ من مفردات الطعن، تتوظف فيه معطيات حداثية، وتحلّ محلّ الطعون التقليدية. هكذا، لا يتردد الجابري في أن ينعت الأشخاص المتمنعين على مشروعه بمختلف أنواع القدح، في تنكر يضفي طابعاً اصطلاحيًّا يوحي بموضوعية القدح وتقدمية القادح! فيتحول الإمام عليّ ابن أبي طالب في معاركه السياسية إلى مجرد مغامر، جاهل بالسياسة، التي اتقنها معاوية. . كما أن ابنه (ابن الحنفية) كان حامل مركب نفسي، يسعى إلى إيجاد معوضاته في فروسية نادرة النظير. كما يكون أحد أحفاده (الإمام الصادق) متزعماً لحاشية مبتدعة ظلامية.

مقولتا التباين: مشرق مغرب، والقطيعة التامة إذن، لا شك في أننا، أمام مأزق مثل هذا، يجب أن نعلن القطيعة التامة، ليس فقط، مع الموروث الهرمسي العرفاني أو الشيعي، بل القطيعة مع الشرق كله. فالبيانية المشرقية رغم كل جهودها الجبارة لم تلق من الباحث المغربي التقدير المطلوب، إنها بيانية مهددة، مجاورة لمجال محايث، جغرافيًّا وتاريخيًّا للامعقول! هكذا يكون الشرق، شرقاً، والغرب غرباً.. أو على حدِّ تعبيره، بضاعة الشرق ترد إليه.

يوهمنا الباحث، هنا، بوجود كتلة تاريخية واقعية، شملها مجال جغرافي واحد. يقحم الجابري عامل الجغرافيا في تاريخية اكتسحت المجال.. تاريخية «عقيدية». نحن، في نهاية المطاف، مع مستشرق خانته الجغرافيا والتاريخ، ينظر إلى الشرق نظرة برانية. مشروعه العربي، القومي، لا يجد أي حرج في المساهمة ـ أو المؤامرة ـ المعرفية، لاقتطاع هذا الجزء من الحضارة العربية الإسلامية اقتطاعاً معرفيًّا، وهو أشدّ خطورة من الاقتطاع الجغرافي. لم يعد المجال ينقسم إلى عقل بيان، وعقل عرفان ولا إلى سنَّة وشيعة. فهذه المرة سوف ينقسم العقل، إلى عقل الشرق وعقل الغرب.. عقل العرفان والغنوص والتشيع، وهو في النهاية عقل اللامعقول العقلي، واللامعقول الديني.. وعقل البيان، والبرهان، والمعقول العقلي، والديني..

لقد أقرّ الاستشراق بإيمان الشرق، وارتأى «القلب» للشرق، و«العقل» للغرب. مع الجابري يبقى هذا الشرق خاوياً على عروشه، لا «قلب» ولا «عقل» لا دين ولا علم. ما أشدها عنصرية وعقدة من الشرق! ولا بدّ، في رأي الجابري، من إحداث هذه القطيعة التي ابتدأت في دائرة عقيدية، مذهبية.. لتنتهي إلى حالة جغرافية استقطابية: شرق وغرب. يعلن هنا الجابري نفسه غربياً! قطيعة لم يستشعرها عقل التراث، حينما كان الجدل الأيديولوجي على أشده، ينصب على الفكرة

والشخص، أو على الملل والنِّحل، ولا يعكس أي إحساس بوجود كتلتين تاريخيتين وجغرافيتين: مشرق ومغرب! ذلك لأن النظام العرفاني، بخصائصه الشيعية ـ الهرمسية، كان قد أثر إلى حدٍّ ما في فكر المشرق الإسلامي، حيث يتم توظيف العقل، كأساس ابستمولوجي لدعم اللامعقول، «إذن لقد كانت الفلسفة في المشرق متجهة إلى الوراء. لقد استعملت العقل لإضفاء نوع من المعقولية على ما هو «لا عقل»، على نزعتها الصوفية. ومن هنا اكتسبت طابع المسيرة الفلسفة الدينية».

من هنا ينبت مشروع تأسيس «ثقافة أصيلة مستقلة عن ثقافة أهل المشرق» يتولى هذه المسيرة تكتل ثقافي ـ موهوم ـ تأطر بانتماء جغرافي. هو حلم هذه النهضة العربية المنشودة، وأساسها التاريخي. «إن ما ننشده اليوم من تحديث للعقل العربي، وتجديد للفكر الإسلامي، يتوقف ليس فقط على مدى استيعابنا للمكتسبات العلمية والمنهجية المعاصرة. . بل أيضاً، ولربما بالدرجة الأولى، يتوقف على مدى قدرتنا على استعادة نقدية ابن حزم، وعقلانية ابن رشد، وأصولية الشاطبي، وتاريخية ابن خلدون «. . .» إنه باستعادة العقلانية النقدية التي دشنت خطاباً جديداً في الأندلس والمغرب مع ابن حزم، وابن رشد، والشاطبي، وابن خلدون، وبها وحدها، يمكن إعادة بنية العقل العربي من داخل الثقافة التي ينتمي إليها، مما يسمح بتوفير الشروط الضرورية لتدشين عصر تدوين جديد في هذه الثقافة».

هكذا، نستطيع الإمساك بأحد العناصر المحركة لهذا الشطح الأيديولوجي المهووس بانفصامية وقطيعة بالغتين. . وهما وجهان يخفيان ميلاً متنكراً، إلى نوع آخر من الصيرورة والاتصال، في مستوى خطاب السلطة! وتبقى هذه العناصر، بالنتيجة، خطابية تخلق عالماً من المسميات، إمعاناً في نهج الإخفاء! فالمعقول الديني هو الوجه الآخر للعلمانية التي يطفح بها الفكر المغربي ـ الأندلسي، حيث يقوم البيان على البرهان.

«الفكر الرشدي كان أقرب إلى فكر عصر النهضة في أوروبا منه إلى فكر ابن سينا «...» ونظرية ابن رشد في العلاقة بين الدين والفلسفة، قد تكون أثرت بكيفية أو بأخرى في رواد العلمانية في أوروبا». وفي مقام آخر، تكون كامل الفرق الأندلسية تجسد هذا المنحى العلماني.. «فإن الفلسفة في الأندلس، فلسفة ابن ماجه، وابن طفيل، وابن رشد، قد تأسست على العلم، على الرياضيات والمنطق، مما سيجعل منها فلسفة علمية علمانية».

الشطح الأيديولوجي والتفاضل القائم على النفي ولا يتوقف الشطح هنا، بل يمتد إلى أبعد من ذلك، عوداً إلى التغليب. فالتفاضل هنا لا يتم الا بالنفي، «.. كل من عاش أو يعيش لحظة ابن سينا بعد ابن رشد، إنما قضى أو يقضي حياته خارج التاريخ، وبالفعل قضينا نحن العرب حياتنا بعد ابن رشد خارج التاريخ.. لأننا تمسكنا بلحظة ابن سينا، بعد أن «أدخله» الغزالي في الإسلام، وعاش الأوروبيون التاريخ الذي خرجنا منه لأنهم أخذوا منا ابن رشد فعاشوا لحظته وما زالوا يفعلون».

هذه اللحظة السينوية، بقدر ما هي خارجة عن نطاق العقل، والتاريخ، هي أبعد ما تكون عن دائرة الإسلام (الدين)، فقد كان الغزالي هو من تولى إدخالها ـ ليس في دائرة البيان فحسب ـ بل في دنيا الإسلام!! هذه السنوية العملاقة الضخمة، لم يعترف لها الجابري بأي مأثرة على صعيد الانا (التراث) أو الآخر (الغرب).. فأوروبا الناهضة، المتعلمنة.. قامت على نقيض هذه السينوية الغنوصية، السحرية، الروحانية.. ولهذا السبب بالذات، انتهى تمسكنا بلحظة ابن سينا ـ نحن العرب ـ إلى هامش التاريخ.. لا ندري إن كان الجابري حقًّا يعي ما يقول ـ وهو طبعاً واعٍ به ـ ، إذ في أي دائرة من دوائرنا المعرفية ـ نحن العرب ـ «البيان أم العرفان، أم البرهان» أو في أي حيز جغرافي

وتاريخي، سادت فيه هذه اللحظة السينوية وكانت لها سلطة تسندها، وتؤمنها. مع أن الجابري يتحدث عن العرب، بينما ظلت السينوية شيعية عرفانية إيرانية. ربما كان حتماً على هذه السينوية التي ربطت مصيرها بالتشيع والعرفان، أن تقيم ـ هي وأنصارها ـ خلف التاريخ، مثلما ظلت للأسباب نفسها خارج العقل، وخارج المعقول الديني! حتى ولو أنها في اللحظة التي «كان الفكر الفلسفي، في جميع أرجاء العالم الإسلامي، يغط في سبات عميق، قام هؤلاء المعلمون في المدرسة السينوية» الإيرانية يقودون الإسلام الشيعي إلى أعلى مراتب وجدانه الفلسفي».

حتى لو تخرج من هذه السينوية رموز علمية، لها مكانتها في تراث النهضة الأوروبية. . ابن الهيثم (٩٦٥ ـ ١٠٣٨م) الذي كان «لكتابه المناظر وبحثه في البصريات أثر عظيم على اللاتين في القرن الثاني عشر. وهو واضع تحليل في الإدراك البصري لا يزال، إلى يومنا هذا نموذجيًّا، وسوف نلتقيه عند فيتلو».

أوروبا الناهضة تمسكت بـ «ب تتب اپ جآ»، هكذا عرفته، واجتاحها طبّه ورياضياته.. كما تمسكت بطب الرازي وفلكه، وكيمياء جابر بن حيان، أسماء بارزة كانت أساساً لتلك النهضة العلمية الجبارة. وخلال حقبة طويلة في تاريخية النهضة الأوروبية، كانت هناك أسماء تتردد، مثل ب تتب اپ جآ،تب چآب پ آ،ب ثآب بپ آ، پ ثآث هذه أسماء تنتمي لما أسماه الجابري العقل المستقيل. هم ـ حقًّا ـ من قادنا خارج التاريخ! التاريخ الذي دخلته أوروبا حينما أطاحت بهذه الفرقة السينوية! لكننا نملك استئناف الرحلة داخل التاريخ. . وابن خلدون، لحظة مهمة في هذه القطيعة بين التاريخ واللاتاريخ. . لا نعلم إن كان ابن خلدون نفسه قد وفق إلى تطبيق هذا الاكتشاف العلمي، على تاريخ صراعي، سلطاني! من منع فيلسوف التاريخ من تحقيق المهمة الثانية بعد اكتشافه منطق التاريخ. الجابري يرجعها إلى محض فشل..

تتوقف الآلية الابستمولوجية، والإحالات.. فأي ميزة تبقى لهذه اللحظة الخلدونية، إن كان التاريخ فيها يجري خارج عقل التاريخ، وينزل رتبة أقل ممن سلط عليهم في «مقدمته» سيف النقوض والطعون! فهل أعادنا ـ ابن خلدون ـ حقًّا إلى علم التاريخ؟ «إن تأسيس التاريخ على البرهان كان يتطلب من ابن خلدون خطوتين اثنتين: كان عليه أن يخترع الطريقة البرهانية الصالحة للتطبيق في ميدان التاريخ، أي «منطقاً» جديداً خاصاً بالتاريخ، وكان عليه أن يوظف هذا المنطق الجديد توظيفاً ينقل التاريخ فعلاً من ميدان اللاعلم إلى مستوى العلم.

أما الخطوة الأولى فقد استطاع ابن خلدون إنجازها، وأما الخطوة الثانية فقد أخفق فيها. لقد نجح ابن خلدون في اكتشاف علم جديد يصلح أن يكون ـ على الأقل من وجهة نظره ـ معياراً صحيحاً يتحرى به المؤرخون طريق الصدق والصواب في ما ينقلونه»، ولكنه أخفق في تطبيق هذا «المعيار في مؤلفه التاريخي الضخم..».

إلا أن الجابري... لا يعطينا تفسيراً موضوعيًّا عن هذا الإخفاق ولا يقدمه في إطاره التاريخي، وفي بعده المقاصدي، الذي ظلّ حاضراً في الخطاب التاريخي الخلدوني. أين السياسة في كل ذلك؟ هنا تكمن صعوبة التناول الابستمولوجي للظاهرة، حينما يشوبها طلاء الانتماء.. أو لما تحدق «ميدوز» المعقول الديني لتحجر تلك الجرأة! (جاء في أسطورة يونانية أن كل من وقع نظره على ميدوزا ينقلب إلى حجر) هل أخفق ابن خلدون حقًّا في التطبيق أو أنه تراجع عنه؟ فإن كان الإخبار الموجه، والتبديع والإقصاء والمدح والذم.. يكشف عن مجرد إخفاق في الإنجاز، فما ذنب مؤرخي الرسل والملوك! هذا من جهة، ومن جهة أخرى نرى طموحاً لابتعاث بنية للفكر العربي من داخل ثقافته. البنية التي يمكن الإمساك بعناصرها الأساس، في نقدية ابن حزم، وعقلانية ابن رشد، وتاريخية ابن خلدون، مع أننا لا نكاد نلمس تماهيًّا حقيقيًّا في

هذه الاتجاهات المختلفة، ولو جعلها الباحث تنم عن انشغال مشترك، وتنطلق من قلقٍ واحد! ما يعني استحالة الوقوف على بنية ما في هذه الأمشاج المذهبية. لقد كانت تاريخية ابن خلدون براغماتية، وهي ما أعاد الفكر العربي إلى الوراء ـ حقًّا ـ ، فقد عادى ابن خلدون، الفلاسفة الذين دافع عنهم ابن رشد، كما حمل ابن حزم على أهل القياس الذي أقام عليه الشاطبي بناءه الأصولي، وامتدح طريقتهم ابن خلدون، وظلّ ابن رشد سندهم الأرسطي.

أي بنية ستنبعث من هذه الانتماءات المختلفة، وإن كان الجامع بينها، المجال الجغرافي، والانتماء إلى أمراء بني أمية بالأندلس!؟ جهل الجابري بالتراث التأصيلي للشيعة وعجزه عن فهمه، لقد اجترح الجابري أسلوباً فريداً في تناول الفكر الشيعي، فلا نكاد نفرق معه بين التشيع والعرفان والغنوصية. فإن كان جزءًا من التصوف، هو وحده ما وقع ضحية الاختراق الغنوصي، فإن التشيع، أصبح عرفانيًا مطلقاً! لا يكلف الجابري نفسه عناء التفريق بين طبقاته أو مذاهبه. لا يجد فرقاً جوهريًا بين العرفانيين، والإمامية. فالشيعة، بالنتيجة، جميعهم باطنية! وهذا إنما يكشف عن جهل كبير بالتراث التأصيلي لدى الإمامية الاثني عشرية منهم، على صعيد علم الأصول والدراية والفقه الاستدلالي! فلقد تبلور عقل برهاني جبار عند الإمامية في العلوم الشرعية ابتداءً من القرن الرابع الهجري حتى الآن.

ومن هنا، وحينما نتناول قضية الاجتهاد ومسائله، كالبناء العقلاني، ومباحث الألفاظ التي أقحمها الإمامية في علم الأصول والمنطق معاً، سوف يتبين أنهم أمعنوا نظرهم في مفهوم القرينة والحدّ الوسط في القياس المنطقي، وهو ـ حسب الجابري ـ ما لم يتقيد به العرفانيون عموماً، والشيعة الباطنية على وجه الخصوص. ويرجع الجابري، في عملية تسطيحية، زعم أنها مسهبة، لضبط الآلية الذهنية

التي يعتمدها العرفانيون والشيعة «في تأويل الخطاب القرآني»، مفهوم الاعتبار أو الإشارة، وهي «القرينة» التي تحلّ عندهم محلّ الدليل عند المتكلم، والحدّ الوسط عند المناطقة والعلة بلغة الفقهاء، إلى مفهوم المماثلة (ب پ بتپ آتآ). وذلك تعبيراً عن القاعدة العرفانية «النظير يذكر بالنظير» أو مفهوم «المثل والممثول» الإسماعيلية. لقد حاكم الجابري مفهوم «المثل» بذهنية بيانية، انطلاقاً من معطيات المنطق الصوري، وهو مع ذلك يرى التفسير الشيعي إذا ما اعتبر هذه المماثلة لا تخرج عن كونها وسيلة إيضاح، فلا وجود لأي مشكلة ما دامت تلك هي وظيفة التمثيل، غير أن الشيعة في نظره، يخرجون عن هذه الوظيفة، ليخلقوا عالماً آخر من المطابقة.

هكذا يعطينا مثالاً عن «تفسيرهم» الآية الكريمة: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ۝١٩ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ۝٢٠ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٢١ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ۝٢٢﴾ [الرحمن ١٩ ـ ٢٢].

فعندما فسر الشيعة قوله تعالى «الآية» بأن المقصود بـ«البحرين»: علي وفاطمة، وبـ«البرزخ»: محمد ﷺ وبـ«اللؤلؤ والمرجان» الحسن والحسين، فإنهم لم يفعلوا أكثر من إقامة مماثلة بين بنيتين:

الأولى هي تلك التي عناصرها:

علي وفاطمة ومحمد والحسن والحسين وعلاقة القرابة بينهم، وهي البنية «الأصل».

والثانية هي تلك التي عناصرها:

البحران والبرزخ واللؤلؤ والمرجان والعلاقة التي تقوم بينها، وهي البنية «الفرع».

وعلاقة المماثلة بين هاتين البنيتين كما يلي:

محمد علي فاطمة، برزخ بحر بحر، علي فاطمة الحسن الحسين، بحر بحر لؤلؤ مرجان».

هكذا، ادعى الكاتب، بجرأة، أنه يقدم فهماً ابستمولوجيًا للعرفان الشيعي، من خلال إحالته إلى عنصر المماثلة، الذي سرعان ما يبارحه العرفانيون، إلى المطابقة! وهنا أبان الكاتب عن عجز الباحث المتسلح بذهنية البيان الظاهري، والبرهان الصوري، عن فهم حقيقة العرفان الشيعي، الذي اعتبره ـ جهلاً منه، به ـ دون العقل منزلة! هذا العقل الذي قيم به الكاتب العرفان والتشيع، هو ما وصفه إخوان الصفا بالحجاب. . أي ذلك العقل الظاهري الذي يحجب عن الباحث الحقيقة المغمورة! وما كان على الجابري ـ حينما طرق مجال العرفان ـ أن يتحدث عن «تفسير»، لأن آلية هذا الأخير تختلف جوهريًا عن آلية التأويل العرفاني.

وحتى يتيسر فهم هذه الحقيقة، يجب إعادة النظر في عقل البيان نفسه الذي خضع إلى بناء مفهومي، قيد المعرفة، وحاصر العقل، وكان بالتالي، «حاجب» للحقيقة! وعلى عادته، يرد الكاتب، مفهوم «المماثلة» أو «النظير المذكر بالنظير»، إلى أصل فيتاغوري. . ذلك لاعتبار بسيط، أن أرسطو، ذكر أن الفيتاغوريين كانوا يعتمدون كثيراً على مفهوم «المماثلة». ينسى الكاتب أنه، في هذه الإحالات الفجّة، كان يمارس المنهج نفسه. «النظير المذكر بالنظير». . ويتجاوز الوظيفة الإشارية للمماثلة إلى المطابقة. . «منهج المماثلة الذي تعتمده العرفانية الإسماعيلية، بل كل العرفانيات، والذي ربما يرجع أصله إلى الفيتاغوريين».

وقد يجهل الجابري ـ وطبيعي أن يجهل ميداناً كهذا ليس من اختصاصه، فضلاً عن أنه ليس من هواه ـ بأنه أساس هذا العقل المماثل، لم يكن نابعاً من أصول أجنبية، بل هو أسلوب ثاو في تعاليم

الإسلام نفسه، كما تضمنتها نصوص القرآن والسنّة وأقوال الأئمة الشيعة. وكان ذلك هو أساس التأويل، كما مارسه جمهور القراء في عصر النبي ﷺ. لهذا السبب تم إحراق نسخ من القرآن في عصر عثمان، لجماعة من القراء الذين ثمن النبي ﷺ قراءاتهم، في عهده، وشهد بشرعيتها، مثل ابن مسعود وابن عباس. . . إن عصر التدوين وما جاء به من المفاهيم، مثل الإجماع، وأولوية الظهور العرفي للألفاظ، وانقسام المعنى إلى حقيقة ومجاز، والمعنى الوحيد الحصري للفظ الواحد، هذه مفاهيم كانت قد قضت على إحدى أهم ركائز التأويل، ألا وهي: فكرة «تعدد الوجوه». والعادة التي سار عليها القراء في عصر الرسالة وبعدها ـ إلى ما قبل عصر التدوين ـ لم تكن هي تفسير القرآن، وفقاً لهذه المعيارية البيانية المشيدة على البرهان الصوري، حيث يستبد اللفظ بالمعنى ويحجر عليه. . لقد كانوا «مؤولين» بواسطة «تعدد الوجوه» أو ما يعرف «بتعدد القراءات»! هكذا ارتبطت «الفتي» ـ وبالتالي الفقه والدراية في مفهوم ما قبل التدوين ـ بالتأويل.

وفي التفسير المأثور، نعثر على عينات من هذه المماثلة الفيتاغورية ـ ان جاز هذا الربط الجابري ـ في فهم النصوص، فقد فسر النبي ﷺ كلمة الظلم، بالشرك، في الآية ﴿وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ على أساس المماثلة، بالإحالة إلى وصية لقمان لابنه: (يا بني لا تشرك بالله، إن الشرك لظلم عظيم).

وهو منهج قام عليه التأويل وهو مناط تفسير القرآن بعضه ببعض. . هكذا يسهل علينا فهم قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾﴾ أي المشركون، وهكذا تنتظم العلاقة المعنوية بين كل من الشرك والكفر والظلم.

لا نعرف، إن كان مفهوم المماثلة (ب پ بتپ آتآ) هو موروث المعقول العقلي اليوناني ذاته، الداعم للمعقول الديني، أم أنه كان

القاعدة الابستمولوجية الرئيسية للعرفان المتهرمس. أم كان ذلك وسيلة الجابري نفسه في ربط هذه بتلك وإحالة هذا إلى ذاك.

ويدعي الجابري أن العرفانيين، متصوفة كانوا أم شيعة إمامية أم إسماعيلية، مجمعون على أن العقل «حجاب». . ولهذا يقول:

«والواقع أن العقل حجاب يمنع من الانزلاق بالمماثلة إلى المطابقة، من القفز من النظر إليها على أنها مجرد وسيلة من وسائل الإيضاح إلى اتخاذها أساساً لـ«البرهان».

ويضيف: ومن هنا كان التشيع في طليعة التيارات القائمة في، «اللامعقول» والداعمة له! ما هو جدير بالذكر، أن البحث المعمق في مفهوم العقل، من خلال تعاليم أئمة الشيعة، يكشف عن أن المعنى المراد، هنا، بالحجاب هو ما شاع تداوله في عصر التدوين، أي ذلك العقل المؤقنم الذي حدّ من إمكانات العقل المتعددة ويحكم على الحقيقة بالظهور السطحي لها. ذلك الظهور الذي يعزر السلطة ولا ينفيها! على هذا الأساس كان قياس العرفانيين والشيعة من دون جامع، «القياس العرفاني إذن، قياس بدون جامع، بدون حدّ وسط. بدون رقابة عقلية. إنه انزلاق بالمماثلة بوصفها مشابهة في العلاقة بين بنيتين إلى المطابقة بينهما بصورة تجعل الواحدة منهما مرآة للأخرى..».

هنا يضبط الكاتب بين مفهوم الاعتبار ومفهوم الحدّ الوسط القياسي. . الاعتبار هو أمارة تفتح المجال للانتقال إلى علاقات أخرى، وإيضاحات أخرى، وبالنتيجة إلى مطابقات، ما دام الكشف الواقع أحد مقاصد الاعتبار! وإفساح المجال ـ أيضاً ـ أمام العقل ليعانق المعاني الممكنة والمحتملة، التي يتيحها النص.

هنا تتأكد سلطة النصر وديناميكيته في إنتاج المعنى وإظهاره حسب منطقه الداخلي.. فالاعتبار هو مفتاح هذه الديناميكية التأويلية، التي قبل

أن تكون «مماثلة»، كانت عملية تفكيك وتركيب، بالمعنى الدياليكتيكي للتركيب! العملية التي بها ـ فقط ـ يتم إنماء المعرفة، وإخراج النص من تحجره! فلا يمكن القول ـ إذن ـ أن القياس العرفاني (الاعتبار) هو قياس من دون جامع، ومن دون رقابة عقلية إلا إذا فهمناه في ضوء تلك العلاقة التمثيلية، كما يهوى الباحث ممارستها، وليس انزياحاً من العلاقة الإيضاحية إلى المطابقة. إنه آلية مستقلة تقع ـ عكس ما نحا الجابري ـ فوق العقل، عقل البيان، بتقنياته البرهانية الظاهرية والقياسيّة والتفسيرية. فالنص هنا كائن حي، متحرك، يملك ديناميكية تجعله قابلاً لمواصلة إضاءاته. النص الذي إن أخضعناه إلى تقنيات البيان الجابرية (الظاهرية)، سوف يموت مع «أسباب النزول» ومع «أسبقية الحقيقة على المجاز»! يبقى نصًّا ميتاً يستصحب للذكرى والتبرك، لا ليكون بؤرة معرفية متواصلة، أو ليكون ﴿تِبْيَـٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ [**النحل ٨٩**] ويبقى المستوى الدلالي الاستبدالي للباطن غير مستواه السياقي الظاهري.. هو معنى المعنى، كما يسميه عبد القاهر الجرجاني، هذه الخاصية الديناميكية لنص يتمنع على بيانية صورية، لا يجد مأواه الطبيعي إلا في هذه الهرمينيوطيقية الاستبدالية! فلا شبه بين طبيعة الاستنباط العرفاني والاستنباط البياني. الخلاف بينهما في الطبيعة والوسيلة معاً، وليس في الوسيلة فقط، كما ذهب الجابري.

والعقل الذي اعتبره الشيعة «حجاب» لم يكن المراد منه «العقل» بما هو القدرة البشرية على التأمل المحض، فإذا ما رفض الشيعة أو عموم العرفانيين آليات عصر التدوين، فذلك لا يعني رفض العقل! هذا مع أننا نرى أن القياس والمماثلة التي لا تنتهي إلى المطابقة، هي تلك الآلية البرهانية التي مكنت عقل البيان من الانخراط في دائرة «المعقول العقلي» و«المعقول الديني».. لكننا نجد معارضة شديدة لهذه الآلية من دائرة البيان نفسها، لا، بل من دائرة البيان الأندلسي.. ابن حزم

الظاهري في الفقه، وابن مضاء القرطبي في النحو. كما أن قياساً كهذا والعلية التي حاربها أنصار الظاهرية الجابرية، مما كافح ابن سينا وحاشيته لتثبيته. . أولئك الذين يؤهلهم دفاعهم عن هذه المضامين البرهانية ـ عند الجابري ـ ليظفروا بموقع خارج دائرة العقل المستقيل.

مزاعم الجابري وحقائق المنصوص، دعنا نرى في أحد نصوص إخوان الصفا ـ وهم في زعم الجابري أنصار العقل المستقيل، ورسائلهم في زعمه أيضاً «مدونة هرمسية» ـ إن كان هؤلاء يقفون فعلاً هذا الموقف من العقل والفلسفة والعلوم:

«ولكن أشرهم على أهل الدين والورع، وأضرهم على العلماء، وأشدهم على عداوة الحكماء، هذه الطائفة الظلمة المجادلة المخاصمة.. الذين يخوضون في المعقولات وهم لا يعلمون في المحسوسات، ويتعاطون البراهين والقياسات وهم لا يحسنون الرياضيات، ويتكلمون في الإلهيات وهم يجهلون الطبيعيات، ويتصدرون في المجالس ويتجادلون في أشياء لا تفيد في الدين علماً، ولا تنتج في الحكمة فائدة، مثل كلامهم في التعديل والتجويز والجزء الذي لا يتجزأ. . . ويعارضون الحكماء والعلماء، ويشنعون عليهم مثل قولهم: إن علم الطب والنجوم باطل، وإن الكواكب جمادات، وإن الأفلاك لا وجود لها، وإن علم الطب لا منفعة فيه، وإن علم الهندسة لا حقيقة له، وإن علم المنطق والطبيعيات كفر وزندقة».

ولمزيد من الاطلاع، يذكر إخوان الصفا كلاماً آخر: «اعلم أن في الناموس أقواماً يتشبهون بأهل العلم ويتدلسون بأهل الدين، لا الفلسفة يعرفونها، ولا الشريعة يحققونها، ويدعون مع هذا معرفة الأشياء، ويتعاطون النظر في خفيات الأمور الغامضة البعيدة، وهم لا يعرفون أنفسهم التي هي أقرب الأشياء إليهم، ولا يميزون الأمور الجلية، ولا يتفكرون في الموجودات الظاهرة المدركة بالحواس المشهورة في

العقول، ثم ينظرون في الفطرة والخلقة والجزء الذي لا يتجزأ، وما شاكلها من المسائل في الأمور المتوهمة التي لا حقيقة لها في الهيولى، وهم شاكون في الأشياء الظاهرة الجلية، ويدعون فيها المحالات بالمكابرة في الكلام والحجاج في الجدل، مثل دعواهم أن قطر المربع مساوٍ لأحد أضلاعه، وأن النار لا تحرق، وأن شعاع البصر جسم يبلغ في طرفة عين إلى فلك الكوكب، وأن علم النجوم باطل، وما شاكل ذلك من الزور والبهتان فاحذرهم يا أخي، فإنهم الدَّجّالون الذلقو الألسن، العميان القلوب، الشاكون في الحقائق، الضالون عن الصواب».

هذا النص يكفي للرد، على ادعاء الجابري، بأن إخوان الصفا أو السينوية التي كان لها الفضل في التأسيس للقياس البرهاني ومسألة العلة التامة، في الإسلام، لم يكونوا أعداء للعقل! كيف يتصوّر المرء، أن تخرج من ذلك المأوى الظلامي، القاتل للعقل، والهائم في «فلسفة التحطيم الذاتي»، كما يزعم الجابري، عبقريات الطب والهندسة والرياضيات والبصريات والكيمياء والفلسفة؟! لقد تحدث الجابري عن كتاب «الكافي للكليني»، غير أنني أرجح أنه لم يقرأه، قراءة عالمة! أو لعله لم يطّلع عليه سوى في مصادر غيره! ولو أنه قرأه تلك القراءة المذكورة، لوجد أن هذه المدونة التي تعتبر أهم جامعة إخبارية لدى الشيعة، جعلت أول كتاب لها، «كتاب العقل والجهل»، وفيه نقرأ عينات من الأخبار الدالة على قيمة العقل في مستوى المعقول الديني والعقلي.. نقرأ، مثلاً، عن أبي جعفر قوله: «لما خلق الله العقل استنطقه ثم قال له: انبل فأقبل، ثم قال له: ادبر فأدبر، ثم قال: وعزتي وجلالي ما خلقت خلقاً هو أحب إليّ منك ولا أكملتك إلا في من أحب، أما إني إياك آمر، وإياك أنهى، وإياك أعاقب، وإياك أثيب».

قال الرسول ﷺ في ما يرويه الكليني أيضاً: «ما قسم الله للعباد شيئاً أفضل من العقل، فنوم العاقل أفضل من سهر الجاهل، وإقامة

العاقل أفضل من شخوص الجاهل، ولا بعث الله نبيًا ولا رسولاً حتى يستكمل العقل، ويكون عقله أفضل من جميع عقول أمته، وما يضمر النبي ﷺ في نفسه أفضل من اجتهاد المجتهدين، وما أدّى العبد فرائض الله حتى عقل عنه، ولا بلغ جميع العابدين في فضل عبادتهم ما بلغ العاقل. والعقلاء هم أولو الألباب الذين قال الله تعالى: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ۝٢٦٩﴾.

«ولا ضير في أن نعرض تلك الوصية التي تلقاها هشام بن الحكم عن موسى بن جعفر كما أوردها الكليني في «الكافي»، مع بعض التصرف. يقول: «يا هشام، إن الله تبارك وتعالى أكمل للناس الحجج بالعقول، ونصر النبيين بالبيان، ودلهم على ربوبيته بالأدلة «. . .» يا هشام، إن القول مع العلم فقال: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ۝٤٣﴾ «. . .» يا هشام: إن لله على الناس حجتين: حجة ظاهرة وحجة باطنة، فأما الظاهرة فالرسل والأنبياء والأئمة، وأما الباطنة فالعقول «. . .» يا هشام، كان أمير المؤمنين (عليّ بن أبي طالب) يقول: ما عبد الله بشيء أفضل من العقل...».

الخطاب الأيديولوجي وتوظيفه السياسي: لقد كان التشيع، والعرفان في طريقه، هو ما سوف يضحي به الجابري في مشروع إعادة إنتاج موقف السلطة، موقف المعقول الديني المتسلح بالمعقول العقلي، على تلك الأسس المتينة. وقد سحقت الآلية الخطابية (الجابرية) كل من صادفت في طريق التشيع، حتى العرفان السنّي. فالعرفان هو مظهر ذلك الوافد الهرمسي، الذي انتقل إلى الحقل الثقافي العربي، محدثاً بذلك ردة عقلية ودينية. ها هنا يسفر مارد السياسة عن وجهه! لقد كانت الغنوصية والهرمسية، كما يرى الجابري، تيارين يهددان الإسلام، سواء من حيث هما أجنبيان عن الفضاء الثقافي العربي، أو لكونهما تيارين ظهرا في الأزمنة المتقدمة على الإسلام. ولهاتين الحالتين، أبعاد وظيفية

ينبغي فهمهما على حقيقتهما. فالقديم هنا يحيل على ما قبل الإسلام (جاهلية) والأجنبي، إلى المعادي والمحارب (دار الحرب)! لهذا السبب ـ بالذات ـ سوف تنفتح عليهما قوى الاعتراض داخل المجتمع العربي والإسلامي، ولأن التشيع في مقدمة تلك القوى، سيكون أول من يتهرمس في الإسلام. ولأنه يمثل طليعة هذا الاعتراض (الرفض)، فسوف يكون الأكثر إيغالاً في الغنوصية والهرمسية، أي متهرمساً كله! هذه الغنوصية المعادية، لم تكن مناقضة للإسلام بحسب طبيعتيها القديمة (الجاهلية) أو الأجنبية (المناقضة)، بل هي أيضاً محاربة له! والجابري، هنا، يدمج بعدين لهذه المحاربة: بعد الدين وبعد السياسة.. «الغنوص إذن كان يحارب الإسلام دينيًّا وسياسيًّا، وفي هذا النضال استعان الإسلام بالفلسفة اليونانية وعني بإيجاد عالم من العلوم الدينية العقلية يشبه عالم العصر المدرسي في أوروبا العصور الوسطى. فكان الإسلام الرسمي قد تحالف إذن مع التفكير اليوناني والفلسفة اليونانية ضدّ الغنوص».

هكذا، وكما يرى الجابري، فمن الطبيعي أن يعادي الشيعة الإسلام الرسمي، ما دام أساس عقيدتهم قد شحن بهذا الموروث الغنوصي، المعادي ـ مبدئياً ـ والمحارب، للإسلام.

وتدويلاً لهذا الصراع، ينتقل عدوان الشيعة الأصيل للإسلام ـ الدين، إلى عدوان ضدّ الإسلام ـ السلطة. في النتيجة، نكون أمام معارضة منبعثة من موقع العداء للإسلام ـ الدين، وليس من داخل الواقع التاريخي وتمخضاته الاجتماعية والسياسية..

فهي مأوى للخارجي، الوافد، إما انتقالاً منه إليها، أو هروباً، منها إليه! في كل الحالات، سوف يتآزر الجانبان إلى درجة التماهي، ليحققا، معاً (الغنوص والشيعة) وظيفة مشتركة:

القضاء على الإسلام! في مقابل ذلك، سينفتح الإسلام الرسمي - المعقول الديني - على الفكر اليوناني - المعقول العقلي ليتآزرا في سبيل القضاء على «الغنوص» عدو المعقول العقلي، والشيعة، أعداء المعقول الديني.. المعارضة هي، إذن، مأوى للتآمر، لللامعقول، للاين! فقد «كان المناهضون للحكم العربي من الأقليات الدينية والمانوية خاصة، يطعنون في القرآن وفي مصدره الإلهي بدعوى أن معانيه معروفة لا جديد فيها وأن ما فيه من أخبار مستقاة من التوراة أو من الموروث القديم بصورة عامة».

أما السلطة، أموية أو عباسيّة، القائمة على «العصبية» الخلدونية.. و«القبيلة - الغنيمة» الجابرية، فهي بسحر ساحر، ترقى إلى منزلة المعقول الديني، والمعقول العقلي. وبحلم المأمون - الذي كان شديداً على المعقول الديني الحنبلي - يتم هذا الفصام، بين خندقين.. هكذا يتحدد انتساب الباحث عن بنية العقل العربي، أو بالأحرى الناحت لبنية عقل السلطة، وينخرط بكل قوة في صراع قديم متجدد، أو بالأحرى، متسلل، وبالوسائل التي تنطوي على المضامين نفسها، فيحلّ «الهروب العرفاني» محل الخروج والردة.. و«**اللامعقول العقلي**» محلّ الجاهلية، و«**اللامعقول الديني**» محلّ الكفر والزندقة.. إنها أسماء تحمل المضامين القديمة نفسها: التحامل والنفي والإقصاء، أسلوب الطعون وتسويغ الأمر الواقع! إن أي شكل من الاعتراض، سياسيًّا كان أم مذهبيًّا، هو، كما يرى الجابري، كفر وخروج عن الإسلام. فمن لا يرى رأي السلطة السياسية، هو كافر متزندق.. بقدر ما تكون معارضاً سياسيًّا تكون كافراً متزندقاً: «من عارض تزندق» على هذا الأساس يقوم مشروع العقل العربي (**الجابري**)! رشدية، تؤسس لعلمانية..

تؤسس لمعقول عقلي، هو وسيلتها التسخيرية لدعم سلطة زمنية، تمت على أثر حلم «مطبوخ» ورؤيا «مدبرة» للمأمون! لم يحدثنا

الجابري، إن كان المعقول العقلي اليوناني الذي سخرته السلطة في مواجهة معارضة متهرمسة هو نفسه قد يعادي المعقول الديني. فإن كان الباحث قد أعطى الطبيعة التسخيرية لهذا المعقول العقلي اليوناني لصالح السلطة، فكيف لا يرى في غنوصية فارس والإسكندرية وجندسابور.. وسيلة تسخيرية للمعارضة، إن كان الأمر، ولا بدّ، يجب أن يخضع إلى هذا الشكل من التسخير أو الاختراق! هذا، من دون أن ننسى دائماً المحاولة الحثيثة لتسويغ الواقع السياسي، والطعن في كل بادرة للتغيير. التغيير لا يمكن أن ينبعث من الداخل. إن هناك دائماً عناصر دخيلة، وافدة، غازية.. هي من يحدث ذلك التغيير ـ الغدر.. التغيير ـ التآمر.. التغيير ـ العدوان! ولكي يخفي الجابري غلوه العراكي، يتبرأ من أن يكون قد خاض حرباً أيديولوجية: «وذلك ما حاولنا القيام به، لا يهدف شنّ حرب إيديولوجية عليه، بل في إطار تحليلنا النقدي للنظم المعرفية في الثقافة العربية».

هذا الكلام الطارئ، عن براءة مشوبة، يعني أن عنصراً عدائيًّا، عراكيًّا ظلّ مستوراً تحت هذه البراءة المزعومة.

نعم، إننا برؤيا المأمون، سنقصم ظهر غنوصية وافدة، محاربة..

غنوصية فارسية، أو شيعية، في عصر المأمون، حيث سلطة العجم والخراسانيين.. وحيث هذه الرؤية المأمونية ستخوض حرباً لا هوادة فيها على أهل الحشو والحديث، وتحديداً، سيكون ضحية هذه اللحظة (القطيعة)، أحد قمم العقلانية (المعقول الديني): ابن حنبل! هكذا تكون الورقة رابحة من كلتا جهتيها:

حلم يؤسس للمعقول الديني ـ بفتح المجال أمام المعقول العقلي ـ ويبطش، البطشة الكبرى، بالمعقول الديني (ابن حنبل وجماعته!) لقد ظلّ **الجابري** يبحث عن العرفان بوصفه بنية عامة.. لذلك بدت له آثاره الماثلة في مختلف مكوّنات الحقل الثقافي العربي والإسلامي، عند

الشيعة والمتصوفة! لكن سرعان ما ينزاح الباحث عن هذا المسلك الابستمولوجي، ليبحث في عملية انتقال الموروث العرفاني من التشيع إلى التصوّف السنّي، ذلك الانتقال، الذي تم بوساطة الاطلاع! فالحاجة إلى العرفان لدى الشيعة، مصدرها، مروق وزندقة وتبييت، وتواطؤ بين محارب الإسلام ـ الدين ومهدد الإسلام ـ السياسة، في ضوء التماهي المذكور، بغض النظر عن أي أساس ابستمولوجي لهذه العرفانية الطافحة، ولأي باعث اجتماعي أو سياسي لها. لكنه لا يذكرنا،على أي وجه تقبل التصوف السني هذه العرفانية المتشيعة أو المتهرمسة! هل ثمة دوافع ـ الدوافع نفسها: محاربة الإسلام (الدين والسلطة)؟ لا نعثر على تسويغ حقيقي لذلك! غير أن العرفان المتهرمس، كان قد دخل دائرة البيان السنّي بفعل الاطلاع العفوي، لعالم رحالة، وليس لحاجة ابستمولوجية أو اجتماعية. ربما كان خروج ابن عربي، من حيزه الجغرافي (الأندلس)، في سفرته إلى الشرق، هو سبب هذه البلوى، اطلاعه على مقالات الإسماعيلية، وربما، بصورة مباشرة، على الكتابات الهرمسية. هذه البلوى تبدأ بمبارحة المكان، الذي أطر به الباحث فرقته الصامدة في وجه **اللامعقول** العقلي والديني على السواء.. هذه المبارحة من المكان، لم تؤثر في أحد عناصر الفرقة المغربية، ابن خلدون، مثلاً.

يكون الأمر، حينما يتعلق بالعرفان، وصلته بدائرة البيان، شكلاً من أشكال الغزو.. «.. ومن جهة أخرى، فإن هذا «الغزو» العرفاني لدائرة البيان الذي حصل في وقتٍ كان فيه هذا الأخير قد استكمل تشييد صرحه المعرفي» وليس مثاقفة من قبل عناصر منتمية إلى عالم البيان، ربما ساعدها ـ أو حفزها ـ الموقف من السلطة إلى فك عزلتها داخل هذا التلقين المعرفي الصلب! فالعرفان، مهما بلغ أمره في دائرة البيان، ولدى «قمة العرفان في الإسلام» ابن عربي، فإنه لا يتجاوز إطار الحقيقة والسلوك إلى مجال الشريعة.. فعلى «الرغم من تصوفه الباطني الصريح

والجامع «أي ابن عربي» يقول بالأخذ بالظاهر في مسائل الشريعة، كما نجد خطابه الباطني ذاته مطبوعاً بالطابع البياني، سواء على مستوى المصطلح والمفاهيم أو على مستوى طريقة التعبير وآلياته. وهكذا يمكن القول أن ابن عربي كان بيانياً في باطنيته..».. مع أن الباحث لا يوضح، إن كان هذا الموقف مبيتاً من ابن عربي، تفادياً لبطش الفقهاء، ودهاقنة المعقول العقلي، الظاهري!لكن وبغض النظر عن ذلك، فإن هذا النص يكشف عن سياقٍ ما، انشغل الباحث بإنمائه لأن هذه الرؤية القاسية، لطبيعة العرفان ـ الغازي للبيان، ليكون العرفان الكشف ليس فقط تجليًا للذات الإلهية للعارف بل أيضاً «العلم ـ بيانات آمرية بدعية، شيعية في الأساس، تجد قمتها في اليقين» بما هو صحيح وما هو غير صحيح في الشريعة».

هكذا يغزو ابن عربي بباطنيته مجال الشريعة أيضاً، فضلاً عن الحقيقة! هذا ناهيك عن التهافت الداخلي لهذه القراءة المتشنجة، حينما ادعى **الجابري** أن ابن عربي كان يعرض العرفان بآلية بيانية.. كيف، بعد هذه المحاولة المستميتة لإنزال العرفان وآليته الذهنية منزلة أدنى من منزلة العقل..

كيف تستطيع آلية المعقول الديني والمعقول العقلي، أن تحتضن ـ من دون نشاز ـ ذلك **اللامعقول** الديني واللامعقول العقلي! كيف، إذا كانت آلية العرفان، تتجسد في ذلك الانزياح عن المماثلة من دون رقابة عقلية، أن تحافظ على شطحها وحقائقها، حينما تعرض بآلية بيانية متشددة! وهل العقل ـ الحجاب كما اجمع العرفانيون، يستطيع أن يقدم العرفان، ويحدث بذلك اختراقاً لدائرة البيان.. إذن، لما بقي العرفان، عرفاناً.. ولما كان لدائرة البيان فضل في ايجاد الرقابة العقلية الحصينة لعالمها المعقولي! فهذا ـ كما سبق قولنا ـ لا يعبّر عن تناقض. لأن **الجابري**، وهو يؤسس لمشروع يكتنفه الكثير من الغموض، لم يكن يمثل عقلاً بيانيًا، حتى يكون التناقض مذمة له حينما يكون متهمًا به..

بل هو ناحت في التراث على أساس علة غائية. . تضحي بكل ما من شأنه إعاقة النتيجة! ولذلك، تظلّ المعيارية، حتى في هذه الحدود الضيقة، متصلة بمعيارية القرب من السلطة أو البعد عنها.فكلما اتجهنا نحو المعارضة توغلنا في مجاهل الغنوص والهرمسية، أو بتعبيرٍ آخر: تزندقنا وأوغلنا في الكفر. . حتى إذا دخلنا في أقوى معارضة (التشيع)، كنا قد دخلنا الهرمسية ذاتها، ما دام أن التشيع قد تهرمس نهائياً. وكلما اقتربنا من السلطة اتجهنا صوب عقل البيان. . المعقول الديني. . الإجماع، أو بتعبير صريح، دخلنا الإسلام! اتجاه الإسلام، اتجاه السلطة، اتجاه المعارضة، اتجاه الكفر كلما تقدمنا في اتجاه السلطة، تقدمنا تبعاً لذلك باتجاه الإسلام، والعكس صحيح.

بهذا يكشف **الجابري**، في مغامرته التجزيئية والتغليبية، في حقل التراث العربي والإسلامي، ومن خلال جرأته، واستسهاله لمخاطر هذا الحقل، عن أنه كان يؤسس ـ وهو لا يناقض نفسه، أي أنه واعٍ، جداً، بخطواته الفكرية ـ لخطاب سلفي، عمل على تحيينه، وتجديد اصطلاحاته مع الإبقاء على مضمونه.

خطاب تتجسد حرفيته وظاهريته ـ المعادية للمعقول العقلي نفسه ـ في دائرة البيان! إنه خطاب يعانق منطقاً بيانيًا، صوريًا، تشوبه سلفية ظاهرية حروفية، تجللهما معاً، سلطوية متمركزة.

وقد يكون من المناسب أن نقول: إن أكثر العناصر عداءً للمعقول الديني والعقلي، ظلّت هي هذا الثالوث المسيطر، ذو الأضلاع الحميمة المتكاملة. . خطاب غاياته سلطوية، قاعدته سلفية، وذهنيته ظاهرية! إذا كان ذلك ما تراءى للجابري بخصوص التشيع، وفي مجال الحقيقة. . فإن ميدان الشريعة أيضاً طاله قسم من الطعون، حينما اعتبر الشيعة لا يظفرون بفقه فعال. إنه «فقه متوارث». . وليس ذلك مرده فقط، إلى قصور المصادر التي استند إليها الباحث، ولم تسعفه في تكوين رؤية

حقيقية حول طبيعة النظر الفقهي عند الإمامية.. كما ليس مرد ذلك إلى الخلط بين الإمامية والإسماعيلية حيث لم يقع نظره على تراث فقهي كبير لدى الإسماعيلية، يضارع تراثهم الفلسفي! بل مرد ذلك إلى نظرة معكوسة، تقلب وجه التراث، ويتحول المتوارث إلى الديناميكي، والعكس صحيح! لقد صادر **الجابري** على أن الزمن **الشيعي** مغلق ودائري. وهو في ثباته كالمكان. ومن هنا فالشيعي أو العرفاني، يرى نفسه قادراً على الحراك في كل اتجاهاته.. الزمن بمخارجه الثلاثة، كما يملك الحضور فيه والغياب عنه.

من هنا لا بدّ من أن ينتهي إلى المصادرة على ثبات فقههم وطبيعته الوراثية، على أساس المنظور «الكورباني» (نسبة إلى المستشرق هنري كوربان) حول فلسفة المعاد أو انتظار ظهور الحقيقة المستورة.. (الظهور التام). فالفقه هو بالتالي نتيجة اجتهاد. وثمرة نظر متواصل يلحظ الواقع وتطور الزمن.

من هنا أهمية المقاصد.. طبعاً، **الجابري** لم يكلف نفسه البحث في التراث الفقهي الإمامي، حتى يستطيع بناء حكم كهذا، توصل إليه من طريق تكهني.. وقياس ناقص! وكان يكفيه أن يتساءل، إن كانت ظاهرة «الحفاظ» مما شهده التراث **الشيعي**.. ظاهرة الحفاظ كانت ملازمة لكل فقه متوارث. أما الدائرة التي يقف عليها مشروع **الجابري** الظاهري، فقد احتضنت ظاهرة الحفاظ، وساهمت في إنهاء «قصة» الاجتهاد، في القرن الرابع الهجري. وهو بالذات، زمن الاجتهاد الفقهي **الشيعي**، الذي سيثمر مع مرور الزمن، تراثاً فقهيًا وعقلانيًا مهمًا، كما سنوضح في ما بعد! أن هذه الانتظارية ـ التفاؤلية ـ التي أساء **الجابري** استيعابها تتحول إلى زمن دائري، وقار، في حين، هي جوهر لحقيقة روحية وسياسية، كافرة بالزمن السيّال على دروب التظلم، أي الزمن المتحرك على غير ممشاه الحقيقي (الزمن الثابت) فالوجه الآخر، لهذه الثباتية الزمانية، هي

الديناميكية الفعالة، المتحركة بكيفية إرادية. تجعل الإنسان سيد مجاله ومداه! فالعقل **الشيعي**، ككل عقل، فعالية ذهنية ذات أصل غير مفارق.

وهناك فضاءات اشتغل فيها هذا العقل، فكانت بذلك إحدى تلويناته.. كونه عقلاً انبثق عن مأساة.. وتتحول تلك المأساة إلى نظام رموز وإشارات.. تبقى هي اللون الطاغي على الفكر **الشيعي** اليومي.. تشده بالمأساة، تركزها وتخترق بها الزمن، لتتحول المأساة إلى الذاكرة المعاشة والخارقة في آنٍ.. تتعالى على الزمن (الزمن الرديء) في نغمة متصلة، تجعل من كل يوم عاشوراء ومن كل أرض كربلاء! إن ما يبدو زماناً مغلقاً وعقلاً مانعاً، هو عقل التزام! وعقل الرفض لمنشىء المأساة.. «المأساة ملة واحدة».. فالزمن المأساوي ينغلق ليزداد وعيًّا بمأساويته..

فلا ينفتح الزمان المغلق إلا مع التغيير، ليكون الانفتاح حقيقيًّا، كان العقل المأساوي، يستبعد وجود الزمان المنفتح من دون تغيير. المانعية هنا هي تحقيق لعقل ملتزم، تصل به القناعة بالتغيير إلى مستوى «نكون أو لا نكون»! ومع ذلك، فإن العقل **الشيعي** لم يقتصر على عقل المأساة، بل تجاوزها، ليلامس ما سماه بعقل العقل،بتقنيات المعاقلة العالمة! ففي المنطق والأصول والفقه.. لم تحضر المأساة بثقلها كله، ولا كان هناك مجال لأي هرمسيّة ـ جابرية ـ مزعومة.. ينهض العقل الشيعي ليرتفع بالعقل الإسلامي إلى أرقى مداركه! هكذا أثمر الزمان الشيعي، المتظاهر بثباته الكاذب، المحتال، تطوراً فلسفيًّا ومعرفيًّا هائلاً.. اقتحم دائرة البيان، دائرة الزمان المتحرك، المنفتح، أحدث تغييراً رهيباً، في التاريخية الإسلامية وجغرافيتها، ناضل، ثار، حكم، اجتهد! بينما ظلّ الزمان البياني، الحراكي، متيماً بسلفيته. ارتجاعيًّا، مهادناً، «حفاظي»، حشويًّا، زماناً متوقفاً!

الجابري وكتاب «مدخل إلى القرآن الكريم»

عن موقع أقلام الثقافية ـ ٢٠٠٧، ٠٢، ٧ ـ ١٠: ٨٠ pm

خصصت مجلة منتدى الحوار المغربية عددها الأخير (٣٩) دجنبر ٢٠٠٦ لحوارين مطولين مع الكاتب المغربي ادريس هاني وكذا مقتطفات من كتابه «محنة التراث الآخر» وذلك في إطار مناقشة للدكتور محمد عابد الجابري على خلفية الجدل الذي أثاره كتابه الأخير: «مدخل إلى القرآن الكريم»، الذي نفى فيه أمية الرسول واتهم الشيعة بالقول بتحريف القرآن ورفضه ترتيب القرآن وقضايا أخرى... وفيما يلي نص الحوار:

س - أنتم من الأوائل الذين انتقدوا الجابري من خلال مشروعه نقد العقل العربي، كيف تنظرون إلى الأفكار التي أثارها في الآونة الأخيرة؟

ج ـ لا أخفيك أنه كان أول نص أغراني بالنقد.. ولهذا الكلام معنى؛ إنني لا أنتقد إلا نصين: **أحدهما**: يمتعني بلياقته وبراعته التحليلية والتركيبية لكن تنتابه نوبات معرفية تنال من تماسكه نيلاً معتسفاً.. **والثاني**: يستفزني أيديولوجياً.. والحق أن مشروع الجابري كان قد جسد بالنسبة إليّ الأمرين معاً.. فهو نص راقني بقدر ما استفزني.. فمن الناحية المعرفية مارس الأستاذ الجابري جهداً معرفيًا كبيراً على الرغم من كل الهنات والكبوات التي قد يحصيها عليه ناقض هنا أو هناك.. أعني مسألة الشمول والبناء النسقي.. أما من الناحية الأيديولوجية فهو

مستفز بالنتائج التي انتهى إليها أو لنقل بالافتراضات التي انطلق منها، وهي التي تتعلق بالتراث الآخر. الخلاف الأيديولوجي هنا ليس بالجملة بل في بعض التفاصيل.. وإلا لا أحد يختلف حول الموقف العقلاني ومشروع النهضة ومذمومية التخلف.. المشكلة في التفاصيل وكما يقال إن الشيطان يكمن في التفاصيل.. قد أكون متفقاً مع الجابري في مواقفه مجردة عن كل هذا البناء، الذي جعل ضريبة تخلف العقل العربي يتحملها أولئك الذين شكلوا طلائعه الحضارية.. أزعجني أن يكون طابور أزمة العقل العربي هو الرازي وابن سينا والغزالي والشيعة والعرفان وعموم المشرق الذي بدا في خطابه الجابري متهرمساً عن بكرة أبيه. قد يكون الجابري من الناحية السياسية رجلاً ديمقراطيًّا، بمعنى آخر ليس استئصاليًّا على مستوى العمل، لكن قراءته أسست لضرب من الاستئصال في النظر.. لكن ما هو أساسي هنا، أن الجابري الذي كان مطوقاً بنتائج نقد العقل العربي هو اليوم أقل وفاءً لنتائجه، بل هو أكثر تحرراً منه معرفيًّا وكذا أيديولوجيا.. لذا يبدو أنه دخل مرحلة ثالثة، سمتها التخفيف من وطأة الأيديولوجيا، وهذا معناه منح مزيد من الأهمية للمعرفة.. والدليل على ذلك ما صدر عنه مؤخراً من خلال كتابه «مدخل إلى القرآن».. الخطأ الذي وقعنا فيه سابقاً أننا حاكمنا الجابري أيديولوجياً، وهذا المنهج خاطئ.. لأن الصراع سيكون أيديولوجياً عقيماً من الناحية المعرفية.. ومع أنه بالإمكان أن نبرر له أيديولوجياً لكننا لا نبرر له معرفيًّا، أنه وجد في بيئة كانت ولا زالت تجهل الكثير عن التراث الآخر. والوقوف على المصادر الكاملة ليس أمراً ميسراً.. وهذا ما وقع مع مستشرقين كثر، خانتهم المعطيات فكملوا من عقولهم كما يقال.. وحينما كتبت محنة التراث الآخر، وهو في الأصل رد على جانب من نتائج نقد العقل العربي، لم أكن لأوفق في ذلك لو أنني استندت للمعطيات المتوفرة حينها في بيئتنا.. لقد كلفني ذلك هجرة

سنوات والوقوف على المصادر في مجالها الطبيعي.. وهو أمر لم يكن متيسراً حتى بالمقارنة مع أيامنا هذه.. لذا وجب أن لا نحمل نقد العقل العربي أكثر ما يتحمله كمشروع ومحاولة، لا يفيد معها النقد الأيديولوجي بقدر ما يفيد معها النقد المعرفي، لأن نقد العقل العربي هو نفسه وبالنسقية المحكمة يفرض أن يكون عرضة للانهيار متى أمكن وضع اليد على جملة المعطيات الخاطئة أو الغائبة في هذا المشروع..

س - كيف تنظرون إلى هذا الكتاب وإلى الأفكار التي أثارها الكتاب في المشرق والمغرب؟

ج - إنه شيء مهم هذا الذي توصل إليه الجابري.. بغض النظر عن كثير من الآراء التي تناولها الكتاب المذكور، لكن لدي ملاحظات كثيرة، منها على سبل المثال، إذا كان من خصائص المنهج، الشمول؛ حيث ما من تجزيء ولا من انتقاء إلا ويخلّ بمصداقية المنهج، اللهم ما كان استثناء من القاعدة، والاستثناء لا يتم إلا بدليل معقول وإلا كان ضرباً من العبث، فإننا نجد في المحاولة الجابرية بعضاً من الانتقاء.. أي أن الباحث يمارس النقد هنا ويكتفي بالتسليم هناك.. يعارض ما شاء ومتى شاء ويسلم بما شاء ومتى شاء.. لذا أقول: إن كان الجابري يمتلك كل هذه الشجاعة ليرد ما بدا محلّ إجماع أو مورد تسليم القدماء والمحدثين بخصوص قضايا تتعلق بالقرآن، فلماذا كان في نقد العقل العربي يبني آراءه على ضرب من التسليم.. تسليمه بكل النتائج التي وجدها كما يقول بعظمة لسانه، في مصادرنا السنية، دون أن ينحو منحى التحقيق للنص الكامل كما يجسده التراث الرسمي والتراث الآخر معاً.. مثلاً لقد سلم بخرافة عبد الله بن سبأ، وبنى عليها كل أحكامه وقراءته للتراث الآخر، وأعاد إنتاج كل الأحكام الملية التي تجعل كل ما له صلة بالتراث الآخر، بمثابة كفر وخروج وزندقة.. ففي تكوين العقل العربي وبنيته يكون كل من تعرفن أو تبرهن على خلاف مقتضى الرشدية

قد تزندق. . وفي العقل السياسي كل من عارض خرج وتزندق. . ما الجديد عن ما كتبه أصحاب الملل والنِّحل؟!

لم نقف إذن على نقد جذري وشمولي للتراث، بل وقفنا على نقد تجزيئي وانتقائي للتراث، وكنت من أوائل من وصف الطريقة الجابرية بالتجزيئية والانتقائية. . أما ما حدث من إثارات في المشرق والمغرب فالمسألة تتعلق بأناس يقعون في المدارك الدنيا للفكر ولا يتابعون، بل هناك من يتعامل مع الفكر تعامل العوام. . ما حدث في المشرق تقصدون به ما حدث في مصر. . ومثل ذلك حدث مع حسن حنفي وقبله مع نصر حامد أبو زيد. . أذكر يوم قامت الضجة ضدّ نصر حامد أبو زيد كتبت مقالاً تحت عنوان: لنكفر الجميع أو لا نكفر نصر حامد أبو زيد. . وكان مثالي على ذلك بعض آراء الجابري. . قلت بأن هناك مما يذكره الجابري لو كان في مصر لتعرض إلى مثل ما تعرض له نصر حامد أبو زيد. . لم يكن ذلك اتهاماً لما كتب الجابري، بل كنت ممتعضاً من الطريقة التي يتم التعامل بها مع الفكر والمفكرين. . أي التجزيء والانتقاء حتى في أحكام التكفير. . نكفر من نشاء ونسكت عمن نشاء. . فالمسألة جزافية، أنت وحظك أن يمر تصريحك أمام محترف من محترفي قانون الحسبة، وإن كان فعل التكفير يأتي وفق حسابات دقيقة. . وطبعاً كان منها الطريقة التي تعامل بها عبد الصبور شاهين مع نصر حامد أبو زيد. . وسنكون ضدّ كل من يهاجم المفكرين من أعداء الفكر. . ولذا لا أهمية لما يأتي من زعيق هنا أو هناك. . فللتفكير حرمة حتى وإن لم نعترف للفكر بهذه الحرمة. . لا ننتقد المفكر من حيث يفكر بل ننتقد المفكر من حيث أفكاره. . أي من حقك أن تفكر كيف تشاء لكن ليس من حقك أن يسود فكرك كيف يشاء. . وقد تبين أن الذين كفروا يومها نصر حامد أبو زيد، اتهموه بتهمة الاستناد إلى نصوص ابن عربي وأفكار الشيعة والمعتزلة. . لقد كفروا ابن عربي والمعتزلة والشيعة

قبل أن يكفروا نصر حامد أبو زيد.. ومن الممكن أن يكفروا الجابري بالتهمة نفسها.. وهم إذ يكفروه «عملاً»، فقد مارس هو التكفير «نظراً».. وأخرج مدارس ومذاهب وشخوصاً عن مقتضى الإسلام الصحيح..

نقد العقل العربي هو في وجه من وجوهه مشروع تكفير نظري، وهذا على الأقل ما يناقض محاولة أركون الذي لم يمارس هذا الضرب من التغليب والتجزيء للتراث، حيث انفتح عليه في كليته مهما كانت نتائج الإسلاميات التطبيقية.. وهذا تحديداً ما جعل الكثير من السلفيين يجدون مرادهم في مشروع الجابري، ليس لأنه نحا نحو الفكر السلفي في الجملة بل للنكتة المذكورة، أنه خير مشروع يستدل به على مشروعية تكفير خصومهم، إنه قام بما قام به الكثير من الأيديولوجيين العرب، إنهم يعيدون إحياء الفكر السلفوي التكفيري بتقنيات حجاجية معاصرة، وهذا ضرره على الفكر الإسلامي كبير.. لقد شط الجابري عند هؤلاء الذين كفروه أو أنكروا عليه، بعيداً وتجاوز حده، لكن في نظري لقد حبا حبوة صغيرة أول مرة خارج منظومة المسلمات.. محاولة جريئة، لكنها مع الجابري لها نكهة خاصة!

س - يشكك الجابري في أمية الرسول ﷺ، وبذلك يكون قد خالف إجماع المحدثين وأهل السيرة والمؤرخين المسلمين، كيف تنظرون إلى موضوع أمية الرسول ﷺ وهل كان النبي ﷺ بالفعل غير أمي؟

ج - في مجال التحقيق التاريخي لا مجال للحديث عن الإجماع.. نحن هنا لسنا أمام حكم من أحكام الفروع الشرعية ولسنا أمام منطق التوافقات السياسية.. فأن يخالف الجابري الإجماع هنا هو حق طبيعي للناقد.. هذا مع أنني لا أرى في ذلك ما يخالف الإجماع.. والغريب أن هناك من يوحي بأن تلك الآراء جديدة وجريئة كما لو أنها قيلت لأول مرة في تاريخ الفكر الإسلامي.. الذين يقولون ذلك ويشيعونه في الصحافة وغيرها، يؤكدون على أنهم ليسوا محترفي معرفة وغير متابعين

لحركة الفكر.. شخصيًا وقبل تسع أو عشر سنوات تحدثت في كتابي: محنة التراث الآخر، الذي هو نقد لجانب من نقد العقل العربي، نفيت فيها أمية الرسول رأساً دونما تردد.. وحينما فعلت ذلك كنت قد استندت إلى إشارات ونكات وجدت في تراثنا وهي قديمة جداً.. ليس ثمة جديد في الموضوع.. ومع أنني أهنىء الجابري على هذه الفكرة وأرى أنه لأول مرة يفكر بتجرد عن النسق الذي تورط فيه في نقد العقل العربي، حيث كنت أرى في خروجه من مقتضيات النسق المذكور يأتي بنتائج مفيدة، إلا أنني أرى موقفه الأخير يؤسس لتقويض كل المباني التي أقام عليها نقد العقل العربي.. بمعنى آخر إنه ضرب من التهافت الذي ينسف الأسس والمسلمات التي ابتنى عليها نقد العقل العربي.. فحينما نجد الموقف الرشدي والخلدوني والشاطبي والتيمي والحزمي كلها مواقف تجعل من الأمية مسألة أساسية، حتى أن الجابري أبرز في نقد العقل العربي أهمية منظور الشاطبي لأمية الرسول، وكذلك اعتبرها ابن خلدون نوعاً من الإعجاز.. بل تتقوّم مقدمات نقد العقل العربي وتاريخية تشكل البيان والتدوين على خاصية أمية الجيل الأول للرسالة وعلى رأسهم صاحب الدعوة.. إذن نحن أمام تقويض حقيقي لمباني ونتائج نقد العقل العربي، ولسنا أمام تتميم للمشروع النقدي كما يرى أو يرى غيره.. ولكنها في نهاية المطاف ليست النهاية السيئة أو التهافت، بل أراها قطيعة مع نقد العقل العربي.. وهي في نظري قطيعة مطلوبة ومحمودة في حقه.. بل هذا ما كنا نتمناه دائماً، أن يكبر الجابري على مسلمات المذاهب، ويمارس تفكيره بعدالة ومن دون مسبقات..

س - يشير الجابري في كتابه الأخير إلى مشكلة التحريف، ويؤكد تورط مصادر السنة والشيعة في تأكيدها، لا سيما وأنه يستشهد بالمعتدلين من الشيعة كالشيخ النوري وليس بالغلاة؟

ج - ليس في ذلك جديد.. وللمرة الأولى يكون الجابري منصفاً

حينما يتحدث عن وجود ما يشير إلى التحريف في المصدرين معاً ويحيل بعدالة لوجود أخبار في كتب الفريقين.. ففي صحيح البخاري هناك من الأخبار والأحاديث ما هو ظاهر في القول بالتحريف، وطبعاً ليس الحديث هناك عن النسخ، لا تلاوتي ولا حكمي، بل هي ظاهرة في التحريف والسقوط.. والموضوع هنا قد يطول، لكن ما أحب أن أؤكد عليه أن الحديث عن التحريف تم فهمه خطأ، إذ في رأيي لم يوجد في القدماء سنَّة وشيعة من عنى بالتحريف النص القرآني المركزي، بل قصدوا بذلك التأويل.. فقد كان الكثير من الأوائل يعتبر التأويل قرآناً ويطلق على تأويله اسم القرآن انطلاقاً من قوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ﴾.. بمعنى لا تعجل بتأويله.. يتعين علينا اليوم أن نتحدث عن ما بعد إشكالية التحريف.. أي كيف نوجه فلسفة النص ونحتوي بها إشكالية التحريف باعتباره إشارة إلى شكل من أشكال الإكمال والاستبدال والتناص الذي اعتاد عليه بعض القراء المسلمين.. وكل ذلك بسطنا الحديث عنه في كتاب: محنة التراث الآخر، وهي بالمناسبة دعاية مقصودة لكي نقرأ بدل أن نكتفي بالاتهام.. فالدعاية لما ينفع المعرفة أمر مستحب.

لكن دعني أعود معك إلى قصة الشيخ النوري الطبرسي صاحب كتاب «فصل الخطاب في إثبات تحريف كتاب رب الأرباب»، وهو الكتاب الذي طالما أوتي به كحجّة على قول الشيعة بالتحريف.. ولا أريد أن أدخل من مدخل تحرير مفهوم الحرف والتحريف الذي استعمل كثيراً لدى بعض القدماء، حيث قصدوا بذلك حرف المعنى وتحريف الكلام عن مواضعه.. بل دعنا نختصر الطريق لنقول بأن ثمَّة مقدمة لا بدّ من استحضارها.. أولاً إن الشيخ ميرزا حسين نوري الطبرسي ليس من المعتدلين كما توهم الجابري وأمثاله، بل هو من الأخبارية التي تذهب إلى وقوع النقيصة في الكتاب، ولهذا رفضوا القول بحجية

الكتاب. . ولجمهور الأصوليين والمحققين الإمامية مئات الكتب التي تصدت لهذا الزعم قبل أن يدركه غيرهم، وكلها تؤكد على أن القرآن المعتبر هو ما بين أيدي المسلمين، المصحف العثماني وقد صح ما بين دفتاه. . ووجب حينئذٍ أن نحقق فيمن هو المقصود بالاعتدال عند الإمامية من غيره. . والمعتدل ليس بالضرورة هو المعترف بقدره والموصوف بالصلاح، فذلك ما لا علاقة له بالاعتدال، حيث يراد بالمعتدل من الإمامية المحققين الأصوليين المجتهدين. . وكذا من الأخبارية من راموا الاعتدال والتحقيق كما هو حال بعضهم كصاحب الحدائق قدس سره. . وغير الملمين بالتراث الشيعي يخلطون بين أصناف العلماء الإمامية فلا يميزون بين الأخبارية والأصوليين. . فبالأحرى أن يميزوا بين طبقات الأخبارية وطبقات الأصوليين. . ومن يؤخذ بإجماعاته من الأصوليين أنفسهم من غيره. . فالمسألة ليست بهذه البساطة والمدرسة الشيعية هي من التعقيد بحيث لا تسمح بمن يمر على متونها مرور الكرام أو يمارس نزهة سريعة بين بعض مصنفاتها حتى يقف على مداركها. .

أما الملاحظة الثانية، فإن منزلة الشيخ النوري وجميع هذه المصنفات الأخبارية لا تتنزل منزلة الصحيح عندهم. . فهذه مقايسة ساذجة لم يقل بها محققو الإمامية، ولا كافي الكليني يضارع منزلة صحيح البخاري عندهم كما قال الجابري وقال الكثير من السلفيين قبله. . فالمطلع على الرجاليين كالطوسي والغضائري ونظرائهما وصولاً إلى السيد أبي القاسم الخوئي لا يوجد فيهم من قال بقطعية صدور أخبارهم. . ففيها ما هو ضعيف وواضح الضعف. . فالشيعة لا تؤمن بوجود مدونات صحيحة بالجملة بل تؤمن فقط بوجود أخبار صحيحة قد توجد في هذا المصنف أو غيره، والعمدة في التصحيح والتضعيف هو ضابط الدراية وعلم الرجال. . لكنني أقول لك ليتك اطلعت على رأي أعلام الشيعة الإمامية في روايات وكتب الشيخ النوري الطبرسي، فلقد

نبهوا إلى هذا الحشو وإيراد أخلاط من الروايات كما لو كان الشيخ النوري في وارد تحشيد كل ما وصله من روايات عجيبة وغريبة، لكونه اشتهر بكتابة الموسوعات كما هو حاله في مستدرك الوسائل.. وما رواه حول سورة النورين هو نفسه يحيله على كتاب «دبستان مذاهب» وهو كتاب منسوب حسب بعض المحققين لداعية زرادشتي اسمه كيخسرو بن إسفنديار.. وطبعاً الكتاب لم يكن صاحبه معروفاً حيث تمت النسبة إلى كيخسروا بعد التحقيق الذي قام به رحيم رضا زاده ملك.. وقد نبه النوري إلى أن هذه السورة لم يجدها في مصادر الشيعة.. وكان من المفترض أن يستحضر خصوم الشيعة رأي النوري وشهادته بأن روايته تلك عثر عليها في هذا الكتاب الذي اختلف المحققون حول كاتبه قبل أن يحقق رحيم رضا في الموضوع..

وأعتقد أن الحاج ميرزا حسين النوري ربما ظن أن صاحب الكتاب هو من المخالفين للشيعة وأراد أن يستدل به ما دام يخبر عن وجود سورة ساقطة فيها ذكر صريح بالولاية.. وهذا من الغرائب حتى أن الكثير من أعلام الإمامية ومتأخريهم كالإمام الخميني يتعجب كيف أن المعاصرين للشيخ النوري لم يردوا سخف هذا القول، وكيف أنه ومع جليل قدره ذهل كما ذهل المعاصرون له عن استبصار تناقضات هذا الكلام، حيث لو صح ما في هذه الرواية إذن لِمَ لم يحتج به الأئمة والصحابة الموالون ضدّ خصومهم.. المشكل هنا ليس في كتاب الحاج ميرزا النوري الذي لا يؤخذ كلامه مأخذ الصحيح، والشيعة الإمامية تؤمن بالاجتهاد وهي من المخطئة ولا تقبل بالخبر إن ورد من غير طريق صحيح على الضابطة المقررة في علم الدراية والجرح والتعديل.. فوجودها لن يكون معتبراً كما لو وجدت مثلاً في صحيح البخاري.. ولذا لزم أن نأخذ رأي الشيعة من مداركهم الرسمية، بمعنى آخر، ليس المقصود بالمدارك الرسمية كل ما هو معتبر في خزائن الكتب، بل مما أجمع عليه أهل

التحقيق المعتبرين عند الإمامية، فوجب أخذه من مصادره الرسمية ولن يوجد بإطلالة فضولية في هذا البحر المتلاطم من مصنفاتهم.. علينا أن نميز ما هو الشاذ النادر في تراثهم ومن يمثل الإجماع، ومن المعتبر دون غيره، وكيف يفهم الإجماع عندهم، فوجود رواية في الكافي أو رواية في الكتب الأربعة، لا يعني أن مذهب الشيعة على هذا الرأي تماماً كما أن وجود روايات التحريف في البخاري وغيره لا يعني أن رأي السنَّة على القول بالتحريف..

أقول هذا مع أن لي رأياً خاصًا في الموضوع، أرى فيه بأن القول بالتحريف بهذا المعنى لم يقل به أحد ولا استساغه عقل مسلم، بل ثمّة حلقة مفقودة في البين ترى أن التحريف هو مساوق للتأويل، وبأن الحرف والتحريف هو تقنية من تقنيات التأويل، فحرف المعنى من الحقيقة إلى المجاز مع وجود القرينة الصارفة، سياقية أو عقلية وحالية متصلة أو منفصلة، وما شابه كله يأتي بمعنى الحرف بتعبير القدامى، وكما الحرف ينقسم إلى ما هو صحيح كحرف المعنى بصرفه من الحقيقة إلى المجاز مع وجود القرينة، وإلى ما هو فاسد كحرف الكلام عن المعنى بعد عقل الكلام كصرف المعنى من الحقيقة إلى المجاز من دون قرينة معتبرة.. فإن التأويل الذي هو غاية الحرف ينقسم إلى قسمين: التأويل الصحيح الذي مدح في القرآن إلى جانب التأويل المذموم الذي ذم في القرآن.. فليس الحرف والتأويل هما المذمومان في ذاتهما، بل لعارض يصرفهما عما يتعين التقوّم به في الحرف الحسن والتأويل الصحيح.. وأحسب أن المسألة تتطلب نقاشاً وبحثاً صناعيًا طويلاً لا يتسع له المقام..

س - ماذا ترون في أن الفاتحة لم تنزل مع السورة، بل كما يعتقد الجابري أنها مجرد فواصل بين السور؟

ج - نحن نتحدث عن فاتحة السورة أي البسملة.. وأنا أحب أن

أقول البسملة ـ وهذا هو الإطلاق المتداول ـ بدل الفاتحة لسببين: **الأول**: تمييزاً لها عن الفاتحة التي تنصرف إلى السورة الخاصة (سورة الفاتحة)، **والثاني**: لأن الحديث عن كونها فاتحة ينبني على خلفية اعتبارها مجرد فاتحة للفصل والتبرك وليست آية.. والحق أن هذا إشكال، على الأقل فيما يتعلق بالفقه الإمامي، حيث تعتبر البسملة آية.. أتعلم ما الثمرة من هذا النقاش؟ أجل، لو اعتبرنا البسملة مجرد فاتحة للسور، يمكن الإتيان بها من دون نية مستقلة، لكن لو كانت آية خاصة تتعلق بكل سورة بنحو من الاستقلال على الأقل التعبدي، تعين أن تشمل في نية الإتيان بالسورة المخصوصة.. فلا يجوز أن أنطق بالبسملة ثم أنوي الإتيان بالسورة.. هذا إشكال فرعي مترتب على الإشكال الأول.. وحسب اعتقادي وتصوري أن البسملة هي آية وليست مجرد فاتحة للفصل بين السور، والسبب هو وجود نصوص معتبرة في المقام في ما ورد من الأخبار عن النبي ﷺ وآل بيته عليهم السلام. فالمسألة تعبدية فلا مجال لإقحام التأمل فيما حسم نصًا..

س ـ وماذا عن انعدام وجود الفاتحة في سورة التوبة، لا سيما والجابري يؤكد على ما ضاع من سورة التوبة؟

ج ـ هو ذا بيت القصيد.. لماذا غابت البسملة عن سورة التوبة؟ فلو أنها كانت مجرد إجراء عفوي اختياري للفصل بين السور، لما استثنيت براءة؟!.. الجابري يأتي برأي ضعيف يرى أنها ذهبت ضمن ما ذهب من فواتح سورة التوبة.. فهل ما أكلته النعجة من هذه السورة أو تلك أكل من صدور الصحابة الذين كان فيهم من يحفظ القرآن.. هذه إهانة للصحابة.. ليس لجهة تقديس لشخوصهم فقط بل لجهة وضعهم الموضوعي كحفظة للقرآن.. والحق أن عدم وجود البسملة في سورة براءة مما أدركه جيل التنزيل نفسه.. فثمّة نص للإمام عليّ بن أبي طالب يعلل عدم ورود البسملة في براءة، حيث قال بأن البسملة أمان، وليس

في براءة أمان. لأنها بدأت ببراءة من المشركين وقد كان علي بن أبي طالب هو من بلغ براءة وقرأها على الحجيج.. هذا نص منطقي ووجيه، ويكفي لرد كل الأخبار المبنية على تكهنات فضلاً عما فيها من ضعف في المعنى والإسناد..

س - اعتمد الجابري في ترتيب المصحف على أسباب النزول، بخلاف الترتيب الموجود الآن، ماذا عن مسألة الترتيب في القرآن؟

ج - الترتيب في اعتقادي أمر مؤكد وتوقيفي ما دام صاحب الدعوة قد قرأه كذلك وقرىء عليه كذلك وسارت على ذلك المتشرعة جيلاً بعد جيل.. يمكنني القول إن القراءة تعبدية في هذا المجال.. لكن طلب المعنى أمر آخر ويخضع لاعتبارات أخرى.. أي ليس ثمَّة ما يمنع من أننا نعيد ترتيب الآيات بحسب عملية العرض المطلوب، عرض القرآن بعضه على بعض لتحقيق المعنى المطلوب.. وأعتقد أننا حتى لو اقتفينا أسباب النزول نفسها ورتبنا القرآن على وفقها كما فعل الجابري، فلا يقدم ولا يؤخر ذلك شيئاً بالنسبة للمعنى.. فالتفسير الموضوعي لا يتجاوز فقط الترتيب التوقيفي للنص ولا الترتيب الموردي له، بل ينتج علاقة جديدة بين النصوص، تحقيقاً للمطلوب، أي أن نقرأ القرآن بعضه في بعض، حيث من فعل ذلك هدي إلى المعنى الصحيح.. من هنا استنتجت أن ثمَّة اعتبارين في المقام: القراءة المعنوية للقرآن، وهي مفتوحة على ضرورات الصيرورة الموضوعية للمعنى وجدل النص مع الواقع وجدله الداخلي، وهذه قراءة توفيقية.. وهناك القراءة التعبدية وتأتي على الترتيب المتداول بدليل الأخبار المؤكدة على قراءة صاحب الدعوة للقرآن على الترتيب المذكور.. وقراءة جبرائيل للقرآن على الرسول ﷺ على الترتيب نفسه، بالإضافة إلى سيرة المتشرعة أيضاً ونحوهم القراءة على الترتيب المذكور.. شواهد حية على أن الترتيب معتبر في المقام.. هذا مع أنني لا أعتقد بأن عملية جمع القرآن تمت في العصور المتأخرة، بل ما تؤكده الأدلة والقرائن والشواهد أنه جمع واكتمل في زمن

الوحي. . ومن هنا لا أعتقد أن عصر الرسول ﷺ عصر أمية ولا النبي كان أميًا بالمعنى المتبادر من الأمية، وهذا مما عالجناه بتفصيل تحت عنوان: محنة توحيد القراءات، من كتاب: محنة التراث الآخر. .

س - **في حوار مع أسبوعية الأيام العدد ٢٥٤، ١١ ـ ١٧ نوفمبر ٢٠٠٦، اعتبر الجابري أنه رغم وجوده في بيئة سنية ويصعب عليه أن يكون شيعيًا أو خارجيًا، إلا أنه يتعامل بكيفية محايدة مع ما قاله الشيعة وما قاله الخوارج، كيف تنظرون إلى هذا الكلام؟**

ج ـ هذا ليس صحيحاً، على الأقل فيما يتصل بنقد العقل العربي. . لقد تجنب الموضوعية بصورة فاضحة. . وتحامل على التراث الآخر وحاكمه بكل المسلمات التي اختلقها التراث الرسمي. . ربما في الكتاب الأخير حصل هذا النوع من الاجتهاد في تحري الموضوعية إلى حدٍّ ما. . أما قبل ذلك فهو مما تطرقنا له وبينا مواضعه، فراجع. .

س - **في الحوار السابق مع أسبوعية الأيام، شكك الجابري في حديث خذوا نصف دينكم عن عائشة.. معللاً ذلك بأن الرسول ﷺ مات عنها وهي لا تتجاوز سن ١٨ بعد أن تزوجها وهي في سن ١٢ أي لم تلازمه إلا مدة ٦ سنوات فكيف يعقل أن يروى عنها كل هذا العدد..؟**

ج ـ هذا صحيح. . فحديث خذوا نصف دينكم عن هذه الحميراء، يعارض منطوق القرآن كما يعارض محتواه نفسه بدليل إكمال الدين وإتمام النعمة. . ولكنني أعتقد أنه جانب الحقيقة لما قال بأن الحديث وضع لتضخيم دور عائشة مقابل ما فعل الشيعة في تضخيم شأن فاطمة. . هذا كلام يخلو من التحقيق، وليس فيه سوى المقايسات العقيمة. . قد يكون ذلك الخبر من وضع البكرية أو غيرها. . لكن فاطمة لم تعط المكانة التي تستحقها، على الرغم من أنها كانت ملتقى العلم والدين كله، فهي بنت نبي وزوج إمام وأم للأئمة. . ألا يجعلها ذلك في مكانة غير المكانة التي

وضعت فيها في تراثنا الرسمي حتى صدقنا قولة اليسوعي لامانس وهو مطرب الأمويين كما وصفه ماسينيون، الذي صورها كشخصية ليس لها من المميزات سوى الحزن والإصابة بفقر الدم. . لكنني أدعو الجابري وأي منصف أن يقرؤوا خطبة فاطمة بعد وفاة أبيها وبعد أن منعت من إرثها، لنقف على زبدة الفقه الفاطمي الكبير. . لماذا نستكثر على فاطمة أن تكون فقيهة وهي ملتقى العلم كله. . وأحسب أن علي شريعتي كان صائباً لما قرأ قيمة فاطمة من حيث كفاءتها لا من حيث هي فقط بنت نبي أو زوج إمام وأم أئمة، حينما قال: فاطمة هي فاطمة! مع أنني أرى أن قيمة فاطمة الذاتية يعززها أيضاً أنها بنت نبي كان يقول: «فاطمة أم أبيها». وإذا كان يقول: «خيركم خيركم لأهله». . كيف لا يهتم ببضعته لتكون سيدة نساء العالمين وأعلم الناس؟!. .

وإذا كان قد استفاد وصف التراث الآخر بالهرمسي من كوربان الذي أنادها بدوره من ماسينيون، فلماذا لا يقف عند تأملات ماسينيون لشخصية فاطمة؟! وأتفق مع الجابري بخصوص العملية الحسابية التي استند عليها وقبله فعل صاحب شرح الملحمة الترية الذي كان قد أشار إلى استبعاد روايتها تلك، مؤكداً على حساب تاريخ زواجها بالرسول ﷺ وتاريخ وفاته عنها، وعدد الأيام التي قضاها عندها وغيرها من الاعتبارات الأخرى ليخلص إلى أن عدد الأخبار التي نسبت إليها فيه مبالغة كبيرة. . ليس ثمة جديد، لكن أعتقد أن ما نسب للسيدة عائشة كان من قبل وضّاعين لا يجدون طريقاً أسهل من نسبة الأخبار لزوجة الرسول ﷺ، فكما استغلوا وضعها سياسيًا في حرب الجمل، أرادوا استغلالها أيديولوجياً في إسناد الأخبار الموضوعة إليها، وهذا أمر لم يكن غريباً على سلوك الوضّاعين في ذلك الزمان وكل زمان. . ، فينسبونه لعائشة لأنها امرأة وكان اللقاء بها وسؤالها خلف حجاب يتيح للوضّاعين أن ينسبوا لها ما شاؤوا، حيث يصعب تكذيب ذلك في كل حين. .

س - ذكر الجابري أن الشيعة أضافت كلمة وعترتي إلى حديث تركت فيكم كتاب الله.. ما رأيكم في ذلك؟

ج ـ هذا كلام لا وجه له، ويخلو من التحقيق. . الخطأ الأول أنه لا يوجد حديث مبتور بهذا الشكل، أي: تركت فيكم كتاب الله. . والحق أن المروي هو كتاب الله وسنتي. . ومع ذلك أقول إن التحقيق يجعلنا نعتقد بأن الخبر الثاني حاكم ومقيد للأول. . هذا ناهيك عن أن راوي حديث العترة هو مسلم في الصحيح، وكذا يذكره النووي في رياض الصالحين باعتباره متفق عليه وهو حديث ابن أبي الأرقم، والنَّسائي في خصائصه، والترمذي في صحيحه ويستحسنه وهلم جرا. . فكيف يقول إن الشيعة هي من زاد ذلك. . بل لو شئت التحقيق، فإن حديث الكتاب والسنَّة نفسه بهذا العموم هو من بلاغات مالك في الموطأ، كما يؤكد ذلك ابن عبد البر، ولم يصح، فكيف نتهم ما صححه أعلام السنة بالوضع ونصحح ما جاء في الموطأ مرسلاً ضعيفاً. . بينما خبر العترة يورده النسائي في الخصائص، وكذا الترمذي واصفاً إياه بأنه حديث حسن صحيح وغيرهما من أعلام السنّة. . هذا ناهيك عن أن الجابري تحدث عن حديث يفرد القرآن دون السنّة، لم يروِ قطّ بهذه الصيغة لا عند السنّة ولا عند الشيعة. . اللهم إلا أن يكون الخطأ هنا مطبعيًّا؟!

س - يعتبر الجابري أن مفهوم النبوة والإمامة عند الشيعة والمتصوفة يجد أساسه في الهرمسية؟

ج ـ قلت قبل قليل إن إحدى الملاحظات على الطريقة الجابرية استناده إلى منهج لا يفي به دائماً حتى النهاية. . وإلا لن يكون في الإمكان بلوغ هكذا نتيجة إلا توسلاً بأسلوب الأشباه والنظائر. . وهو الأسلوب الذي لو طبقناه على النص القرآني لوجدنا فيه الكثير مما نسبه الجابري إلى الهرمسية. . إن الجابري يسلك هنا مسلك طائفة من

المستشرقين اتبعت هذا المنهاج، وهو منهاج يقوم على قلة المعطيات وقلة الاستئناس بالتراث في كليته.. لكنه تغاضى عن رأي طائفة أخرى من هؤلاء المستشرقين الذي وقفوا على عمق آخر من التراث.. هناك إذن الكثير من الانتقاء.. الحديث عن هرمسية التشيع هي مأخوذة حرفيًّا وبانتقائية عن هنري كوربان.. لكن الجابري لا يستطيع أن يتبنى كل نتائج هنري كربان بخصوص التشيع.. فهنري كوربان وهو من أبرز المتخصصين في الإسلام الشيعي بعد ماسينيون، لم يقصد ما قصد الجابري، بل إنه انتهى إلى نتيجة، هي أن الإسلام الشيعي الاثني عشري أصيل في التعاليم الإسلامية وهو يمثل التوازنية والتكاملية الإسلامية.. لكن الجابري يأخذ ما يريد ويترك ما يريد.. لأن هنري كوربان وقبله ماسينيون كانا قد اعترفا بأصالة الكثير من الأفكار الشيعية واجدين جذورها في التعاليم الإسلامية.. هذا ناهيك عن وجود خلط كبير في تقدير هذه المفاهيم بين فرق شيعية كثيرة.. إن منحى الأشباه والنظائر لا يثبت شيئاً ولا يسلب شيئاً، لأنه منهج عقيم وساذج.. لأننا لو طبقناه على جميع الأديان والمذاهب والآراء الدينية سنجدها هرمسية بصورة أقل أو أكبر..

س - وماذا عن القول بأن التأويل الشيعي لا يستقيم مع قواعد اللغة أو قواعد العقل كما يرى نفس الكاتب؟

ج - الجابري هنا يحاول أن يحاكم بعض أشكال التأويل الشيعي لبعض النصوص بقواعد المنهج الظاهري العقيم في مجال فهم النصوص.. إنه بتعبيرٍ آخر يحاسب المعنى الباطن بالمعنى الظاهر.. ويحاكم التأويل بقواعد التفسير.. بينما لكل مجاله وحقله وأطواره في استكشاف المعنى.. بعض هذه التأويلات هي مجاز أكثر منها حقيقة.. واحتمال بعض المعنى من بعض النصوص لا ينفي احتمالها للمعاني الأخرى بما فيها الظاهري.. إنها قصة فنّ التأويل الذي لم تستأنس به

الطريقة الجابرية فوقعت في أحكام من هذا القبيل وتوسلت بمواقف ظاهرية ليست على كل حال جديدة على تراثنا. . بل حتى النظرة الضيقة للعقل، إن هي إلا نظرة متجاوزة. . وبهذا العقل الضيق بدت له المساحات الأخرى في العقل الموسع واقعة تحت العقل، في الوقت الذي تبدو العقلانية البرهانية هي ذلك الحيز الأولي والصغير في مساحة العقل الواسعة. . وهذا أمر قيل حوله الكثير. . وعموماً لقد تطرقت إلى ما أسميته بسر تضخم النزولات التأويلية في الأئمة العلويين من كتاب محنة التراث الآخر، ففيه بسط لهذه النكتة. . دون أن ننسى التذكير بأن الجابري اعتبر أن فارس المنهج الشيعي أو الصوفي المتهرمس هو مبدأ المثال والممثول الفيثاغوري،مع أنه لم يفعل هنا سوى التوسل بمنهج المثل والممثول. . ومنطق المماثلة في حكمه بالهرمسية على العرفان الشيعي والصوفي لمجرد الأشباه والنظائر. .

س - يقول الجابري بأن انتقاله مباشرة من بحث النبوة والإمامة عند الشيعة والمتصوفة إلى بحث اليهودية والمسيحية، سببه وجود نفس التقاطعات مع الموروث الهرمسي. كيف تنظرون إلى ذلك؟

ج ـ إذا كان الجابري بموجب مغالطة الأشباه والنظائر يتحدث عن تقاطعات من ذاك القبيل،مع الموروث الهرمسي واليهودي والمسيحي تأسيًا بطائفة من المستشرقين وليس جميعهم، فلماذا لا يوسع من وظيفة هذه المغالطة ليقول كما قال بعض المستشرقين بالفعل، إن وجود بعض الأفكار المتشابهة بين الإسلام وأهل الكتاب دليل على أن الإسلام ما هو إلا نقول من الكتب السماوية السابقة. . حتى إذا وجدوا بعض الاختلاف في تلك التعاليم قالوا بأنها ناتجة عن نقول خاطئة لنصارى هرطقيين أو منحرفين كالذين هاجروا إلى الجزيرة العربية، مثل ما فعل بروكلمان وغيره. . سيكون الإسلام كله والقرآن كله ميسر لمثل هذه التقاطعات. . مسألة التقليد والانتقاء سمة بارزة في مثل هذه الأحكام. .

والمطلوب أحياناً أن لا نبني على ما وقعت عليه أيدينا من أفكار دون أن نكلف أنفسنا التحقيق فيها والبحث عن مزيد منها.. أو أن ننتقي أحياناً دون ترجيح إلا ما كان ينسجم مع النسق الذي نرتضيه.. مثل ذلك مثل إنسان يصنع هيكلاً فارغاً ثم لا يهم بأي محتوى يملؤه بعد ذلك.. أي هو في النهاية هيكل مغرٌ في الظاهر لكنه مليء بمادة خسيسة، وأحياناً ملفقة من مختلف المعادن النفيسة والخسيسة..

س - يرى الجابري أن الشيعة وجدوا في نظرية الفيض الأفلاطونية ما يؤكدون به تلقي الإمام للوحي؟

ج - لا أدري حقيقة، أي تشيع هو المعني بهذه الأحكام؟ ربما هذا من تأثير آراء أهل الملل والنِّحل بخصوص الفرق التي يسمونها ضالة.. وإذا كنا نسعى لفهم عقائدهم من خلال بعض متفلسفتهم كإخوان الصفا وابن سينا، فالأمر سيكون مدعاة للأسف، لأن رأي السنّة لا تمثله الرواقية الفلسفية التي يمثلها الرازي ونظراءه.. قسم كبير من الآراء والتعاليم التي بنى عليها الباحث هذا الحكم لا تعبر عن ما أجمعت عليه هذه المدرسة.. بمعنى آخر يمكن أن يستدل شخص ما بحديث صحيح أو غير صحيح من البخاري ومسلم على أن عقائد أهل السنّة هي كيت وكيت.. لكن المعتبر في المدارس والمذاهب هو ما أجمعت عليه المدرسة في آخر طبقاتها وإجماعاتها.. ولا نكتفي بالشاذ النادر كما أن قسماً من الشيعة الذين أخذ عنهم الجابري أمثلة عن الغلو وهم طائفة من الأخبارية مثلاً، هم ممن يرفضون الفلسفة وينكرون على من قال بالفيض ومع ذلك بين أيديهم نصوص تثبت تميز علم الإمام.. هذا التميز من وجهة النظر العقائدية لا يثبت استمرار الوحي بالمعنى الخاص الذي هو من وظيفة الرسول ﷺ. بل الحديث هنا فلسفيًا عن أن علم الإمامي هو من جنس العلم الحضوري الذي تفيده الآية: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾، حيث علمهم بالقرآن الذي فيه تبيان كل

شيء وذكر علمهم في سياق ما علموهم حضوريًا يفيد هذا التميز، وليس ذلك من جنس الوحي بالاصطلاح الخاص، بل العلم الحضوري مقابل العلم الحصولي الذي هو علم سائر الناس.. ولما أقول الاصطلاح الخاص وأقرنه بالوظيفة، لأقول بأن العلم الحضوري بالمعنى العام هو ضرب من الوحي، لأنه حدوس وكشوف.. وهذا من جنس «أوحى ربك إلى النحل» وما شابه.. ومن هنا أحب أن أقول بأن الوحي ليس ميزة بها استحق الرسول مقام النبوة، بل الوحي وظيفة للتبليغ يمكن أن توجد فيمن هم أدنى مقاماً من الإمام نفسه متى اقتضت مشيئة الله.. ونحن نعتقد أن الوحي بالمعنى المذكور توقف مع وفاة الرسول ﷺ، لأن ما بعدها ختم للرسالة، ولكنه بدء التأويل، الذي لا يعلمه إلا الله والراسخون في العلم.. والقضية لا تحتاج إلى فلسفة الفيض ولا إلى شقاوة الأشباه والنظائر التعسفية.. وتفصيل ذلك يطلب في محله..

س - تتهمون الجابري بعدم معرفته بالمعطيات التاريخية ووقوعه في الخلط، كيف ذلك؟

ج - ليس الجابري وحده متهماً بذلك، بل ربما لأنه حاول أن يقدم قراءة صحيحة لما هو سائد في معتقدات السواد الأعظم من الناس.. ثمة مستشرقون كما قلت وقعوا في هذا النوع من الخلط، لأنهم استهانوا بالتراث الآخر ولم يكلفوا أنفسهم بتوزيع الجهد على كل التراث.. ليس غريباً أن ترى مونتسكيو مثلاً في رسائل فارسية يترجم عبارة الاثني عشر إماماً عند الإمامية بالأنبياء الاثني عشر - douze prophetes -.. أو مثل غولدزهير حينما يعتبر زواج المتعة هو ذلك الزواج الذي يترخص فيه الشيعة في ظروف خاصة مثل الحج، وهو هنا يخلط بين متعة الزواج ومتعة الحج.. أو اعتبار دو غوبينو كتاب إلى الأعلى وينزلهما بصورة مكررة كما لو كان من قبيلة.

س - **كلمة أخيرة حول كتاب الدكتور محمد عابد الجابري؟**

ج ـ أقول بالنسبة لكتاب السيد الجابري: بحث مشروع وتفكير مشروع.. ومع أن ما قاله ليس فيه جديد إلا على بيئتنا، فإنني رأيت في كتابه الأخير قطيعة موضوعية ولو صغرى مع الكثير من آرائه في ملحمة نقد العقل العربي.. وأقول أيضاً بالمناسبة: إن وجود أخبار عند الفريقين رويت على نحو من الشذوذ مطمئن بعدم صحتها، فالقول بصحة ما بين دفتي المصحف العثماني ومحفوظيته ينفق عليه المحققون من الفريقين كما لا يخفى.. ومع ذلك نعتقد أن ثمة توجيه لمعنى الحرف، يجعله مصداقاً للتأويل الذي حورب في التاريخ الإسلامي تحت أكثر من عنوان.. وأن يكون القرآن تبياناً لكل شيء، ليس بالتوقف عند ظواهره أو الإستناد إلى ما جاد به المورد الأول، بل أن تبيانه لكل شيء مشروط بالتأويل، أي الخروج بالنص من زمن التنزيل إلى زمن التأويل.. ومن النزول الواحد بلحاظ المورد الأول إلى النزولات المتجددة برسم الموارد المحتملة والنوازل المفترضة؛ فالقرآن كما يقول صدر المتألهين: مجدد الإنزال على قلوب التالين له!

الرد المختصر على الخطاب المبتسر..

وقفة مع رسالة أبي يعرب المرزوقي المفتوحة إلى السيد حسن نصر الله

عن أقلام الثقافية ـ ٢٠٠٧، ٠٢، ٢٤ ـ ٥٩: ١٠ pm

المسألة الشيعية: كيف يمكن علاجها؟ كان ذلك عنوان المقالة التي كتبها الدكتور أبو يعرب المرزوقي، ونشرت ضمن ما نشرت في أخبار الأدب ليومه الأحد ١١، فبراير ٢٠٠٧م العدد ٧٠٩، لمدير تحريرها الأديب والروائي جمال الغيطاني. وهي بمثابة رسالة مفتوحة إلى السيد حسن نصر الله، كما جاء في عنوان صاحب المقالة أيضاً. المقالة جاءت في سياق الجدل الذي طفا على السطح بخصوص الخلاف المزمن بين السنّة والشيعة. الصراع الذي ما كان ليطفح كيله إلا في البؤر التي دنا منها الاحتلال دنواً فاحشاً، وعملت فيها سياسة التفريق والتكفير فعلتها المنكرة، وغذاها الجهل البسيط والمركب في تواطؤ وشطط. فمن يقرأ توطئة المقالة يظن لا محالة أن الباحث هو بصدد إيجاد حلّ جذري لمسألة الخلاف التاريخي، وبأنه يملك مفاتيح الحلّ السحري. تلك طريقة أبي يعرب المرزوقي في تدبير عالم المعرفة. فهو يوحي دائماً بأنه يملك هذه المفاتيح. وهي مفاتيح لما نتلمسها نجدها لا تعدو كونها محاولة شقيّة وقاسيّة لإعادة إنتاج خطاب الأزمة ذاته، والنتائج ذاتها التي أنتجها التراث المتغلب، وجملة آراء أصحاب الملل والنِّحل الذين خلقوا

لها تاريخاً للاصطفاف المذاهبي والطائفي في نوع من التسلية بتجميع الشاذ الناذر لهدف إمتاع القارئ بموسوعات لعلها زادت في طين الخلاف بلة، وكانت سبباً في مزيد من تهويل التشرذم الطائفي والمذهبي. لكن قبل أن أمضي مع أبي يعرب المرزوقي في ما تطرق إليه من إشكالات أحب أن أذكر، بأننا أمام باحث من طرازٍ آخر. شخصيًّا أنظر إلى أبي يعرب المرزوقي كباحث قدير قل له نظير في مجال النظر الفلسفي، وإن كانت المفارقة هنا تكمن في أن نتائجه لم تخلُ من شطط بل إن مشروعه الفلسفي الكبير بقدر ما يمتع برياضته الفلسفية في طريق الوصول، فإنه يخيب الآمال في جهة الوصول. حيث هو مشروع استئصال لكبرى المحاولات الإنسانية بما فيها تلك التي شهدتها الحقبة الإسلامية حتى القرن الوسيط، ليضعك قسراً في منتهى ما بلغه ابن تيمية في النظر (العقائد) وابن خلدون في العمل (الميتا ـ تاريخ).

إن مراده هو بلوغ هذه الإسمية التي جعلته يرى أن أولى معالم النهضة العربية تكمن في المحاولتين المذكورتين، تأسيساً للاسمية العربية المعاصرة على خلفية استئناف المحاولة التيمية والخلدونية. فالمسألة إذن إما أن نكون تيميين أو لا نكون. وعلى زماننا إمام أن يكون تيميًّا وبالدرجة الثانية خلدونيًّا أو لا يكون. إعادة فلسفة ومنطقة نتائج التسليف بكلِّ آفاقه الاستئصالية التي اختزلت الحلّ في تاريخنا في ما جادت به آراء ابن تيمية في مجال العقائد.على هذا الأساس تأتي مقالة أبي يعرب المرزوقي لتحاكم الشيعة اليوم بالنتائج نفسها التي حاكمها بها ابن تيمية، وهو هنا يفضل التركيز على ابن خلدون، بدل ابن تيمية لغرض ليس بريئاً من الناحية الأيديولوجية، حيث لم يميز بينهما قطّ في مشروعه الذي أعود وأكرر أنه كان غاية في الرياضة من جهة طريق الوصول. بل أكاد أجزم أنه أقوى رياضة فلسفية في العالم العربي. لكنها من حيث النتائج هي مثال كارثي لكل ضروب المفارقة. وحينما أقول الرياضة لا أعني

صحة ترتيب النتائج على مقدمات صحيحة، بل أعني مطلب الخبرة الفلسفية والقدرة الهائلة على التنسيق وهذا يحسب له. بل لو كان لي الحق في أن أنعت أحداً في العالم العربي بالفيلسوف، لقلت إنه أبو يعرب المرزوقي. فكون الإنسان فيلسوفاً لا يعني أنه لا يخطئ. بل إن فيلسوفنا هو نموذج لكبار الخطائين في مجال الفكر الفلسفي.

الفتنة ومفاتيح الحل

يتحدث أبو يعرب عن علتين كانتا سبباً تاماً لجعله يساهم في كتابة هذه المقالة والخوض في مسألة الخلاف السني ـ الشيعي. الأولى تتعلق باستفحال الخلاف بين مذهبي الأمة الرئيسيين، فوجب حينئذٍ تقديم حلول جذرية لهذا الداء العضال من أجل منع الأمة من أن يذهب ريحها. والبحث في أدواء الفرقة وإيجاد علاج حاسم لهذا الداء.علة معتبرة لكنها لم تمنع من أن الخلاف كان دائماً، بل كان من المتوقع أن يخرج إلى السطح متى تقدمت الأمة باتجاه رد العدوان.كان على مفكرنا أن لا يتعاطى كغيره مع هذا الإشكال كمحلل سياسي تفرض الأحداث عليه النظر في الوقائع ثم سرعان ما ينسى. كان يفترض على كل عالم ومفكر أن يقدم رأيه في الخلاف في زمن السلم لا في زمن الحرب. ويدلي بدلوه وهو يستشرف ويتوقع ما هو محتمل الجريان في مستقبل منظور وبعيد.لكن لنقبل هذه العلة وإن كانت غير مناسبة لباحث ومفكر تعين عليه التقاط الإشارة منذ زمنٍ بعيد. لكن المهم هنا أن أبا يعرب المرزوقي يذكر بأن هذا ما كان ينوي قوله في مؤتمر الدوحة الذي دعي له ضمن من دعي له، لكنه لم يحضر لسببٍ بسيط، وهو أن المؤتمرين كما توقعهم انحصر لقاؤهم كما قال: «في أعراض المرض السياسية من المسألة وإهمال محددات فهمهما العلمي».

لقد صدق أبو يعرب المرزوقي، لأن المؤتمر كما قال بالفعل

اشتغل على الأعراض السياسية. بل أكثر من ذلك كان محاولة احتجاجية مبنية على معطيات لا ترقى حتى إلى التحقيق الإعلامي. بل لقد ولد اللقاء ميتاً منذ الوهلة الأولى، لما كانت الافتتاحية عبارة عن اتهام لطرف دون آخر وتحميله كل مسؤولية ما جرى. وقد ختم بتأكيد ما جاء في الافتتاحية نفسها. فكان اللقاء هو محاولة احتجاجية من طرف واحد، مما جعله ملتقى فاشل مائة بالمائة. غير أن محتوى مقال أبي يعرب المرزوقي الذي بين أيدينا لا يختلف عن تلك القراءة النمطية التي تنطلق من حالة الاتهام من طرفٍ واحد وتستحضر مسلمات ومواقف جاهزة من التراث. هي نفسها محاولة احتجاجية من طرفٍ واحد، أو لنقل إنها محاولة تبريرية بامتياز.

أما العلة الثانية التي هي بيت القصيد، فتتعلق بكلمات للسيد حسن نصر الله، التي نسب فيها كلاماً لبعض الأعلام. غير أن أبا يعرب يصر أن المعنيين بها هم من سماهما في مقالته فقال: «وأما العلة الثانية فهي ما سمعته من رد تفوه به السيد حسن نصر الله في إحدي خطبه الأخيرة متكلماً عن عالمين سنيين جليلين هما القاضي أبو بكر بن العربي وعبد الرحمن بن خلدون لم يذكرهما بالاسم لكنه لمح إليهما تلميح اتهام معتبراً رأييهما في مقتل الحسين تبريراً لجريمة زياد بن معاوية. اتهام عالمين جليلين لا مبرر له».

كذلك يوحي أبو يعرب بأنه مدفوع بالغيرة على هؤلاء، وكان أحرى أن يقحم ابن تيمية في الموضوع، لكنه أبى إلا أن يستبدله هذه المرة بخلاف كل كتاباته بالقاضي أبو بكر بن العربي. لا يهم ذلك لأننا لسنا بصدد التحليل النفسي للخطاب، بل المهم أن الباحث هنا يريد أن يؤكد على خطأ وقع فيه السيد حسن نصر الله، والدفاع عن رأي العلمين المذكورين وذلك بتخطيء الحسين بن علي نفسه. بل وجعله انتصار المقارمة اللبنانية دليلاً على خطأ موقف الحسين بن علي، وصحة رأي

العالمين المذكورين. فالمقاومة هي تنكر للقيم الحسينية ومعانقة سرية للقيم الخلدونية. بل أزيد وأقول ما لم يجرؤ أبو يعرب على إقحامه في مقالته، إنها معانقة سرية للقيم التيمية (نسبة لابن تيمية). والإنسان يقدر تقديراً كبيراً كيف يحاول هؤلاء أن يتحدثوا اليوم عن القضية بهذا الإصرار والمكابرة، حتى أمكننا القول: إن للمكابرة في زمن مفارقاتنا العربية مذاهب. فثمة من يهرب إلى الأمام وثمة من يهرب إلى الوراء. وأبو يعرب المرزوقي يحاول هنا أن يفكك بين المقاومة اللبنانية ومنظومة قيمها الحسينية. محاولة جديدة في سياق الظلم المستمر للحسين، ومحو كل آثاره. كل ذلك كما لو أنهم هم من حارب إسرائيل وليس أولئك الفتية الذين ملؤوا حتى المشاش بقيم كربلاء وقاتلوا وصمدوا بهذه الروح وليس بقيم الرعديد الذي يخشى النزال لمجرد أن العدة لم تكتمل وإن كانت الكرامة معرضة لخطر الاندثار. إن تاريخ وجغرافيا الخطاب عن الخلاف اليوم تؤكد أننا نبتعد عن الموضوعية في إدارة أزمتنا الحضارية. فبقدر ما يتهم شيعة العراق في صميم قيمهم ومعتقداتهم على مواقفهم السياسية، يحاول البعض ومنهم أبو يعرب أن يحيّد قيم ومعتقدات شيعة لبنان من عملية الانتصار على الاحتلال.في العراق جاء الشيعة بالمحتل لأنهم أبناء ابن العلقمي وأحفاد نصير الدين الطوسي ولأنهم مجوس وكسروية و.. و.. ولكن الشيعة في العراق طردوا المحتل ليس لأنهم شيعة بل لأنهم حاربوا بحياد عن قيمهم وعقائدهم. بل مع أبي يعرب، لأنهم خرجوا عن كونهم شيعة، وانتصروا لأنهم أصبحوا خلدونيين وتيميين.. مفارقة بل مهزلة!؟

كيف ناقش أبو يعرب كلمات تحدث بها السيد حسن نصر الله بعفوية، ولم تسمح الرقابة اليعربية أن تتجاهلها، رغم أن السيد حسن نصر الله لم يكن بصدد تقديم دروس في التاريخ. بل لا ينتظر أبو يعرب أن ترد على رسالته المفتوحة شخصية سياسية لها ما يشغلها عن مثل هذه

الردود لا سيما وأنه كتب رسالته من باب إياك أعني واسمعي يا جارة. فكان لا بدّ من الرد على من خبر رأي أبي يعرب وأدرك خلفيات مقوله. وأنا أزعم أنني ممن أدرك ذاك المقول وخبر تقنياته في تزييف الحقيقة. وتلك هي علتي الوحيدة، لأن أرد على رسالة بعثت إلى شخص لن يتوقع منه أبو يعرب ردًّا، لاعتبارات يدركها الجميع.

يقول أبو يعرب: «يعلم الجميع أنه لا يوجد بين السنّة من يمكن أن يتهم بالحطّ من شأن آل البيت خلال كل التاريخ الإسلامي. فهم يعتبرون عليًّا خليفة راشداً. وهم يضعون ابنيه في المنزلة التي يضعهما فيها الرسول الأكرم. وهم ينزلون الزهراء المنزلة التي كانت لها في قلب أبيها. وهم لا يسلمون بشرعية معاوية بل هو عندهم العلامة على نهاية الخلافة الراشدة. وهم يجمعون على تفسيق يزيد».

لا أريد الوقوف عند موقف أهل السنّة في المقام، لأنني أدرك أن للتسنن المعتدل نصيبه من المحبة لأهل البيت، به يتحدد نصيبهم من التشيع كما لا يخفى. وقد مثلنا مراراً لذلك بمثال المحدث النَّسائي الذي أعتبره شهيد التشيع السنّي، لما لقي حتفه بسبب ما صدر منه في الشام انتصاراً لفضائل عليّ بن أبي طالب، فكتب كتاب خصائص عليّ بن أبي طالب فناله من الضرب والركل في الشام حدّ الموت ما لا يخفى. بل إنك تستطيع أن تحتج على أهل السنّة بالتشيع السنّي الذي تجده في مدوناتهم طوع البنان وفي خزائن الكتب مبثوثاً. لذا لا إشكال في البين. لكن مقصودنا ها هنا، الرد على التعميم والإطلاق الذي ورد في رسالة أبي يعرب المرزوقي، لا سيما وأنه في مشروعه العمدة يرتقي بابن تيمية إلى قمة هرم القول السني ويمنحه الإمامة في نهضته الإسمية المختارة. إذا كان ابن تيمية رائد السنّة المحمدية بحسب ما يظهر في مشروعه العمدة، كان لا بدّ أن نقرأ إطلاقاته في النص التيمي.

يدرك أبو يعرب أن الأمر يتعلق بوجود آراء ومواقف مسجلة

تاريخيًا، وليس بمعنى أن التهمة المذكورة يتبناها مذهب أهل السنَّة. وربما لا يدرك أبو يعرب المرزوقي بأن الشيعة لا يجهلون مذاهب السنَّة حتى يكتفي بهذه الأحكام العامة فينفي وجود ما يخدش في شأنية أهل البيت وينزلهم منزلة أقل مما منح لغيرهم. لعل هذا هو السبب الذي جعله لا يدخل ابن تيمية في الموضوع حتى لا يستشكل عليه من خلال ما ورد في كتاب منهاج السنَّة من محاولات نزع كل قيمة من قيم أهل البيت حتى لو كانت تتعلق بشجاعة علي بن أبي طالب التي أصبحت مقولة عربية تضارع مقولة الكرم الحاتمي، وما شابه كما أكد عليها الشاطبي السنّي نفسه في كتاب الموافقات. اللهم إلا أن يقال إن ابن تيمية لا يمثل السنّة، وقد ارتقى به أبو يعرب إلى رائد الاسمية العربية ورائد النهضة التي إما أن تكون تيمية أو لا تكون. صحيح أن في أهل السنة من يحترم أهل البيت، لكن ممن ينتسب لهم ظلماً وخلسة من يقتل أهل السنَّة أنفسهم ويتهمهم بالتشيع ويحرق بيوتهم كما فعل بعض التكفيريين في بغداد يوماً ببيت ابن جرير الطبري، وكما فعل بعض أهل الشام في المحدث النسائي وأمثال ذلك.

هناك بين أهل السنَّة من يترضى على قاتلي الحسين، ومنهم من يترضى على من حارب قبله الإمام علي بن أبي طالب. والمؤسف أن هؤلاء الذين يعلنون انتسابهم للسنّة ويترضون على يزيد قاتل الحسين ويبررون قتل الحسين، يحاولون إقناع الطرف الآخر بأن الحب لا يناقض الترضي على الأعداء وتبرير عدوانهم على أهل البيت. هذا رد على حكم عام، يرى أنه لا يوجد بين أهل السنَّة وفي كل تاريخهم من يفعل ذلك. وهذا حكم يفتقر إلى المعلومات التاريخية ولا يلم بكل المعطيات. ويتعين الوقوف عند قوله «يعلم الجميع أنه لا يوجد بين السنة من يمكن أن يتهم بالحطّ من شأن آل البيت خلال كل التاريخ الإسلامي. . » والرد على هذه الادعاءات واحدة واحدة بالمختصر المفيد:

سوف أتجنب الحديث عن أي نص آخر غير نص ابن تيمية الذي اعتبره الباحث في محلٍّ آخر، أهم نص، يجب على المسلمين الرجوع إليه في تحقيق نهضتهم على أساس الشهود والاستخلاف. سنختبر شأنية أهل البيت في هذا النص الذي يرقى به الباحث إلى مقام لا يضاهيه أي نص آخر في تاريخ الإسلام بل في تاريخ الإنسانية، غير القرآن الكريم، بل هو التعبير عن منطقه العقائدي والوفي بمضامينه الإسمية. ونحن مع ابن تيمية لا نريد فقط أن نقف عند علي بن أبي طالب كخليفة راشد ولو في المنزلة الرابعة التي أنزلوه إياها لأسباب سياسية محض، بل إننا نعجز أن نحتفظ في هذا النص لعلي بن أبي طالب بالفضل الذي منحه واعتبر من قبل الخلفاء والصحابة بل حتى أعدائه. لقد حاول ابن تيمية أن ينتزع كل فضائل علي بن أبي طالب من خلال ردوده على ابن مطهر الحلي، الذي أسماه ابن المنجس لا لشيء إلا لأنه عظم من شأنية أهل البيت وعلي بن أبي طالب. لقد حاول أن يشكك في كل فضيلة لعلي في الجهاد أو الخلافة أو العلم أو الإيمان، لينزله منزلة عوام الصحابة بل ليوقفه في منزلة من عرفوا يومها بالطلقاء ممن تأخر دخولهم الإسلام بعد الفتح خوفاً وطمعاً.

إن ابن تيمية رائد الاسمية والسنّة بنظر أبي يعرب المرزوقي هو نفسه يشكك بل يرفض من دون دليل حتى ما كان مسلماً به عند سائر المسلمين من فضيلة سبق إيمان علي بن أبي طالب وعدالته وما شابه. فهو يقول من كتاب المنهاج: «إن الرافضة تعجز عن إثبات إيمانه وعدالته. فإن احتجوا بما تواتر من إسلامه وهجرته وجهاده، فقد تواتر إسلام معاوية ويزيد وخلفاء بني أمية وبني العباس وصلاتهم وصيامهم وجهادهم الكفار» (منهاج السنَّة ج١ ص ٦٢ط جديدة من تحقيق د. محمد رشاد سالم).

بهذا النص التيمي، لا يكون لعلي سابقة تميزه عن الطلقاء ومن

أسلم يوم الفتح كرهاً ممن قاتل الرسول ﷺ طيلة هذه السنوات. فكيف يدعي أبو يعرب أنهم اعتبروه جميعاً خليفة راشد. وكان يفترض من محقق كبير أن يدرك بأن أصل التربيع لم يحدث إلا زمان أحمد بن حنبل الذي أضاف عليًّا كخليفة راشد، ولم يكن ذلك مما اعتاده القوم، طبعاً خوفاً من رهبة السلطات التي لم يرقها سماع ذكر علي وأهل البيت. وكيف يجعلونه كذلك راشداً، وقد لعن لقرنٍ من الزمان في منابر دولة بني أمية وفي تعقيبات الصلاة الجماعية.فابن تيمية نفسه يعترف ويقول متحرشاً بفضائل علي بن أبي طلب: «وروي عن الشافعي وغيره أنهم قالوا: الخلفاء ثلاثة أبو بكر وعمر وعثمان» (المنهاج ج ٤ ص ٤٠٤).

والحق أن الشافعي رحمه الله بريء مما نسب إليه من قبل ابن تيمية ولا يوجد لديه ما يثبت ذلك، وقد عرف بولائه وحبه لأهل بيته وهو صاحب قصيدة «يا أهل بيت رسول الله حبكم». لكن ابن تيمية يذكر في مقام آخر ما ينزل علي بن أبي طالب منزلة أقل من معاوية، بل يرقى بمعاوية الذي يزعم أبو يعرب أن جميع أهل السنَّة لا يعترفون له بالشرعية، بأنه رابع الخلفاء الراشدين. وذلك لما يقول: «والخلفاء الثلاثة فتحوا الأمصار وأظهروا الدين في مشارق الأرض ومغاربها ولم يكن معهم رافضي. بل بنو أمية بعدهم مع انحراف كثير منهم عن علي وسب بعضهم له، غلبوا على مدائن الإسلام كلها (. . .) ويقال: إن فيهم من كان يسكت عن علي فلا يربع به في الخلافة، لأن الأمة لم تجمع عليه» (المنهاج ج ٦ ص ٤١٩). ويقول: «وكان بالأندلس كثير من بني أمية يقولون: لم يكن خليفة وإنما الخليفة من اجتمع الناس عليه ولم يجتمعوا على علي، وكان من هؤلاء من يربع بمعاوية في خطبة الجمعة. . .» (المصدر ج ٤ ص ٤٠١).

بل إن ابن تيمية يحاول أن يجعل قتال علي لأعدائه مجرد محاولة للتسلط على النفوس والأموال وليس من أجل الدين: «وعلي قاتل ليطاع

ويتصرف في النفوس والأموال فكيف يجعل هذا قتالاً على الدين» (المنهاج ج ٨ ص ٣٢٩).

بل إنه دافع عن حجة النواصب واعتبرها راجحة في مواجهة حجة من سماهم بالروافض، حيث لما احتج هؤلاء على النواصب وسبهم عليًّا، كان دليل النواصب في نظر ابن تيمية أقوى، لأن عليًّا استحل دماء المسلمين وقاتلهم بغير أمر الله ورسوله على رئاسته، وقد قال النبي ﷺ: «**سباب المؤمن فسوق وقتله كفر**». فهو يرى أن ما احتجوا به من أحاديث صحيحة. فتكون النتيجة أن دليل النواصب على كفر علي أقوى في نظر ابن تيمية من دليل الروافض على تفسيق من سبّ عليًّا.

بل إنه ينزع عنه حتى الصفة التي بها استحق عند السنَّة أنفسهم وصف «كرم الله وجهه»، وهي عدم سجوده قطّ لصنم. لكن ابن تيمية يقول: «قبل أن يبعث الله محمداً لم يكن أحد مؤمناً من قريش، لا رجل ولا صبي ولا امرأة ولا الثلاثة ولا علي. وإذا قيل عن الرجال إنهم كانوا يعبدون الأصنام. فالصبيان كذلك، علي وغيره. وإن قيل كفر الصبي ليس مثل كفر البالغ، قيل ولا إيمان الصبي مثل إيمان البالغ. فأولئك يثبت لهم حكم الإيمان والكفر وهم بالغون، وعلي يثبت له حكم الكفر والإيمان وهو دون البلوغ. (. . .) فكان إسلام الثلاثة مخرجاً لهم من الكفر باتفاق المسلمين. وأما إسلام عليّ فهل يكون مخرجاً له من الكفر؟ على قولين مشهورين. ومذهب الشافعي أن إسلام الصبي غير مخرج له من الكفر» (المنهاج ج ٨ ص ٢٨٥).

وأما عن فضيلة علمه، فقد رد كل الأخبار التي تثبت أعلميته وأقضويته، بالتشكيك في سندها مثل ما فعل في حديث مدينة العلم، وقد اتضح أنها صحيحة الإسناد في كتب القوم.بل لقد شكك حتى في ما أفاده الخلفاء من علم علي واعترفوا له بالفضل. حتى أنه قال عنه في

المنهاج: «وعلي قد خفي عليه من سنة رسول الله أضعاف ذلك، ومنها ما مات ولم يعرفه» (المنهاج ج ٦ ص ٤٣).

هذا وأدهى منه في منهاج السنّة لرائد الاسمية والنهضة العربية في المشروع الاستخلافي اليعربي، ومع ذلك يقول الباحث بأنهم لم يعترفوا بشرعية حكم معاوية واعتبروا عليًّا خليفة راشد. نعم السنّة تقول ذلك، لكن ابن تيمية صاحب أرقى طرح عقائدي في نظر أبي يعرب، ينزل من تلك الشأنية ويرفع من شأنية معاوية باستهتار مشهود ومكابرة معهودة عليه.

كنت أتمنى أن لا يعمم أبو يعرب المرزوقي أحكامه. لأنني على يقين من أنه يتبنى الموقف التيمي برمته ولا يرى فيما ذكره خارج مقتضى الإسمية المختارة كمخرج عقائدي للأمة في نشدان رقيها وطلب نهضتها. لذا كان من باب المغالطة أن يتحدث بالجملة عن أهل السنَّة، ويتحدث عن نصوص من دون تقييد بالمذهب ليتحمل كل كاتب مسؤوليته في ما يرى من رأي وما يقف من مواقف. لأن كل أحكامه في الرسالة التي بين أيدينا تعبير عن آراء ابن تيمية وليس مذهب السنّة بمسلم بذلك في الجملة. وحتماً إن منزلة السبطين عند القوم لم ترق قطّ منزلتها عند رسول الله ﷺ. ولا نحتاج إلى كثير شواهد في المقام. بل يكفي أن بعضاً لا يزال يترضى على قاتليهما، ويمنح وسام أعلام السنّة لمن وضع السيف في رقابهما. وليس أمامنا إلا أن نختبر رأي ابن تيمية العلم الرمز الذي جعله الباحث طليعة النهضة العربية وصاحب الرأي الفصل في ما يجب أن يكون عليه الاعتقاد المسلم. فإذا كان الرسول قد اعتبرهما سيدا شباب أهل الجنة، واعتبرهما إمامين قاما أو قعدا، فإنه يقول عن الحسين: «لم يكن في خروجه مصلحة لا في دين ولا في دنيا، ولكن في خروجه وقتله من الفساد ما لم يكن يحصل لو قعد في بلده» (المصدر ج ٤ ص ٥٣٠).

وأغرب من ذلك ادعاء الباحث أن القوم «ينزلون الزهراء المنزلة

التي كانت لها في قلب أبيها». وكلنا يدرك أن منزلة فاطمة عند أبيها تفوق المنزلة التي وضعها فيها طليعة الإسمية السنية في نظر الباحث، أعني ابن تيمية. فقد جعل منزلة فاطمة تساوي منزلة ابنتيه اللتين زوجهما لعثمان، دون أن يحتفظ لفاطمة بميزة سلم بها المسلمون ولم يشكك فيها إلا ابن تيمية مكابرة حين قال: «وأما تزويجه فاطمة ففضيلة لعلي، كما أن تزويجه بابنتيه فضيلة لعثمان» (المصدر ج ٤ ص ٣٦).

وفي المنهاج أكثر من هذا النيل من ميزة ومقام فاطمة لا نريد الخوض فيه. أما كونهم جميعاً يسلمون بعدم شرعية معاوية، فهذا مردود من طلائع الاسمية الرائدة في مشروع أبي يعرب المرزوقي، عند ابن تيمية الذي ارتقى به إلى ما يعزز الرأي براشديته ودينه وتقواه وقد قرنه في ميزاته بما كان من خصائص علي بن أبي طالب، وكذا فعل في حق يزيد. والأمر نفسه بالنسبة لابن خلدون الذي سلك المسلك ذاته، وإن اعتبر الأمر واقعاً في سنة الملك والعصبية فهو يرى لذلك المشروعية لمعاوية وغيره، علماً أن المشروعية عند ابن خلدون تتقوّم بالعصبية والغلب وقد أثبتها للتيار الأموي. وأما ادعاء أن القوم أجمعوا على تفسيق يزيد بن معاوية، فهذا من أغرب الاجماعات، إلا أن يكون لأبي يعرب مفهوماً عن الإجماع غير ما نعلم من أمره عند القوم. ونحن ندرك أن ابن تيمية وابن خلدون حاولا جهدهما تبرير كل جرائم بني أمية وتخطيء مواقف أهل البيت. وإن كان ابن خلدون متردداً أكثر حتى أنه أثبت الحق للجميع بعد أن اعترف للحسين بالفضل لما قال في المقدمة: «والحسين فيها شهيد مثاب وهو على حق واجتهاد، والصحابة الذين كانوا مع يزيد على حق أيضاً واجتهاد». ثم قال: «والله يحشرنا في زمرتهم ويرحمنا بالاقتداء بهم والذي دعا معاوية لإيثار ابنه يزيد بالعهد دون سواه، إنما هو مراعاة المصلحة في اجتماع الناس واتفاق أهوائهم باتفاق أهل الحلّ والعقد عليه حينئذٍ». (انظر المقدمة)

يقول أبو يعرب المرزوقي في نص الرسالة: «والأهم من ذلك كله أخيراً أنهم لا يوظفون آل البيت في معارك سياسية داخلية لتأجيج الحرب بين قبائل الأمة (بين آل البيت وآل أبي سفيان في قريش) أو بين شعوبها (الشعوبية بين العرب والفرس في الأمة) بل وضعوا نظريات ثورية لتحرير الأمة من أدوائها لكي تتمكن من الاستئناف السوي بعد الفتنة: نظرية عدم التأثيم التي حللها ابن خلدون في المقدمة. لا أحد من السنّة خاصتها وعامتها أقدم على هذه التجارة لأنها خاسرة في الدنيا والآخرة حتى عند الظن بأنها رابحة في إحداهما على حساب أخراهما. ذلك أنهم ينزهونهم عن مثل هذه الدنايا».

إذن من المتهم بهذه التجارة؟!

فالمتأمل لهذا الخطاب يدرك أن الباحث لم يتحرر من معطيات تاريخ الغلب بكل نتائجه المخطئة للطرف الآخر الطاردة له من دائرة الإسلام. فهو يختزل مسألة الولاية في مفهوم التجارة بمدلولها السياسي. وهي تهمة مسبقة تحتاج إلى تحقيق. بل هي قراءة تعسفية تشطب من الإسلام شأنية أهل البيت التي ليست مجرد تعبير عن محبة لم تظهر كما يجب في النظر والعمل عند القوم، بل هي موقف ومنهج وطريقة لما لم يستوعبوا فلسفتها نظروا إليها كما لو كانت مجرد تكريس لمفهوم الوسائط الروحية التي يصفها أبو يعرب في غير ما مكان بالمافيا الروحية ويقصد بذلك الأئمة والأولياء وما شابه. وبينما حاولوا التغطية على موقف الحسين في كربلاء والقيم التي نهض بها، فسارعوا إلى وضع مفهوم جديد للثورة على الظلم، كما لو أن الحسين لم يكن على درجة من الوعي بما فعل ولا كان يحمل من التعاليم والمفاهيم ما يبرر نهضته. فلئن كان لا بدّ أن نتحدث عن مافيات علمية وروحية وقراصنة سرقوا نهضة الحسين واستبدلوها بتبرير العصبية والشوكة، فلنتحدث عمن يبارز

بهم أبو يعرب خيار أهل البيت نفسه. فما وجدناه في تاريخ ابن خلدون، ليس سوى تبرير يناهض أصل الثورة. فكيف يزعم أبو يعرب من خلال نموذج ابن خلدون أن السنّة وضعوا مشروعاً ثورياً. وكل قارئ متخصص في ابن خلدون لا يملك أن يجعل من ابن خلدون صاحب نظرية في الثورة، لأنه نظر لمفهوم الشوكة والغلب. بل إن ابن خلدون كان قد غلط الحسين في خروجه بسبب ما كان من قناعته بنظرية الاستسلام للشوكة والعصبية.

يقول أيضاً: «وفي هذا السياق جاء كلام القاضي أبي بكر بن العربي وكلام العلامة ابن خلدون في مقتل الحسين ابن الإمام عليّ كرم الله وجهه. فالأول لم يقل إن الحسين قد قتل بسيف جدِّه بل قال قتل بشرع جدِّه. والفرق شاسع. والأمانة واجبة. على العلماء خاصة. وهو لم يتهمه بالخروج بل بتكليف نفسه ما ليس بوسعها. فلا يمكن لقاضٍ من حجم ابن العربي أن يزل مثل هذه الذلة. لا يمكن أن يتهم حفيد رسول الله بالخروج بمعناه عند الخوارج خاصة ويزيد يفسقه السنة بإجماع علمائهم».

طبعاً إن أبا يعرب مصر على أن السيد حسن يعني بكلامه القاضي أبو بكر بن العربي، لكن فاته أن الحديث عن القاضي في المقام لا ينصرف باتجاه الاسم المذكور، بل المعني ما عرف من أمر القاضي شريح الذي اشتهر بالقول إن الحسين قتل بسيف جده. لكن فليكن الأمر ونمضي مع أبي يعرب في هذا الطريق، ونقول: إن ادعاء عدم الأمانة لا موضوع له لسببٍ بسيط، هو أننا لم نسلم بأن مراد السيد حسن هو القاضي أبو بكر بن العربي بل المقصود القاضي شريح. بل لا موضوع للأمانة ها هنا، لأننا حتى لو سلمنا جدلاً بأن المعني هو القاضي أبو بكر، فإن الأمر سيان بين أن يقتل بشرع جدِّه أو سيف جدِّه. لأن سيف جدِّه لم يكن إلا شرع جدِّه. بل الأمر سيكون غاية في الفظاعة، لأننا لا

نفترض أن شرع جده مناقض لسيف جده. فكونه قتل بشرع جده، بمعنى أنه قتل بشرع الله وهو أبين في المقام. فلا ندري أي أمانة يتحدث عنها أبو يعرب وقد تبين أن الموضوع لا يتعلق بابن العربي، وحتى لو سلمنا بذلك فالأمر سيان، أن يقتل بسيف جده أو سيف جده، أمر واحد، فالنزاع ليس في كبير. لكن ما هو أدهى من ذلك قوله: «إنما هو قد اعتبره خرج عن سنة الرسول في الدعوة ومقاومة الشر: فلو اتبع الحسين سنة الرسول في مقاومة الشر لطبق أولى القواعد أعني تحقيق شروط النجاح فيه حتى لا يعطي للشر فرصة الانتصار على الخير».

ليس في هذا الحديث ما يكرس موقف ابن خلدون وتغليطه خروج الحسين، بل هو شطط بالغ يفوق ذلك بكثير حيث في هذا النص تكريس لتهمة خروج الحسين من أصل سنة الرسول في مقاومة الشر. هذا تبرير ومحاولة قراءة موقف ابن العربي في نص ابن خلدون، حيث ميز هذا الأخير بين صواب منطلقات الحسين وعدالة قضيته، وبين خطئه من جهة عدم الأخذ بأسباب الشوكة. لكن ابن العربي يخطئه في أصل العدالة والسنّة بل هو أقرب إلى موقف ابن تيمية الذي جعل خروجه مفسدة وموقفه لا يخلو من هوى كما في المنهاج. هذا الخلط بين النصوص ناتج عن أن أبا يعرب يسعى لتنسيق موقف سني مشترك، ليوحي أن ثمة نظرية متكاملة في موضوع النهضة والثورة والتحرر تقودها الأطروحة الاسمية التي يتربع فوقها كل من ابن تيمية وابن خلدون، على الرغم من الخلاف الشديد والبون الكبير بينهما. بل إننا نجد أن ابن خلدون الذي يحاول أبو يعرب أن يصوّر موقفه، كما لو كان سياناً مع القاضي أبي بكر بن العربي، يخطئ موقف القاضي نفسه ويرى أن موقفه مخالف لمقتضى المسلم به عند القوم. يقول ابن خلدون عن القاضي: «وقد غلط القاضي أبو بكر بن العربي المالكي في هذا فقال في كتابه الذي سماه بالعواصم والقواصم ما معناه إن الحسين قتل بشرع جده، وهو غلط

حملته عليه الغفلة عن اشتراط الإمام العادل، ومن أعدل من الحسين في زمانه في إمامته وعدالته في قتال أهل الآراء».

ابن خلدون لم يعذر أبو بكر بن العربي وأبو يعرب يحاول ذلك عبثاً!؟

يتساءل أبو يعرب المرزوقي وهو بصدد تقديم دروس وافرة للمقاومة، معجباً بأدائها ناقماً على شيعيتها: «متى سيخرج حزب الله من الازدواجية».؟! ويشرح ذلك قائلاً: «ولهذه العلة يصح القول إن حزب الله في لبنان لا يفهم فعله إلا بالاستراتيجية المحمدية ولا يفهم خطابه إلا بالاستراتيجية الحسينية: فيكون في شبه فصام يحول دونه والدور الإيجابي المنتظر منه في توحيد الأمة بتحرير التشيع من تهمة الصفوية ويعود به إلى حب آل البيت الخالص وعلى رأسهما محمد، ومن أحب أعني كل صحابته وأمهات المؤمنين. فهو لا يقتصر على الثورة على الظلم والعدوان الذي يبني عليه دعايته، وهي جزء من الترسيب الذي ينبغي التحرر منه من أجل الغايات الاستراتيجية المشروطة بوحدة الأمة، بل هو يحقق شروط النجاح فيها بأسباب العلاج التي تقتضيها سنن التاريخ والكون، كما يصفها القرآن الكريم، وسنّة جدّ الحسين الذي اعتبره ابن خلدون، ومن قبله القاضي أبو بكر بن العربي قد قتل بسبب عدم اتباعها في معركة الخير والشر: يتحالف حتى مع أمراء الحرب الأهلية في الحكومة للحفاظ على القدر الأدنى من تماسك الجبهة الداخلية، ويحارب بالجمع بين منطق الكر والفر ومنطق التخندق رداً على عدم توازن القوى بمطاولة الضعيف ماديًّا والقوي روحيًّا على العدو الذي اختار استراتيجية المناجزة لضعفه الروحي وقوته المادية».

النهج المحمدي غير النهج الحسيني.بل هما نقيضان. كذلك يحاول أبو يعرب أن يقنع القارئ بأن الحسين خارج عن سنّة جده. بالتالي فحزب الله حارب بنهج جد الحسين لا بنهج الحسين. ثم يريد بعد ذلك الحديث عن الوحدة وإصلاح الأمة على خلفية تغليط الحسين والتمييز

بين نهجه ونهج جده. مفارقة عجيبة في خطاب الوحدة والتقريب الجديد. دفاع مستميت عن ابن العربي وابن خلدون وابن تيمية وتغليط سافر للحسين، كما لو كان هذا الأخير أقل تشبثاً بإصلاح أمة جده، بينما تلك كانت غاية ما قصد إليه.

إذن وحدة المسلمين والحلّ الجذري لذلك في الوصفة اليعربية: أن يا شيعة تخلوا عن شيعيتكم وتبنوا وجهة النظر التيمية وغلطوا الحسين وتنكروا لإمامتهم. أنتم لستم على شيء حتى تصبحوا على رأي ابن تيمية. هناك خلط بين الموضوعات والمراحل التاريخية وشروطها. لم يستطع التاريخ العربي أن يتأمل الشروط التي خرج فيها الإمام الحسين، دون إسقاطات الشروط التاريخية التي حكمت تجربة الإمام الحسن ولا تجربة أبيهما وجدهما.

قراءة مسطحة للتاريخ تسعى لتجعل من شروط النهضة كليشهات جاهزة وهي رؤية ليست تاريخية. بل تؤكد أن الإمام الحسين اجترح طريقاً مختلفاً تأكيداً على أن الأمر يتعلق بموقف تاريخي، والأمر في نهاية المطاف يتعلق بموقف ثوري يراد له أن يواجه سياسة الإذلال الأموية لا طلب السلطة، كما انزلق فيها كل من قرأ ثورة الحسين بن علي على أساس طلب الملك. حزب الله بتقدير النظم العربية التي تتقاسم الوعي التاريخي نفسه عند أبي يعرب من أن مقاومة إسرائيل أصبحت مستحيلة اليوم للفارق بين الترسانتين، خاضها ثورة حسينية بامتياز.

ألم يقل البعض وصدق الجميع بأنها محض مغامرة؟! بل أكاد أجزم أن أبا يعرب نفسه لم يكن ليصدق ما فعله حزب الله في الجنوب. ولذا فإن مستوى التنظيم والإعداد مهما كان أمره لم يرق إلى مستوى الكفاية، لأن المتغير لم يكن في صواريخ حزب الله، بقدر ما كان في فائض القيمة الروحي الموصول بالثقافة الحسينية التي تنطلق من قيمة «أن الموت أولى من ركوب العار». و«هيهات منا الذلة». يحاول هؤلاء أن

يحولوا دون نجاح قيم الثورة الحسينية، ويستكثرون أن تتحول إلى نموذج ناجع في مثال المقاومة اللبنانية. لذا ربطوا بين النصر والعناصر المادية من نبيل الإعداد والتنظيم، وهو حق، لكن ما ليس حقًّا أن نشطب على القيم الروحية والثقافية للمقاوم، لا تكمن قيمة ثورة الحسين في حسابات الغلب المادي، لأنها ثورة الدم على السيف. ولأن الذي استدرجها للموقف هو الطغيان، المسألة تتعلق بقيمة الكرامة والعزة وإحياء روح المقاومة ضد الظلم، ولقد أثبت التاريخ أن ثورة الحسين علمت الأجيال اللاحقة عدم الاستسلام للطغيان وحرضتهم على طلب الكرامة ونشدان التحرر، المسألة تتعلق بمنطق العزة في مواجهة منطق الإذلال.. ومنطق التحرر في مواجهة منطق الظلم.. الحسين قدم دمه في فلسفة للشهادة تفوق حسابات العدة، لأنها ثورة قيم حررت الإنسان من خوفه وضعفه، وهذا ما حدث في جنوب لبنان؛ إن القوم لم يحاربوا بعقيدة الجيش الذي يملك أسلحة يطمئن إلى نجاعتها، بل إن القوم حاربوا بعقيدة ثورية بقدر ما تستهين بالفارق في الذخائر ونوع الأسلحة، تعاوض الفارق بفائض القيمة الروحية التي وجدت في الثقافة الحسينية ما يكفيها لتحقيق قدر من الردع، بالتأكيد لا علاقة له بحسابات سنن الغلب الخلدونية. فالمناط يكمن في القيم لا في صورة الإعداد وشروط الثورة الحسينية الظاهرة. علينا أن نتحرر من حالة التنميط حتى ننجح في قراءة الثورة الحسينية. فهي ثورة محمدية بقيمها العالية وليس شيئاً آخر كما يحاول أبو يعرب المرزوقي.

يقول أبو يعرب: «ما قاله العالمان السنيان حزب الله لم يقله لكنه فعله ما يفيد أكثر منه. فهو قد فهم علة فشل الحسين بمجرد أن برهن على دهائه الاستراتيجي في منازلة أخبث خلق الله تماماً، كما تعلمنا من السنة المحمدية التي ردت كيد أجدادهم: فالعمل الحقيقي من أجل الخير ليس مجرد الثورة على الشر بل الثورة التي توفر شروط النجاح

عليه، لئلا تكون فرصة تجعله ينتصر فتتكون العقد ويزداد العداء بسبب الحقد الدفين بين البشر. والمنتصر إذا كان صاحب دعوة إلى الحق لا يحقد ولا يكره بل هو يجمع بين جمال العلم ومهابة الحلم: وتلك هي أخلاق رسول الله كما تبينت يوم الفتح الأكبر فلم لا نجدها في خطاب الشحن الطائفي المليء حقداً وكراهية في المآتم التي تسمى أعياداً؟ متى يشفى الغليل من يزيد الذي لست أعلم كيف أصبح رمز السنّة رغم كونها فسقته بالإجماع؟».

نعم، كيف أصبح يزيد رمزاً للسنّة وقد فسقوه إجماعاً. فهذا صحيح ونحن نتساءل إن كان يزيد ليس رمزاً للسنّة، فلا أحد من هؤلاء الشيعة في احتفالاتهم التي يحدثنا عنها أبو يعرب يقول ذلك. بل أمثال أبي يعرب هو الذي يفهم أن الموقف الرمزي من يزيد، هو موقف من السنّة. ماذا يزعج أبو يعرب وأمثاله إن كانوا على الإجماع بتفسيق يزيد، ماذا يضيرهم أن يعبر هؤلاء الشيعة عن كرههم ليزيد. هذا مع أننا لو استدعينا موقفاً آخر لمحمود الدغيم الذي يترضى على يزيد ويعتبر تفسيقه خلافاً للسنّة سنكون أمام رأي مختلف تماماً. الشحن الطائفي يكون حينما نمنع الشيعة من أن يعبروا عن حزنهم من الموقف التاريخي حول مقتل الحسين ظلماً. بل كان من المفترض أن تنخرط الأمة جميعها في هذا الموقف التاريخي لتستأنف نهضتها على أسس تحررية وعادلة.

معالجة أبو يعرب مهما حاولت التشبث بالحلّ الجذري فهي تكرس القراءة التاريخية الرسمية للتاريخ. مفادها تكريس كلّ التهم الموجهة للشيعة بأنهم يسعون إلى الانتقام من السنّة لمجرد إحياء الذكرى. في هذا الكثير من التجني والقراءة الخاطئة. ومثله دعوة الباحث إلى التحرر من الحالة الصفوية وما شابه من آراء لا تصدر عن المحققين، لأن الدولة الصفوية لم تكن أكثر تعصباً من الدولة العثمانية. بل إن مؤسسيها هم في الأصل أتراك سنة اختاروا التشيع في نهاية المطاف. ومثل هذا التوصيف

الذي يخلو من تثبت ويستهلك معطيات التاريخ العام بنوع من التعاطي الاصطفافي لا يخدم قضية الوحدة والتقريب. نعم فيما ذكر أبو يعرب المرزوني الكثير من الوجع الذي تسببه حالة الفرقة في الأمة وحالة التشتت والانحطاط، لا أحد يشك في ذلك. ولا يخال أبو يعرب المرزوني أن الشيعة غير واعين بضرورة إصلاح أحوالهم ولا يملكون مواقف تجديدية وإصلاحية. بل ولا خير في التشيع إن لم يكن طليعة الإسلام نحو لم الشعث وتقوية الموقف الإسلامي ومباشرة مسؤولية النهضة. ولا أحد من الشيعة يزعم أن السنّة هم قتلة الحسين ولا هم أتباع يزيد. وكلنا ندرك أن في الأمة ثقافة أموية لا تتورع عن قلب الحقائق ولا تتوقف عن التكفير.

كنت أتوقع أن يكون الحلّ الجذري الذي وعد به أبو يعرب، يقوم على ضرب من النقد المزدوج، الذي لا يرمي بالمسؤولية إلى طرفٍ واحد على الأقل. فهو فعل هنا أكثر مما فعله خطباء مؤتمر الدوحة الأخير. كل من يضع مدرسته مقوّماً للمدارس الأخرى ومنظوراً يرى من خلاله الحلّ، لن يقدم شيئاً للوحدة والتقريب. ولكن لا أحد يشك في أن حظ الإخوان السنّة من معرفة الشيعة هو ضعيف للغاية، كما أكد عليه أكثر من واحد آخرهم محمد سليم العوا وكما ندركه بالوجدان نحن الذين نعيش في كنف مجتمعات سنية. بل وفي ترديدات أبي يعرب ما يكشف أن معلوماته عن التشيع لا تبرح ثقافة التجريم والاتهام والصورة النمطية التي حبكها الخصوم. بل فيها من الاستهتار بقوة هذا التراث وعمق محتواه الروحي واختزاله في أهواء داخلية وخارجية ما يجعل القراءة بالغة التسطيح.

ليس معيباً أن يعطي أبو يعرب المرزوقي دروساً للسيد حسن نصر الله، فيها الكثير من الابتسار للنصوص وفيها الكثير من الجرأة على التخطئة والتغليط للشيعة وللحسين نفسه، وتوظيفاً للسنّة المحمدية كما لو

كان الشيعة يرفضون السنّة المحمدية وهم يتأملونها بالليل والنهار ويجعلون طريق الحسين أفضل طريق لها. يراد من هذه المحاولة التهوين من الرافد القيمي والروحي للتشيع في المقاومة، وفي قباله وضع بدائل مما سماه الباحث بالمشروع الثوري السوي.

يجب أن نقرأ ما بين سطور هذا الخطاب الذي يرى الحق في صف دون آخر، إذن هي محاولة لإثبات صحة مواقف وجهة نظر والتأكيد على تعبير واحد للإسلام التاريخي.

هل ثمة عاقل يستطيع أن يقبل بالوصفة اليعربية التي تجعل الشيعة ليسوا على شيء، حتى لو حققوا إنجازات لن يكون لهم فضل فيها سوى بإدراك فشل الحسين وتبني سنة محمد بالمعنى الخلدوني والتيمي؟! متى يفيق العقل العربي، ويتحمل الآخر كما هو وينسج بينه وبين الآخر جسراً للتواصل والتآخي خارج أحكام القيمة التي تتغذى على تراث منمط لا نكاد نخرج منه إلى فضاء الفهم والتفهم والتفهيم. في نظري إن التأسف على وحدة المسلمين والدعوة لها واجب لا مجرد نافلة. لكن لا بدّ أن تكون الوسيلة إليها خارج منطق الاستئصال. فأن تكون الحلول جذرية هذا أمر ننضم إليه ونقبله، لكن الجذرية لا تعني استئصال وجهة نظر الطرف الآخر والاكتفاء بالظن والشبهة في قراءتها ثم الدعوة بأن تتخلى عن كل شيء لأنها ليست في نظر الباحث على شيء.

أعتقد أننا في نشدان الوحدة والتقريب نزرع أصول الفرقة والتشتيت.. وفي طلب الحلول الجذرية نعترف إعادة إنتاج للأزمة نفسها ونعبر عنها بأساليب شتى. لا يعيش الشيعة هذه الاثنينية بين نهج محمد ونهج الحسين، فكلهم منبع واحد عليهم الصلاة والسلام، وتجسيد للحقيقة المحمدية نظراً وعملاً، لا يفرق بينهما إلا مكابر، منذ أن قال صاحب الدعوة ﷺ: **«حسين مني وأنا من حسين، رحم الله من أحب حسيناً»**..

نحمد الله أن رسالة أبي يعرب المرزوقي وجهت للسيد حسن نصر الله ولم تقرأ في مؤتمر الدوحة، لأنها كانت ستزيد في الطين بلة.. وننتظر حلًا أكثر جدية وجذرية مما تفضل به أخونا أبو يعرب المرزوقي..

بلا، سيدي عمارة، لقد بقي الكثير.. محمد عمارة بعد انضمامه إلى جوقة التجديف الطائفي

ماذا بقي لعمارة بعد أن فشل في الامتحان؟

إنه لمؤسف حقًّا حينما يضطرنا إلى الرد والتعليق على أمر طالما تمنينا لو طويت صحائفه وجف المداد دون الخوض فيه، كاتب ظننا بحسن نية ذات يوم أنه آخر من له قابلية التدحرج في شقوة الطائفية البغيضة. يتعلق الأمر هذه المرة ـ ليتها تكون آخر مرة ـ بكاتب وباحث طالما هتك طبلات آذاننا بأيديولوجيا الوسطية والنزعة الحضارية للإسلام وتسامحه العظيم، بكلف زائد يصل أحياناً إلى حدّ الثرثرة. إنه الأستاذ محمد عمارة صاحب مقال شاذ غريب، حمل عنواناً لعله من أتفه ما يمكن صدوره عن طائفي صغير، فكيف إذا تعلق الأمر بوسطي كبير ـ أو على الأقل كما أوهمنا دائماً ـ. وذلك حينما نشر مقالة في جريدة «المصريون» بتاريخ ٣٠/٤/٢٠٠٧ تحت عنوان: «ماذا بقي للشيعة بعد جهاد السنّة؟».

ربما ثمة أمر ما يشفع لمحمد عمارة، ويشفع لفلتته الأخيرة؛ هو أن مقاله جاء في ظرف اشتدت فيه حرارة العالم الإسلامي طائفيًّا حدّ الإغماء. كنا ننتظر من كاتبنا المحترم أن يشمر ويتحمس فينتمي لجبهة العقلاء ويعضد جبهة التسامح، لينزع فتيل الفتنة من الرؤوس الشقية. ليته

اقتدى بزميله سليم العوا ليشعل شمعة في ظلام طائفي مدلهم بدل أن يزيد الطين بلة. لكن الشيخ الذي انتظرنا بركته دخل الجامع ببلغته، كما يقول المثل المغربي. بالطبع لا أجد الرغبة في الرد على تجار الطائفية وصبيانها غير المهذبين، وما أكثرهم في جحيم الفوضى الخلاقة التي جرفت يابس القوم وأخضره، مهما قسوا ومهما شط بهم السفه، فالرد على أولئك الذين لا يحسنون سوى الإساءة بلا ورع والهجاء بلا دليل، هو بخلاف المقاصد الوحدوية المتوخاة، لكن في مثل هذا المقام، حينما يتعلق الأمر بباحث من طراز محمد عمارة، فالرد يصبح واجباً، بل قاصداً، والمحاسبة لا هوادة فيها. والمؤاخذة صريحة لا تردد فيها، لقد ولى الزمان الذي نقول فيه أي شيء ونمضي ولا نبالي، زمان ولى وتصرم، ألا يقرأ عمارة المتغيرات؟! لم يعد ممكناً أن نخفي الشمس بالغربال كما فعلنا دائماً بالشيعة.

لننصفهم ولو مرة واحدة ولنعترف بأنه آن الأوان أن نحترمهم كما هم لا كما نريدهم أن يكونوا، أو نرسم لهم صورة غير الصورة التي يرتضونها لأنفسهم. لو آخذ عمارة الشيعة على تصريح هنا أو موقف هناك لكان ذلك مقبولاً وحقًّا مشروعاً وتواصلاً محموداً. لكنه هفا هفوة غير منتظرة وسمح لنفسه أن يطلق العنان لأحكام القيمة على خلفية قراءة مزيفة ووظيفة للتاريخ لا تشرّف أهل التحقيق. فكان لا بدّ من مناقشته. كنت أيضاً أنتظر من الكاتب أن يتحدث طويلاً عن السنّة ويعرف الآخر الشيعي ما يجب أن يعرف من مواقف السنة ومعارفها، ومن المشتركات المطلوب تكريسها لقيام تقارب حقيقي ووحدة لا بديل عنها حتى لو ارتفعت حرارة الطائفية في الرؤوس. لكنه اختار أن يقول إنكم أيها الشيعة لم يبق لكم ما يميز تشيعكم سوى اللعن والجهل. عجباً: هل هذا هو حظ عمارة من معرفة التشيع؟ وهل استوى المجدفون والمحققون.. العامة والعلماء.. في هذا التسطيح والاختزال المزري؟ ببساطة يمتد

يراعه البهلواني كي يشطب جملة كبيرة من تراث الأمة. يبدو لي أننا اليوم أمام «كونكر» جاك بريفير الذي وصفه شاعرنا الساخر: «يقول نعم لما يحب، يقول لا للأستاذ. . يمسح كل شيء؛ الأرقام والحروف».

وببساطة أيضاً صب علينا معلومات وآراء بالية، لو أنها صدرت عن غرير طائش في تيه الطائفية لعذرناه، فكيف بالجهل لما ينطلق من سورة المكابرة والعناد. في الواقع إن هذا هو الداء العضال الذي فضحته مقالة محمد عمارة التي مفادها أن الوحدة والتقارب هو أن يتخلى الشيعة عن تشيعهم ويصبحوا سنّة وإلا فلا يوجد لديهم مانع يبرر بقاءهم على تشيعهم. ليس في هذا جديد لم يقله أهل العنف والاستئصال عندنا.

أعكس المعادلة وأتساءل هل يقبل من الشيعي أن يقول مثل هذا الكلام ولا تقوم القائمة؟ عمارة يعاند أكثر ويشط بعيداً حينما يزايد على الشيعة في موضوع حب أهل البيت. معتبراً أن السنّة هم من يحب أهل البيت وليس الشيعة. لم يفعل ذلك إلا بعد أن جعل أهل البيت هم غير أهل البيت المقصودين في الشرع المقدس. يا لها من شقاوة! سفسطة أخرى من صنع الوجدان المعاند. لكنه جميل جداً أن نسمع أن السنّة محبون لأهل البيت دون أن يضطر ذلك آحادهم أن يحرموا أهل البيت من كل امتيازاتهم كما فعل هو أيضاً، حينما أخرجهم من آية التطهير ـ نحبهم ونجتهد عبثاً في محو كل ما يعظمهم: تهريج فاضح ـ بل إن عمارة اعتبر كل تاريخ الفتوح تاريخاً سنيًا بامتياز. لا وجود للجهادية الشيعية منذ الإمام الصادق حتى اليوم.

يتعين أن يكون الإنسان على درجة عالية من الأمية لكي يستوعب هذا الهراء الطائفي الصادر عن باحث وطنّ نفسه على التحقيق منذ زمن بعيد ـ أو هكذا أوهمنا أيضاً ـ لكنه فضل الاستقالة بالعقل ها هنا عنوة. هنا حيث الطائفية العمياء تشفع وتتسامح مع لعبة التصابي والمكابرة. قل ما شئت داخل هذا الضوضاء الطائفي العريض، فكل ما تنطق به سيغدو

حقيقة لا مراء فيها . . وقدم ما تستطيع في سوق الطائفية السري والعلني، فكل سلعة مطلوبة وكل ثمن مقبول!؟ ففي سوق الحرامية كل شيء يباع وكل مشترٍ يجد طلبته. هل إذا وقف الإنسان على مقاتل الطالبيين وعلى كل هذا التاريخ من البطش بآل البيت الذين ما منهم من أحد إلا قضى صبراً تحت السيف أو قضى مسموماً غيلة، هل نعتبر ذلك ميزة للسنة أم ننسب ذلك إلى الظالمين؟ منطق عمارة يرغمنا على القول إن القاتل سنيّ ما دام هو يرى أن كل ما كان يجري من أعمال الحكومة كالفتوح وما شابه هو سنيّ. أبشع من هذا الاطلاق وهذا التعميم وهذا الخلط والانزياح لم نسمعه. ماذا دهى باحثنا المحترم؟ لقد خدعنا محمد عمارة طيلة هذه السنوات، حيث لم نكن ندري أنه يقصد بوسطية الإسلام ونزعته الحضارية، الإسلام السنيّ لا غير.

لكن لن نسمح بذلك سيدي، كما لم نسمح أن يراد بالإسلام فقط الإسلام الشيعي، إسلامنا الحضاري هو هذه الهوية الكلية المركبة وليست شظايا تتناثر كالرماد داخل الرؤوس الطائفية التي فقدت رشدها ولاذت بالتجديف. لست هنا في وارد المفاضلة ولا إدانة السنّة وهم شركاء الشيعة في مصير الأمة، بل أنا في وارد بيان حقيقة، وتحرير الصورة الحقيقية للتراث الآخر. بعد كل هذه المحاولة العبثية من التشويه والتجديف. دافع عن سنيتك فذلك حقك. وسنساعدك على هذا الحق وسنظهر ما هو معتبر في تسننك. لكن ما كان من العدل أن تقيم صورتك الأسطورية على تبشيع صورة الشيعة والتشيع. يمكنك أن تكون سنيًّا من دون الاحتفاظ بهذه الصورة الكاريكاتورية عن التشيع التي رسمت في أزمنة الانحطاط وبريشة النوكى والمغرضين.

وجب إذن أن نرد ولو في الحدّ الأدنى على نصوص تفاجئنا بسقطاتها الطائفية المرفوضة. فلن نخشى الفتنة التي يحاول البعض أن يجعلها فزاعة ترهب أهل التحقيق والانصاف، وذريعة تحول دون مهمة

إظهار الحقائق. أو مطية لتمرير المغالطات وتكريس الجهل. فأن يقول عمارة وأمثاله ما هو جارح في حقّ الشيعة، هذا أمر مقبول عند البعض بل لدى الكثيرين. بل يعتبر لدى البعض انتصاراً للسنة لا انحطاطاً طائفيًا، وتجديفاً سخيفاً. غير أن أي ردّ يتطلع إلى دفع الظلم والمغالطة وتصحيح الصورة يعدّ طائفية، ولو كان قاصداً للتأسيس العلمي الصريح للتقارب والوحدة. إن المطلوب الحقيقي في نظر هؤلاء الطائفيين الحمقى بيابسهم وأخضرهم هو القاعدة التالية: ليس من حق الشيعة أن يظهروا عقائدهم للناس حتى يعرفوا العالم صورتهم الحقيقية النقيضة لما أريد أن تكون عليه صورتهم في كتب الملل والنِّحل. كأن عمارة ومن يفري فريه يريد أن يقول: يا شيعة، إذا أردتم أن نقبل بكم ولو في الممر الخلفي، فلا تصححوا هذه الصورة النمطية واقبلوا أن تكونوا كما قال عمارة: لستم على شيء.. لا تقولوا لا.. ولا تتحدثوا عن أنفسكم. كونوا هذا المسخ الكاريكاتوري الهذياني الذي تفضلنا به عليكم وعرفناكم من خلاله.

لسنا مستعدين أن نغيّر تراثنا التجديفي الذي بلغ حدّ إقناع الطغام ذات يوم بأن للشيعة أذناباً تشبه أذناب البقر. والمصيبة أنها غدت حقيقة. رفضوا التكييفانية الداروينية وكفروها وقبلوا بحكاية الشيعة بأذناب البقر. قسمة ضيزى مرد عليها بعضنا. يتجاهل عمارة أن الشيعة تحديداً يجب أن يعرفوا الناس بهويتهم. ليس لأن ذلك يعني تشييع السنّة كما يردد الكثيرون هذه الأيام بصورة تبعث على الشفقة من شدة ميوعتها، بل لأنهم وحدهم ضحية تجهيل وتبشيع تاريخي ساهمت فيه ثقافة الملل والنِّحل والتصدير السيىء لصورتهم عند الآخر.

حسناً ليفعل السنّة ذلك وكالة عن الشيعة، ويحكموا على تلك الصورة النمطية حكماً مبرماً، إنهم لن يفعلوا وليس ثمَّة ما يحك ظهرك مثل ظفرك، لا يا سيدي، فزمان التدجيل والتغليط ولى. وأن يقدم

شخص مثل صاحبنا المذكور على طلب المفاضلة بأدنى اجتهاد سوى ما وجده خردة طائفية في سوق «المعاكيز» و«التنابلة»، فذلك دونه خرط القتاد وما عاد يجدي. نغمة قديمة تظهر بين الفينة والأخرى كأحافير مشينة تزعج الناظرين. لا بد أن يعرف بعضنا البعض خارج منطق تصدير الصورة النمطية التعسفية الساذجة الغبية عن الشيعة، الشيعة يستطيعون تعريف أنفسهم للآخر، ويستطيعون أن يبرهنوا على أن ما تبقى من تعاليمهم هو كثير، أكثر مما يدرك محمد عمارة الذي بدا لي متحاملاً على الطريقة التقليدية، في نوع من الزهو والإحساس بأنه وضع يده على الجرح، فيما هو يستقوي بجهل واختزال وتبسيط لم تعد له جدوى في عصر لم يعد الأمر محجوباً ولا محتكراً على أحد.

إن باحثاً صغيراً في التراث يدرك أن عمارة لم يفعل في مقاله الأخير سوى استعادة ما قاله المغرضون والجاهلون، كما لو أن التشيع مجرد لعن وسب. حكاية قديمة، ورؤية مبسطة وتافهة ومغرضة. لكنها تستعاد مع تجار الطائفية هذه الأيام، لا بل تلاك اليوم من قبل فعاليات دينية أكدت عبر ردتها الطائفية هذه أنها لم تكن جادة ولا مستيقنة لما تقول: إن عمارة حقًّا فشل في الامتحان، وعلينا أن نؤكد بأن الطريق الأيسر لدرء الفتنة هو التمسك بسلطان التحقيق ضد التغليط، وصيرورة النقاش كفيلة بالقبض على ناصية الحقيقة.

فما دام هناك من يتكلم وجب أن يستمر النقاش ولو فوق صهوات الجياد ورغماً عن شقشقة الأفراس. فحينما يتحدث أشخاص كمحمد عمارة وجب أن نتحدث، بل وجب أن نتحدث أكثر حينما يحاول هذا الأخير أن يقول مغالطاً: إن التشيع ليس على شيء، وهذا معناه أن ليس للشيعة ما يستحقون به الافتخار بتراثهم، إننا لا نطالب عمارة بعد كل هذا التجديف أن يتذكر بأن قدراً من الاحترام لعقيدة الآخر هو أبسط سلوك حضاري مطلوب، وضرورة يفرضها موقف التسامح. وها هو

يناقض نفسه لما أعلن ماذا بقي للشيعة بعد جهاد السنّة غير السبّ واللعن. وكان قبل فترة قد قرر أن التراث الإسلامي قد ازدان بالشيعة. من نصدق يا ترى: عمارة الوسطي أم عمارة الطائفي؟

لا زلت أنظر إلى الشيخ الدكتور محمد عمارة كواحد من المفكرين الإسلاميين المميزين، وأحد أبرز الدعاة الفاعلين للوسطية والعقلانية. كان هذا الانطباع يخالجني حتى وإن بدت لي من الباحث هنات زلزلت ثقتي بموضوعيته. حدث ذلك وهو يسعى يوماً بإصرار عنيد كي يؤلف رداً على لويس عوض الذي اتّهم فيه السيد جمال الدين بالإيراني الغامض والعالم الشيعي. كان الأمر يتطلب بعضاً من التبرير حتى لا يظهر باحثنا أنه يسعى منذ ذلك الوقت لأن يسرق كل مفخرة للشيعة ولو اقتضى الحال أن يغيّر من هوية السيد جمال الدين ويحاول أن يبرهن عبثاً على سنيّة هذا الأخير بدل شيعيته. مع أنه أدرك مكمن الخطأ حيث شيعية السيد جمال الدين لم تكن في حاجة إلى اجتهاد عبثي، فهي مسلمة واضحة سوف نضع في ذلك تحقيقاً قريباً. لذا قال بأن شيعيته إن هي ثبتت لن تنتقص منه شيئاً فلقد ازدان التراث الإسلامي بالشيعة وما شابه. حرص عمارة منذ ذلك الوقت على أن يحشد من الشواهد العليلة لإثبات سنية السيد جمال الدين، محاولة فاشلة لتأكيد حقيقة ها هو اليوم يصرح بها بكثير من الفجاجة: ماذا بقي للشيعة بعد جهاد السنة؟!

يبدو أن حبل الصبر على الموقف الوحدوي قصير، لا سيما إذا كان صاحبه لم يدرك صميم الإشكال ولا هو تعمق في صلب النزاع. ولعل أكبر دليل على هذا الجهل العريض بجوهر الإشكال وآفاق الحلّ، هو مقال الكاتب الأخير.

ما كان لنا أن نتهم الدكتور عمارة بالجهل إلا بعد أن ابتدأ حديثه باتهام الآخرين بالجهل قبل أن يثبت أي قدر من العلم يتميز به عن معلومات العوام في هذا التجديف الساذج. إنه رجل الخطابة

والديماغوجية بامتياز. وذلك قبل أن نقف على مستوى من الوعي التاريخي هو بالتأكيد أدنى من وعي من لا وعي لهم. والحق يقال إن الطائفية لا تقبل بصوت العقلاء ولا تسمح بدخول فنائها إلا بعيون حولاء أو عوراء، بل إن فرسانها عمي ولكن ليسوا بكمًا، لأنهم أهل ثرثرة وتجديف، لقد فشل عمارة في الامتحان هذه المرة لأنه خلط أخماساً بأسداس وأوقفنا على جهل جديد لا هو بالبسيط ولا هو بالمركب. وحق لك أن تسأل أي نوع هو هذا الجهل، فأقول إنه جهل وظيفي، فصاحبه ليس فقط لا يعلم، بل قد يكون على دراية وعلم. وليس فقط لا يعلم أنه لا يعلم شأن حامل الجهل المركب، بل هو توظيف للجهل المركب المزيف في تمرير رأي يدرك صاحبه أنه لا يعدو مجرد لجاج انفضحت نكتته منذ أمد بعيد. ليس هذا يخفى كما عبر عنها يوماً نصر حامد أبو زيد، حول ازدواجية هذا الخطاب الذي يمارسه عمارة: خطاب في الكواليس وخطاب في المنابر.

«ماذا بقي للشيعة بعد جهاد السنة»؟!

ليس في هذا الظرف الأليم على الأمة من خطاب أسوأ من هذا. فهو يفترض أن ينهض ليثبت عكس ذلك، والقصة تنطلق ولا تتوقف بمقالة سيئة تفتقر إلى التحقيق، وتلوذ بالمغالطات. وهاك الرد مختصراً:

جهادية الشيعة مسلمة، فلِمَ المغالطة؟!:

أحياناً يسعى المجدفون إلى اقتحام حرم المسلمات والواضحات حتى يشوشوا على الحقيقة ويضيفوا إلى المزاد الطائفي العلني خردة إضافية تصلح ملهاة تافهة للعقل المسلم. هذا معناه أننا مكرهون اليوم للنزول بالنقاش إلى مداركه الدنيا. فالعقل هنا مجروح ومظلوم وهو يتدحرج إلى السفح، كما أرادوا له أن يتدحرج دائماً إلى السفح!

من هذه المغالطات التاريخية، زعمه أن ليس للشيعة أي دور في

الجهاد والثورة ضدّ الحكام الظلمة. يصبح تاريخنا الإسلامي تاريخاً سنيًا طائفيًا ليس إلا، وليس تاريخاً إسلاميًا بالمعنى الذي يتسع لهذه الهوية الاجتماعية المتعددة والمركبة. لا نستطيع أن نساير عمارة في هذا التقسيم لتراث الأمة إلى فسطاطين حتى لو شاء تاريخ الانحطاط أن يبقي عليه طوائف. نعتقد أن تاريخ الأمة هو حصيلة صراع بين السلطة الجائرة والأحرار. الأحرار في الأمة كانوا متعددي المذاهب: شيعة وسنة.. معتزلة وأشاعرة.. من كل مدرسة ومن كل مذهب. وليس الأمر يتعلق بمعسكر بين السنّة والشيعة. قاد السنّة ثورات شارك فيها الشيعة في العصر الحديث، كما قاد الشيعة ثورات شارك فيها السنَّة.

يقول محمد عمارة:

«إن تاريخ الشيعة لم يعرف انخراطهم في الثورات ضدّ الحكام الظلمة وضدّ الاحتلال الأجنبي إلا في القرن العشرين! ولقد ظلوا طوال تاريخهم منذ الإمام جعفر الصادق يعلقون الاشتغال بالسياسة والقيام بالثورة وبناء الدولة وتأسيس الحكومة على ظهور الإمام الغائب».

تهمة للشيعة منذ الإمام الصادق، ليس هذا الأخير خارجاً من هذه التهمة، الإمام الصادق هو قائد تعليق الجهادية الشيعية. لا ندري هل أنصفوا آباءه حينما غلطوهم في قيامهم بثوراتهم المشهودة، ألم يغلطوا الإمام الحسين في خروجه على يزيد الطاغية؟! لا، بل اعتبروا مقتله بسيف جده كما قال شريح القاضي وبشرع جده كما قال القاضي أبو بكر ابن العربي. فحينما يركز الخصم بين السلة والذلة، فكل ما يصدر عنك مجروح. جهادك وثوراتك خروج، وصبرك ومسالمتك قعود حتى الدول الشيعية التي قامت في التاريخ الإسلامي جرموها، وكل ثورة ونضال جرموه، لكن الأمر مع محمد عمارة أنكى وأمرّ.

إن قراءته الحولاء للتاريخ الإسلامي جعلته لا يرى كل هذه الإنجازات، ولا حتى يستطيع أن يقرأ جملة الثورات الشيعية الكبرى في

التاريخ الإسلامي منذ نهضة سليمان بن صرد الخزاعي، والمختار الثقفي، وثورة العلويين التي أطاحت بدولة الظلم الأموي. أما الإمام الصادق، فإن وضعه مختلف تماماً. وكان يتعين على المؤرخ المحقق أن يبسط أمام القارئ الظروف الصعبة التي وجد فيها هذا الإمام والسياق التاريخي لنشاطه، إذا أراد فعلاً أن يرقى بالنظر لا أن يتدحرج به إلى أسفل سافلين.

كان على الكاتب أن يحقق أكثر قبل النطق بهذا الادعاء، الإمام الصادق أسير لدى الدولة العباسية، ليس له من مساحة للحرية سوى أن ينهض لإصلاح العقل الإسلامي بعد أن أفسدته سياسة الدولة الأموية، استغل الصادق هذا الهامش من الحرية لبناء تراث علمي عظيم، هو أعظم تراث شرعي وعقلي عرفه التاريخ الإسلامي، هو هذا الجهاد نفسه، جهاد المعرفة، لم يكن العالم الإسلامي يومها مهدداً من الخارج بل كان التهديد من الداخل ينذر بالانحطاط، المعارك التي يتحدث عنها الباحث هي فتوح أو لنقل غزوات الدول.

مع ذلك فالباحث يوحي بأن القاعدة الجهادية كانت سنية. لم نسمع في تاريخ الفتوح بأن الجهاد الإسلامي كان سنيًّا وليس إسلاميًّا، بدعة عمارية متأخرة، الجهاد قامت به الأمة جميعاً. أم ترى مؤرخنا البدعي يروم تبني المنطق التيمي نفسه في المنهاج لما فضل معاوية على علي بن أبي طالب لجنبة كون الأول فتح البلدان بينما علي لم يفعل؟ أهذا هو المعيار في التفضيل؟! لقد كان علي طليعة الفتح لما كان الفتح رساليًّا لا طلباً للخراج. وبطلاً للفتح لما كان شهادة واستشهاداً وليس تغلباً مضمون النتائج، ولك أن تتأمل صورة أحد كبار الفاتحين للبلدان يتعرّى ويظهر سوأته فرناً من فتوح علي بن أبي طالب الداخلية. .

حروب علي في الداخل هي أكبر من فتوح البلدان. لأن قلبه كان على تقوية الأمة ومناعتها وتمتين اقتدارها الحضاري حتى لا تكون مجرد

دولة غزو بدوية وحشيّة. لعل هذا ما أنهى تفوق الأمة الوهمي لمجرد أن انتهى نمط الحروب الوحشية القائمة على سرعة الانزال وبساطة العيش والصبر والجلد، ولمجرد اكتشاف البارود. لقد كان رينان ونظراؤه صادقين هنا لما تساءلوا إن كان أمر التفوق الإسلامي الحضاري كان سيمتد لو أن أوروبا اكتشفت البارود قبل ذلك التاريخ؟! نعم، فبمجرد أن تراجعت القوة العسكرية للمسلمين ـ والحقيقة أن الذي حدث هو تحول في نمط الحرب مع اكتشاف البارود ـ، حتى باتت الخلافة الإسلامية التركية بمثابة الرجل المريض، كان على عمارة أن يزايد بالفتوح على خلافة عليّ بن أبي طالب. وفي هذا كان بإمكانه أن يتبنى الرأي التيمي بتفضيل خلافة معاوية التي كثرت فيها الفتوح على حدٍّ تعبير هذا الأخير على حكومة عليّ بن أبي طالب التي كثرت فيها الفتن. هل يجرؤ عمارة على قول ذلك؟! بالتأكيد لن يفعل. لكن منطقه يؤكد على ذلك أفضل تأكيد، بل يؤسس لذلك أفضل تأسيس، وهو فهم ساذج غير تاريخي ولا يحسن استقراء الشروط الخارجية والداخلية التي تسمح بالجهاد الخارجي.

فعمارة يختزل حركية الإسلام في جهادية قتالية كما يختزل الفتوح في نشاط غزوي، لا وجود لجهاد المعرفة ولا إلى فتوح حضارية عقلية، الإمام الصادق قام بأعظم مما تأتي به فتوح البلدان، لا يريد عمارة أن يدرك بأن العلوم الإسلامية والمعارف الإسلامية تعرضت لفوضى ما كان أن نقف على هذا الحدّ الأدنى من تراثنا العلمي إلا بعملية تصحيحية كبرى تجعل من النشاط العلمي وسيلة لتقوية مناعة الأمة من الانهيار الذاتي، السنّة التي يتباهى بها عمارة مدينة لحركة الصادق العظيمة، تصفح تراثك لتجد الصادق متربعاً على كل جغرافيته. التراث السنّي في نهاية المطاف هو ما ورد عن الصادق بالواسطة، القديمون في تاريخ السنّة كسفيان الثوري، وابن عيينة وأمثالهما خريجو مدرسة الصادق

والرواة عنه كما ذكر ذلك الشبلنجي في نور الأبصار، وصاحب الصواعق المحرقة ابن حجر الهيثمي، بل إن أعلام المذاهب الأربعة هم تلاميذه مباشرة أو بالواسطة كما لا يخفى. والرواة من قدماء السنّة يتشرفون بالرواية عنه، فهذا مالك بن أنس فيما يورده ابن شهر آشوب في المناقب يقول: «ما رأت عين ولا سمعت أُذن ولا خطر على قلب بشرٍ أفضل من جعفر الصادق فضلاً وعلماً وعبادةً وورعاً».

وذلك أبو حنيفة يقول عنه فيما يورد ابن حجر في الصواعق، وابن الصباغ في الفصول: «لولا السنتان لهلك النعمان». لا عجب بعدئذٍ إن كان ابن أبي الحديد المعتزلي جعله في شرح النهج مرجعاً لفقه المذاهب الأربعة.

هذا هو الإمام جعفر بن محمد الصادق الذي قال عنه صاحب وفيات الأعيان ابن خلكان: «**وفضلُه أشهر من أن يذكر**» .بل هذا هو الصادق الذي قال عنه ابن حجر صاحب الصواعق المحرقة: «ونقل الناس عنه من العلوم ما سارت به الركبان، وانتشر صيته في جميع البلدان».

حروب الاستقرار العلوية والفتوح العلمية الصادقية بهذا المعنى هي أعظم أشكال الفتوح. كان على عمارة أن يتعلم من ابن حزم الأندلسي الذي عد حروب علي بن أبي طالب الداخلية من أجل الفتوح. فهو يقول في «جمل فتوح الإسلام»: «**ثم فتح عليّ عليه السلام قَتْلَ الخوارج، وهو كما تقدم من أجلّ الفتوح، لأنهم كانوا لا يرون طاعةَ خليفة، ولا يرونها في قُرَشيّ، وكان ضررهم معلوماً**» (٢/ ١٢٤).

فقس على ذلك لا حرج مع وجود وحدة المناط، فكلهم نهج واحد.

سقت هذا الكلام عنوة لا استطراداً، لكي أتوقف عند إمام شاء له عمارة أن يكون مؤسساً للقعود في عبارته: منذ الإمام الصادق. ليدرك أن

إماماً كهذا أستاذاً لأئمة المذاهب الأربعة ومرجعاً لأخبار رويت عنه وعدت بالآلاف، يجعل السؤال العماراتي يطرح بصورة مختلفة: ماذا بقي للسنّة بعد الإمام الصادق؟! والحق ما قال الذهبي وأمثاله، أنه لولا الرواة الشيعة لاندرس الحديث، لأقول، بأن الإمام الصادق كان إماماً للمسلمين وليس للشيعة فحسب، وإن اختص به هؤلاء ولاء والتزاماً، وكان على الباحث لو كان محققا حقًّا أن يدرك بأن أول المتهمين بتعليق الفتوح الخارجية هو عليّ بن أبي طالب. وكذا كان من المفترض أن يتهم الحسنين، وكذا علي بن الحسين السجاد، وكذا محمد بن علي الباقر. لا أدري يبتدىء الكاتب من زمن الصادق إلا أن تكون أحكامه جزافية.

أجل، كل الفتوح تنسب للأمة جميعاً بكل نوازعها ومذاهبها، ولو أن عمارة قرأ الفقه الإمامي فسوف يجد لا محالة فقهاً للجهاد ينسف كل ادعاءه. ووجود باب الجهاد في الفقه الإمامي دليل على عنايتهم بهذه الشريعة، حيث لا ضرورة لإدراج أحكام الجهاد في فقههم لولا أنه محل تكليف كما لا يخفى. خذ مثالاً لذلك ما قرره صاحب الروضة البهية في شرحه على اللمعة الدمشقية وهو يقول:

«وإنما يجب الجهاد (بشرط الإمام العادل، أو نائبه) الخاص وهو المنصوب للجهاد، أو لما هو أعم، أما العام كالفقيه فلا يجوز له توليه حال الغيبة بالمعنى الاول، ولا يشترط في جوازه، بغيره من المعاني (أو هجوم عدو) على المسلمين (يخشى منه على بيضة الإسلام وهي أصله ومجتمعه فيجب حينئذٍ بغير إذن الإمام أو نائبه).

ويفهم من القيد كونه كافٍ، إذ لا يخشى من المسلم على الإسلام نفسه وإن كان مبدعاً، نعم لو خافوا على أنفسهم وجب عليهم الدفاع ولو خيف على بعض المسلمين وجب عليه، فإن عجز وجب على من يليه مساعدته، فإن عجز الجميع وجب على من بعد ويتأكد على الأقرب فالأقرب كفاية».

مثل هذا كثير في فقههم. وبه شارك جمهورهم في الجهاد والإقامة في الثغور. حيث للشيعة دعاء يعرف بدعاء أهل الثغور. وهو دليل على إحدى اثنتين: إما ثغور فتوح أو ثغور ثورات. ولا ثالث لهما. ليس للجهاد صورة واحدة. فالجهاد الدفاعي متعين. والمعلق في المقام ليس هو الجهاد الذي به يدافع عن بيضة الإسلام وحمى الأمة، بل هو فتوح البلدان، هو جهاد ابتدائي كما في الفتوح المتأخرة عن زمن الرسالة. إن عمارة يستعمل مفهوماً غريباً شاذاً: الفتوح السنية. أين كان باقي المسلمين من مذاهب ومدارس أخرى، شذوذ لم نجده عند مؤرخي الفتوح والبلدان، كابن حزم في جملة الفتوح لما قال في أمر الديلم:

«دخل إليها الحسن بن علي بن عمر بن علي بن الحسين بن علي ابن أبي طالب ﷺ، وهو المعروف بالأطروش، في حدود سنة ثلاثمائة، فأسلموا كلهم على يديه، فهم كلهم شِيعة مسلمون». (٢/١٣٣).

ومثلما حاول انتزاع حب أهل البيت من تراث الشيعة أراد أن ينزع عنه أيضاً الجهادية التي كانوا فيها أساتذة غيرهم. نعم، ربما إذا كان عمارة يتحدث عن حروب تكفير وحروب غزو وحروب بحث عن الخراج والسيطرة، فإن فقه الشيعة منه براء. أما الجهاد الرسالي بفقهه الكبير، فإن خير من نبه إليه قبل ورود عمارة هو الشهيد سيد قطب لما قال في مورد شرحه الآية الكريمة: ﴿لَّا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾﴾.

قال رحمه الله: **«ويخلص لنا منها مدى عمق عنصر الجهاد وأصالته في العقيدة الإسلامية، وفي النظام الإسلامي، وفي المقتضيات الواقعية لهذا المنهج الرباني.. وقد عدته الشيعة ركناً من أركان الإسلام ـ ولهم من قوة النصوص ومن قوة الواقع ما يفسر اتجاههم هذا. لولا ما ورد في**

حديث: «بني الإسلام على خمس...» ولكن قوة التكليف بالجهاد؛ وأصالة هذا العنصر في خطر الحياة الإسلامية؛ وبروز ضرورته في كل وقتٍ وفي كل أرض ـ الضرورة التي تستند إلى مقتضيات فطرية لا ملابسات زمنية ـ كلها تؤيد هذا الشعور العميق بجدية هذا العنصر وأصالته».

السنّة في هذه القراءة العماراتية الساذجة هم الدولة وهم الثورة وهم التراث كله. ومع ذلك سيعمل على اختزال جاذبية الإسلام السني في هذه الجهادية التي اختزلها هي الأخرى في الحرب والغزو. ومن المؤسف أن يصدر هذا الاختزال عن كاتب صدع رؤوسنا بحضارية الإسلام. لذا يتساءل ماذا بقي عند الشيعة بعد ذلك. فلو سلمنا جدلاً بذلك، فهذا لا يمنع من السؤال: أين مصادر الجاذبية الأخرى، أين الإبداع والتنمية والعلم والعقل وكل هذا التراث من المعارف. بل ماذا سيبقى في تراثنا لو شطبنا على كل إنجاز شيعي في اللغة والشعر والفقه والحديث والفلسفة والكلام والتاريخ. . . أبو حنيفة يقول: لولا السنتان لهلك النعمان، وهو إمام مذهب من مذاهب السنة. ماذا سيبقى في تراثنا لو شطبنا الشيعة المبدعين من الفرزدق ودعبل الخزاعي وديك الجن وأبي نواس وأبي تمام والمتنبي وأبي العلاء المعري. . أو شطبنا على الفراهيدي وابن منظور والفيروز آبادي وابن سينا واليعقوبي والمسعودي وابن مسكويه والخواجة نصير الدين الطوسي وغيرهم من بناة العلوم والمعارف الإسلامة المختلفة، هم شيعة بالهوية على الأقل. ها هنا الجاذبية. على أن عمارة يحرف الموضوع عن جوهره، وهو أن الأمر لا يتعلق بمجرد جاذبية، بل يتعلق في وجدان المسلم بتكليف شرعي لازم عن الدليل، وليس هواية للانتقال ولا إرادة في الاقتناع. ولله في خلقه شؤون.

وأما المقاومة والثورة، فتاريخ الشيعة كله مقاومة ضدّ الظلم. بل إن ماهيته احتجاجية كما لا يخفى. فلنسأل عمارة: من ثار في وجه

الأمويين حتى أسقط دولتهم الجائرة؟! ولنسأل كيف قامت الدولة الفاطمية والبويهية والحمدانية وغيرها.. هل قامت بالقعود أم قام بها غير الشيعة.. أم أنها مما شطبه يراع عمارة من لوح التاريخ. أم م م... حسناً، لنعد إلى أسطوانة أخرى، إلى طحلب لزج أخضر طالما تمسك به المغرضون. إنهم الزيدية، سنسمع بين الفينة والأخرى كلما تصاعد الجدل الطائفي، أن الزيدية أقرب إلينا. يقول عمارة مستطرداً:

«وكان أهل السنّة والجماعة ـ طوال ذلك التاريخ ـ هم الذين يقودون الثورات وحروب التحرر الوطني والقومي والجهاد الإسلامي.. وكان الشيعة الزيدية ـ وهم الأقرب قرباً شديداً لأهل السنّة ـ هم الذين يشاركون أهل السنّة في الثورات والسياسة والجهاد..

وإذا كانت هذه هي حقائق التاريخ التي تعلن بالوقائع أن أهل السنّة والجماعة هم الذين رفعوا رايات الجهاد في الفتوحات الإسلامية الأولى التي أزالت طاغوت استعمار الروم والفرس.. وحررت الأرض والضمير.. وفتحت الأبواب لانتشار الإسلام حتى في البقاع التي تشيع أهلها... كما أنهم ـ أهل السنّة ـ هم الذين أعادوا تحرير الشرق، وإنقاذ الإسلام وحضارته وأمته من الحملات الصليبية (٤٨٩، ٦٩٠هـ ـ ١٠٩٦، ١٢٩١ م) ومن الغزوة التترية في تاريخنا الوسيط... كما أنهم ـ أهل السنَّة ـ هم الذين تصدوا للغزوة الغربية الحديثة التي بدأت منذ إسقاط غرناطة (١٤٩٢ م) وحتى الآن..».

لكن الزيدية وهم عند أنفسهم شيعة، وعند قدماء السنّة شيعة بل روافض أيضاً. والحديث عن الأقربية إلى السنّة ادعاء كان الغرض منه ولا يزال ليس احترام الزيود الذين حاربوهم حرباً عشواءً، ولا زالوا يسعون إلى إبادتهم والتآمر عليهم في اليمن، بل مزايدة على الإمامية ليس إلا، حينما ساند أبو حنيفة النعمان ثورة زيد بن علي، قال الإمام الصادق: «اليوم تأكدت مودة النعمان لنا بنصرته عمي زيد».

الزيدية شيعة وروافض أيضاً. لننقل كلاماً لابن كثير فيه تأكيد على ذلك. يقول في التفسير:

«قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا إسماعيل بن موسى، أخبرنا شريك، عن يحيى بن عبد الله بن الحارث التيمي - يعني الجابر - قال: نظرت في قتلى أصحاب زيد، فوجدت الكعب فوق ظهر القدم، وهذه عقوبة عوقب بها الشيعة بعد قتلهم، تنكيلاً بهم في مخالفتهم الحق وإصرارهم عليه..» (٣/٥٩).

الثورة الزيدية شيعية. ولم يكن الزيدية هم من يساند غيرهم، بل كان الغير متعاوناً مع مشروعهم. وهذا يدفع مغالطة عمارة بل حتى الأئمة من أهل البيت الذين حاول عمارة إبعادهم عن هذه الثورة كانوا يساندونها معنوياً وبالطرق الممكنة ويتعاطفون معها، لا نخال زيد بن علي ثائراً خارجاً عن تعاليم الأئمة العلويين الذين عاصروا ثورته كما يدل على ذلك كلام الإمام جعفر الصادق عن نصرة أبي حنيفة لعمه. بل لك أن تتأمل موقف أئمة أهل البيت من هذه الثورات. كان شعار معركة فخ هو: حيّ على خير العمل.

يقول الإمام الرضا: إدريس بن عبد الله الكامل من شجعان أهل البيت وساداتهم ووجهائهم وله فضل كبير في نشر الدين والعلم في المغرب.

كما قال الإمام الجواد: لم يكن لنا بعد الطفّ مصرع أعظم من فخ.

هذا تاريخ أئمة أهل البيت وشيعتهم، نضال وثورة وتحدٍّ. حتى كان ما منهم إلا مقتول أو مسموم. ولم يكن ذلك لقاء قعودهم بل هو من أثر جهاديتهم. فلنذكر تائية دعبل الحزينة في وصفها الحزين:

أفاطم قومي يا بنة الخير واندبي — نجوم سماوات بأرض فلاة
قبور بكوفان وأخرى بطيبة — وأخرى بفخ نالها صلوات

الثورات الشيعية خلال العصر العباسي لا غبار عليها. فلماذا يسعى عمارة عبثاً إلى تغطية الشمس بالغربال؟! كانت ثورة يحيى وقبل ذلك ما كان من أمر الحسين بن علي بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب حينما لقيه جيش مجهز من العباسيين في يوم التروية، فقتل الحسين وجمع ممن كانوا معه من الشيعة، وجمعت رؤوسهم فكانت مائة ونيفاً، وفيها رأس سليمان بن عبد الله بن الحسن المثنى. تكرر هذا المشهد كثيراً، وغير الشيعة لم يرضهم أمر الشيعة. سواء قاموا أو قعدوا.

كل هذا التاريخ وجب في شريعة عمارة الاستئصالية شطبه دونما أدنى تردد. تراث على مقاسه خالص للسنّة لا يد للشيعة فيه. حينما تكون للشيعة دول فإنهم يقومون بواجبهم في الجهاد. وإذا كان الصادق يوصي بالصبر فلأن الأمر يتعلق بشروط لا تفي بمقاصد الثورة. تاريخ التشيع متواصل فاعل حيوي لا غبار عليه. وليس من قراءة هوجاء تجعل منه تاريخاً مغموراً أو نكرة إلا أن تكون قراءة مغرضة أو في أقل تقدير هي قراءة طفالية ساذجة.

إذن هي المغالطة تمشي فوق الرؤوس بوقاحة. الزيدية أقرب إلى السنّة. . ساندوا السنّة في ثوراتهم. . يا لها من أمية تاريخية فجّة. . كان بعض السنّة قد ساندوا الثورة الزيدية وليس العكس. فقلب الحقائق لا يجدي نفعاً هنا. يدرك الكاتب أن المشاعر الطائفية تسمح بكل هذه البهلوانية التاريخية المغالطة ما دام أن المقصود هو تكريس صورة نمطية تافهة للشيعة ولو بتغيير الحقائق كما هي عادة عمارة. لا ندري إن كانت ثورة المختار وسليمان بن صرد وزيد والعلويين وما شابه هي مجرد مساندة لثورات سنية؟! يخلط عمارة ويمارس تشويشاً على الأحداث التاريخية ويقفز من موضوع إلى آخر ويخلط بين الثورات وحرب الفتوح، حتى أنه لا يكاد يميز بين الأمرين.

ولا يزال يغالط كاتبنا ويخلط بين الأزمنة لما اعتبر دخول الشيعة

إلى مشهد الثورة والجهاد إلا في القرن العشرين. لكنه في نفس السياق انزاح أكثر لينكر إن كانوا ساهموا في حركات التحرر والتحرير. ولعل لهذا السبب حاول عمارة في مورد آخر أن ينفي شيعية السيد جمال الدين الأسدأبادي، لكي لا تحسب فضيلة هذا الشيعي مفجر عصر النهضة العربية وفكرة التحرر من الاستعمار. وهو تاريخ سابق عن القرن العشرين كما قرر الكاتب جزافاً. لعله من العار جداً أن نتحدث وفق هذا التقسيم في موضوع حركات التحرر. ولا نخال عمارة سيوافق من جاراه في منطقه ليقول إن من أسقط الخلافة العثمانية وساند الإنجليز هم سنّة المشرق العربي. كان للشيعة حضوراً طليعيًّا على مستوى التحرر الوطني جنباً إلى جنب مع باقي أطياف الأمة. حركة التحرر الوطني قام بها جيل ناضج جداً فاق هذا المستوى المتدني الذي انحطت إليه ثقافتنا الطائفية. على الرغم من سلفية رشيد رضا لم يكن لينكر فضل السيد جمال الدين الشيعي ولا التواصل مع شكيب أرسلان الدرزي. فما يزين تاريخنا الحديث أنه قاوم وجاهد بكل أطيافه وترفع على جراحه الطائفية.

من حرر العراق من الاستعمار في ثورة العشرين ومن حرر إيران من الاستعمار البريطاني ومن حرر لبنان من كل أشكال الاحتلال منذ الاحتلال الفرنسي حتى الإسرائيلي، إننا ندرك مشكلة عمارة اليوم، على المقاومة اللبنانية أن لا يغرها انتصارها على إسرائيل التي عقدت ودوخت كل هذا السرب من الناعقين عليهم أن يدركوا رغم ذلك أنكم لستم على شيء وأنكم نبتة غريبة في تاريخ الجهادية والثورية، إنكم لستم على شيء ومدرستكم ما بقي فيها من شيء بعد الجهادية السنية. ما المطلوب إذن حتى نعود إلى هذه الجهادية؟ هل نشطب الشيعة والتشيع من طريقكم حتى تحرروا القدس؟ يا له من هراء..

وعليه، يقرر عمارة هذه النتيجة:

«إذا كان مجد المقاومة والثورة والثورية ـ عبر هذا التاريخ ـ هو

لأهل السنَّة والجماعة أولاً وبالدرجة الأولى فما الذي عند الشيعة ليغري إنساناً بالتحول من السنّة إلى الشيعة؟!».

الانتقال من مقدمة خاطئة ومغلوطة إلى نتيجة بهذا الحجم دجل خطابي كبير. أولاً ثبت هذا العرش ثم انقش على مهل، مع احترامنا للاتجاه العام للسنَّة تاريخيًا، فإن الأمر مع وجود الاستثناء الذي يؤكد القاعدة، فإن التسنن ارتبط بالدولة والتشيع ارتبط بالثورة، تصميمات ذلك تاريخيًّا محفورة في ذاكرة التعاليم ومضامينها لا تخفى على محقق.

وما دام عمارة سلم بمقدمته الفاسدة تلك، تساءل إن كان السبب في هذا الإغراء هو محبة أهل البيت. فيقول مغالطاً مرة أخرى وعلى المنهجية نفسها في ما يمكن اعتباره فوضى خلاقة في النقاش يستهدف المسلمات هروباً من الحقائق الكبرى التي تتطلب نظراً. يقول:

«قد يقول البعض إنه حب الشيعة لآل البيت.. وهنا نريد أن ننبه الذين لا يعلمون أن مصطلح أهل البيت قد ورد في القرآن الكريم مرة واحدة مراد به نساء النبي ﷺ وليس أبناء فاطمة من عليّ بن أبي طالب كما يدعي الشيعة!! ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ۚ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾ وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾﴾ [الأحزاب ٣٢ ـ ٣٣].

وإذا كان أهل البيت بنص القرآن هم نساء النبي فمن الذي يحبهن ويترضى عليهن؟.. ومن الذي يسبهن ويقول فيهن فاحش الأقوال؟!.. إن أهل السنة والجماعة هم الذين يحبون أهل البيت.. على حين رأي الشيعة في نساء النبي ﷺ معروف!..».

المسألة تتعلق بحب أهل البيت. والحب حسب هذا الوعي الساذج أشبه بعاطفة جوفاء لا أثر لها سوى أنني احترمك ولكن لا اعترف لك

بالشأنية. قد نعشق ليلى، وقد نحب ما لا يحب، حتى أننا نستطيع أن نحب الهررة والفئران ونسكنها وجداننا أكثر مما يفعل البعض بأهل البيت الذين لا يذكرونهم إلا حينما يزعجهم الشيعة بهذا الحب. لولا الشيعة لاندرس تراث أهل البيت ولما كتب عنهم ابن حجر ولا تحدث عنهم ابن تيمية ولا أفرد لهم أحد مساحة يتيمة من مصنفاته في سياق المزايدة على الشيعة ليس إلا. عمارة يعتبر المسألة حبًّا أجوف، فيما الأمر يتعلق بالتزام وترجيح واختيار وتفضيل وشأنية وولاء. الحب هنا ليس غراماً تذروه رياح النسيان. بل هو تكليف يصل إلى درجة أن لا تتقدمهم ولا تتخلف عنهم. فالحب بالمعنى العمارتي تمييع لجوهر المسألة. حيث الحب في الاتباع، والمحب لمن يحب مطيع: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾. لكن ليته وقف عند هذا التمييع. لقد اعتبر أن السنة دون الشيعة هم من يحب أهل البيت. غير أن ذلك لا يتم تقريره إلا بعد أن حرم أهل البيت أنفسهم من آية التطهير، ليحولها إلى زوجات النبي ﷺ. رأي شاذ في التراث يحمل أثر النصب والكراهية لأهل البيت بعد أن انتزعوا منهم كل مفخرة. وقد ضرب عمارة بكل هذا العدد الهائل من الأخبار التي تؤكد على أن المراد من أهل بيته ليس زوجاته، لحادثة أم سلمة، ولتخصيص ذلك بحديث الكساء وتعيين المقصود بأهل البيت شرعاً وليس لغة. قلنا إن المغالطة والهياج الطائفي يسمح بأن نتجاهل المقيد والمخصص، وربما نعود إليهما ونتشبث بهما في سياقات أخرى.

لم يشأ عمارة أن يطلع قراءه على كامل الحقيقة. فلنضع بعضاً منها أمام قراءه ومن مصادر السنّة المعتبرة. لنبدأ بالطبري، ففي تفسيره نجد:

«حدثنا بشر، قال: ثنا يزيد، قال: ثنا سعيد، عن قتادة قوله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾﴾ فهم أهل بيت طهرهم الله من السوء، وخصهم برحمة منه؟

حدثني يونس، قال: أخبرنا ابن وهب، قال: قال ابن زيد في قوله ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾﴾ قال: الرجس ها هنا: الشيطان، وسوى ذلك من الرجس: الشرك.

اختلف أهل التأويل في الذين عنوا بقوله ﴿أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾ فقال بعضهم: عُني به رسول الله ﷺ وعليّ وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام.

❁ ذكر من قال ذلك:

حدثني محمد بن المثنى، قال: ثنا بكر بن يحيى بن زبان العنزي، قال: ثنا مندل، عن الأعمش، عن عطية، عن أَبي سعيد الخدري، قال: قال رسول الله ﷺ: «نزلَت هَذِهِ الآيَةُ فِي خَمْسَةٍ: فِيَّ وَفِي عَلِيٍّ عليه السلام وَحَسَنٍ عليه السلام وَحُسَيْنٍ عليه السلام وَفَاطِمَةَ عليها السلام: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾﴾.

حدثنا ابن وكيع، قال: ثنا محمد بن بشر، عن زكريا، عن مصعب ابن شيبة، عن صفية بنت شيبة قالت: قالت عائشة: خرج النبي ﷺ، وعليه مرط مرجل من شعر أسود، فجاء الحسن، فأدخله معه ثم قال: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾﴾.

حدثنا ابن وكيع، قال: ثنا محمد بن بكر، عن حماد بن سلمة، عن علي بن زيد، عن أنس أن النبي ﷺ كان يمر ببيت فاطمة ستة أشهر، كلما خرج إلى الصلاة فيقول: «الصَّلاةَ أَهلَ الْبَيتِ ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾﴾».

حدثني موسى بن عبد الرحمن المسروقي، قال: ثنا يحيى بن إبراهيم بن سويد النخعي، عن هلال، يعني ابن مقلاص، عن زبيد، عن شهر بن حوشب، عن أم سلمة قالت: كان النبي ﷺ عندي، وعلي وفاطمة والحسن والحسين، فجعلت لهم خزيرة، فأكلوا وناموا، وغطى

عليهم عباءة أو قطيفة، ثم قال: «اللَّهُمَّ هَؤُلاءِ أَهْلُ بَيْتِي، أَذْهِبْ عَنْهُمُ الرِّجْسَ وطَهِّرْهُمْ تَطْهِيرًا».

حدثنا ابن وكيع، قال: ثنا أبو نعيم، قال: ثنا يونس بن أبي إسحاق، قال: أخبرني أبو داود، عن أبي الحمراء، قال: رابطت المدينة سبعة أشهر على عهد النبي ﷺ، قالَ: رأيت النبي ﷺ إذا طلع الفجر، جاء إلى باب علي وفاطمة، فقال: «الصَّلاةَ الصَّلاةَ» ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾﴾».

حدثني عبد الأعلى بن واصل، قال: ثنا الفضل بن دكين، قال: ثنا يونس بن أبي إسحاق، بإسناده عن النبي ﷺ مثله.

حدثني عبد الأعلى بن واصل، قال: ثنا الفضل بن دكين، قال: ثنا عبد السلام بن حرب، عن كلثوم المحاربي، عن أبي عمار، قال: إني لجالس عند واثلة بن الأسقع إذ ذكروا عليًا عليه السلام، فشتموه، فلما قاموا قال: اجلس حتى أخبرك عن هذا الذي شتموه؛ إني عند رسول الله ﷺ إذ جاءه علي وفاطمة وحسن وحسين، فألقى عليهم كساء له، ثم قال: «اللَّهُمَّ هَؤُلاءِ أَهْلُ بَيْتِي، اللَّهُمَّ أَذْهِبْ عَنهُمُ الرِّجْسَ وَطَهِّرْهُمْ تَطْهِيرًا». قلت: يا رسول الله، وأنا؟ قال: «وَأَنْتَ». قال: فوالله إنها لأوثق عملي عندي.

حدثني عبد الكريم بن أبي عمير، قال: ثنا الوليد بن مسلم، قال: ثنا أبو عمرو، قال: ثنى شداد أبو عمار قال: سمعت واثلة بن الأسقع يحدث، قال: سألت عن علي بن أبي طالب في منزله، فقالت فاطمة: قد ذهب يأتي برسول الله ﷺ إذ جاء، فدخل رسول الله ﷺ ودخلت، فجلس رسول الله ﷺ على الفراش وأجلس فاطمة عن يمينه وعليًا عن يساره وحسناً وحسيناً بين يديه، فلفّ عليهم بثوبه وقال: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾﴾ اللَّهُمَّ هَؤُلاءِ أَهْلِي، اللَّهُمَّ أَهْلِي أَحَقُّ». قال واثلة: فقلت من ناحية البيت: وأنا يا رسول الله

من أهلك؟ قال: «وَأَنتَ مِنْ أَهْلِي». قال واثلة: إنها لمن أرجى ما أرتجي.

حدثني أبو كريب، قال: ثنا وكيع، عن عبد الحميد بن بهرام، عن شهر بن حوشب، عن فضيل بن مرزوق، عن عطية، عن أبي سعيد الخدري، عن أم سلمة قالت: لما نزلت هذه الآية: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ۝٣٣﴾ دعا رسول الله ﷺ عليًا وفاطمة وحسنًا وحسينًا، فجلل عليهم كساءً خيبرياً، فقال: «اللَّهُمَّ هَؤُلاءِ أَهْلُ بَيْتِي، اللَّهُمَّ أَذْهِبْ عَنهُمُ الرِّجْسَ وَطَهِّرْهُمْ تَطْهِيرًا». قالت أم سلمة: ألست منهم؟ قال: «أَنتِ إِلَى خَيْرٍ».

حدثنا أبو كريب، قال: ثنا مصعب بن المقدام، قال: ثنا سعيد بن زربي، عن محمد بن سيرين، عن أبي هريرة، عن أم سلمة قالت: جاءت فاطمة إلى رسول الله ﷺ ببرمة لها قد صنعت فيها عصيدة تحلها على طبق، فوضعته بين يديه، فقال: «أَيْنَ ابْنُ عَمِّكِ وَابْنَاكِ؟» فقالت: في البيت، فقال: «ادْعِيهِمْ». فجاءت إلى علي فقالت: أجب النبي ﷺ أنت وابناك، قالت أم سلمة: فلما رآهم مقبلين مد يده إلى كساء كان على المنامة فمده وبسطه وأجلسهم عليه، ثم أخذ بأطراف الكساء الأربعة بشماله فضمه فوق رؤوسهم وأومأ بيده اليمنى إلى ربه، فقال: «هَؤُلاءِ أَهْلُ الْبَيْتِ، فَأَذْهِبْ عَنهُمُ الرِّجْسَ وَطَهِّرْهُمْ تَطْهِيرًا».

حدثنا أبو كريب، قال: ثنا حسن بن عطية، قال: ثنا فضيل بن مرزوق، عن عطية، عن أبي سعيد، عن أم سلمة؛ زوج النبي ﷺ أن هذه الآية نزلت في بيتها ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ۝٣٣﴾ قالت: وأنا جالسة على باب البيت، فقلت: أنا يا رسول الله ألست من أهل البيت؟ قال: «إِنَّكِ إِلَى خَيْرٍ، أَنتِ مِنْ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ». قالت: وفي البيت رسول الله ﷺ وعلي وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام حدثنا أبو كريب، قال: ثنا خالد بن مخلد، قال: ثنا موسى بن يعقوب، قال: ثنى هاشم بن هاشم بن عتبة بن أبي وقاص، عن

عبد الله بن وهب بن زمعة، قال: أخبرني أم سلمة أن رسول الله ﷺ جمع عليًا والحسنين، ثم أدخلهم تحت ثوبه، ثم جأر إلى الله، ثم قال: «هَؤُلاءِ أَهْلُ بَيْتِي». فقالت أم سلمة: يا رسول الله أدخلني معهم. قال: «إِنَّكِ مِنْ أَهْلِي».

حدثني أحمد بن محمد الطوسي، قال: ثنا عبد الرحمن بن صالح، قال: ثنا محمد بن سليمان الأصبهاني، عن يحيى بن عبيد المكي، عن عطاء، عن عمر بن أبي سلمة، قال: نزلت هذه الآية على النبي ﷺ وهو في بيت أم سلمة ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾﴾ فدعا حسناً وحسيناً وفاطمة فأجلسهم بين يديه، ودعا عليًا فأجلسه خلفه، فتجلل هو وهم بالكساء ثم قال: «هَؤُلاءِ أَهْلُ بَيْتِي، فَأَذْهِبْ عَنهُمُ الرِّجْسَ وَطَهِّرْهُمْ تَطْهِيرًا». قالت أم سلمة: أنا معهم مكانك، وأنت على خير.

حدثني محمد بن عمارة، قال: ثنا إسماعيل بن أبان، قال: ثنا الصباح بن يحيى المري، عن السدي، عن أَبي الديلم، قال: قال علي بن الحسين لرجل من أهل الشام: أما قرأت في الأحزاب ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾﴾ قال: ولأنتم هم؟ قال: نعم.

حدثنا ابن المثنى، قال: ثنا أبو بكر الحنفي، قال: ثنا بكير بن مسمار، قال: سمعت عامر بن سعد، قال: قال سعد: قال رسول الله ﷺ حين نزل عليه الوحي، فأخذ عليًا وابنيه وفاطمة، وأدخلهم تحت ثوبه، ثم قالَ: «رَبِّ هَؤُلاءِ أَهْلِي وَأَهْلُ بَيْتِي».

حدثنا ابن حميد، قال: ثنا عبد الله بن عبد القدوس، عن الأعمش، عن حكيم بن سعد، قال: ذكرنا علي بن أبي طالب عليه السلام عند أم سلمة قالت: فيه نزلت: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ

﴿وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾﴾. قالت أم سلمة: جاء النبي ﷺ إلى بيتي فقال: «لا تَأْذَنِي لأحَدٍ». فجاءت فاطمة، فلم أستطع أن أحجبها عن أبيها، ثم جاء الحسن، فلم أستطع أن أمنعه أن يدخل على جده وأمه، وجاء الحسين، فلم أستطع أن أحجبه، فاجتمعوا حول النبي ﷺ على بساط، فجللهم نبي الله بكساء كان عليه، ثم قال: «هَؤُلاءِ أَهْلُ بَيْتِي، فَأَذْهِبْ عَنهُمُ الرِّجْسَ وَطَهِّرْهُمْ تَطْهِيرًا»؛ فنزلت هذه الآية حين اجتمعوا على البساط، قالت: فقلت: يا رسول الله وأنا؟ قالت: فوالله ما أنعم وقال: «إِنَّكِ عَلَى خَيْرٍ».

ونزيدك سيدي عمارة شهادة من ابن كثير:

الحديث الأول: قال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا حماد، أخبرنا علي بن زيد، عن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: إن رسول الله ﷺ كان يمر بباب فاطمة ستة أشهر إذا خرج إلى صلاة الفجر يقول: «الصلاة يا أهل البيت، ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾».

ورواه الترمذي، عن عبد بن حميد، عن عفان به. وقال: حسن غريب.

حديث آخر: قال ابن جرير: حدثنا ابن وَكِيع، حدثنا أبو نعيم، حدثنا يونس بن أبي إسحاق، أخبرني أبو داود، عن أبي الحمراء قال: رابطت المدينة سبعة أشهر على عهد رسول الله ﷺ، [قال: رأيت رسول الله ﷺ] إذا طلع الفجر، جاء إلى باب علي وفاطمة فقال: «الصلاة الصلاة ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾».

أبو داود الأعمى هو: نفيع بن الحارث، كذاب

حديث آخر: وقال الإمام أحمد أيضاً: حدثنا محمد بن مصعب، حدثنا الأوزاعي، حدثنا شداد أبو عمار قال: دخلت على واثلة بن الأسقع

وعنده قوم، فذكروا عليًا عليه السلام، فلما قاموا قال لي: ألا أخبرك بما رأيت من رسول الله ﷺ؟ قلت: بلى. قال: أتيت فاطمة أسألها عن علي فقالت: تَوَجه إلى رسول الله ﷺ، فجلست أنتظره حتى جاء رسول الله ﷺ، ومعه علي وحسن وحسين، آخذ كل واحد منهما بيده حتى دخل، فأدنى عليًا وفاطمة وأجلسهما بين يديه، وأجلس حسنًا وحسينًا كل واحد منهما على فخذه، ثم لفَّ عليهم ثوبه ـ أو قال: كساءه ـ ثم تلا هذه الآية: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرًا﴾، اللهم هؤلاء أهل بيتي، وأهل بيتي أحق»، وقد رواه أبو جعفر بن جرير عن عبد الكريم بن أبي عمير، عن الوليد بن مسلم، عن أبي عمرو الأوزاعي بسنده نحوه ـ زاد في آخره: قال واثلة: فقلت: وأنا يا رسول الله ـ صلى الله عليك ـ من أهلك؟ قال: «وأنت من أهلي» قال واثلة: إنها من أرجى ما أرتجي.

ثم رواه أيضاً عن عبد الأعلى بن واصل، عن الفضل بن دُكَين، عن عبد السلام بن حرب، عن كلثوم المحاربي، عن شداد أبي عمار قال: إني لجالس عند واثلة بن الأسقع إذ ذكروا عليًا فشتموه، فلما قاموا قال: اجلس حتى أخبرك عن الذي شتموه، إني عند رسول الله ﷺ إذ جاء علي وفاطمة وحسن وحسين فألقى ﷺ عليهم كساء له، ثم قال: «اللهم هؤلاء أهل بيتي، اللهم أذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً». قلت: يا رسول الله، وأنا؟ قال: «وأنت» قال: فوالله إنها لأوثق عملي عندي.

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الله بن نمير، حدثنا عبد الملك بن أبي سليمان، عن عطاء بن أبي رباح، حدثني من سمع أم سلمة تذكر أن النبي ﷺ كان في بيتها، فأتته فاطمة عليها السلام، ببرمة فيها خَزيرة، فدخلت بها عليه فقال لها: «ادعي زوجك وابنيك». قالت: فجاء علي وحسن وحسين فدخلوا عليه، فجلسوا يأكلون من تلك الخزيرة، وهو على منامةٍ له على دكان تحته كساء خيبري، قالت: وأنا في الحجرة أصلي،

فأنزل الله، ﷻ، هذه الآية: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ . قالت: فأخذ فضل الكساء فغطاهم به، ثم أخرج يده نألوى بها إلى السماء، ثم قال: «اللهم هؤلاء أهل بيتي وخاصتي، فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً»، قالت: فأدخلت رأسي البيت، فقلت: وأنا معكم يا رسول الله؟ فقال: «إنك إلى خير، إنك إلى خير».

في إسناده من لم يسم، وهو شيخ عطاء، وبقية رجاله ثقات.

طريق آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا عوف، عن أبي المعدل، عن عطية الطُّفَاوِيّ، عن أبيه؛ أن أم سلمة حدثته قالت: بينما رسول الله ﷺ في بيتي يومًا إذ قال الخادم: إن فاطمة وعليًا بالسدّة قالت: فقال لي: «قومي فَتَنَحي عن أهل بيتي». قالت: فقمت فتنحيت في البيت قريبًا، فدخل علي وفاطمة، ومعهما الحسن والحسين، وهما صبيان صغيران، فأخذ الصبيين فوضعهما في حجره فقبَّلهما، واعتنق عليًا بإحدى يديه وفاطمة باليد الأخرى، وقَبَّل فاطمة وقَبَّل عليًا، وأغدق عليهم خَميصَة سوداء وقال: «اللهم، إليك لا إلى النار أنا وأهل بيتي». قالت: فقلت: وأنا يا رسول الله صلى الله عليك؟ قال: «وأنت».

طريق آخر: قال ابن جرير: حدثنا أبو كُرَيب، حدثنا [الحسن بن عطية، حدثنا] فضيل بن مرزوق، عن عطية، عن أبي سعيد، عن أم سلمة؛ أن هذه الآية نزلت في بيتها: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ قالت: وأنا جالسة على باب البيت فقلت: يا رسول الله، ألستُ من أهل البيت؟ فقال: «إنك إلى خير، أنت من أزواج النبي ﷺ» قالت: وفي البيت رسول الله ﷺ، وعلي، وفاطمة، والحسن، والحسين عليهم السلام.

طريق آخر: رواه ابن جرير أيضاً، عن أبي كُرَيب، عن وَكِيع، عن عبد الحميد بن بَهرَام، عن شَهر بن حَوشَب، عن أم سلمة بنحوه.

طريق آخر: قال ابن جرير: حدثنا أبو كُرَيب، حدثنا خالد بن مَخْلَد، حدثني موسى بن يعقوب، حدثني هاشم بن هاشم بن عتبة بن أبي وقاص، عن عبد الله بن وهب بن زَمْعَة قال: أخبرتني أم سلمة ﵂، أن رسول الله ﷺ جمع فاطمة والحسن والحسين، ثم أدخلهم تحت ثوبه، ثم جأر إلى الله ﷿، ثم قال: «هؤلاء أهل بيتي». قالت أم سلمة: فقلت: يا رسول الله، أدخلني معهم. فقال: «أنت من أهلي».

طريق آخر: رواه ابن جرير أيضاً، عن أحمد بن محمد الطوسي، عن عبد الرحمن بن صالح، عن محمد بن سليمان الأصبهاني، عن يحيى ابن عبيد المكي، عن عطاء،عن عمر بن أبي سلمة، عن أمه بنحو ذلك.

طريق آخر: قال ابن جرير: حدثنا أبو كُرَيب، حدثنا مصعب بن المقدام، حدثنا سعيد بن زربي، عن محمد بن سيرين، عن أبي هريرة، عن أم سلمة قالت: جاءت فاطمة إلى رسول الله ﷺ ببرمة لها قد صنعت فيها عَصيدَة تحملها على طبق، فوضعتها بين يديه فقال: «أين ابن عمك وابناك؟» فقالت: في البيت. فقال: «ادعيهم». فجاءت إلى علي فقالت: أجِبْ رسول الله أنت وابناك. قالت أم سلمة: فلما رآهم مقبلين مدَّ يده إلى كساء كان على المنامة، فمده وبسطه، وأجلسهم عليه، ثم أخذ بأطراف الكساء الأربعة بشماله، فضمه فوق رؤوسهم، وأومأ بيده اليمنى إلى ربه ﷿، فقال: «اللهم، هؤلاء أهل بيتي، فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً».

طريق آخر: قال ابن جرير: حدثنا ابن حميد، حدثنا عبد الله بن عبد القدوس، عن الأعمش، عن حكيم بن سعد قال: ذكرنا علي بن أبي طالب عند أم سلمة، فقالت: في بيتي نزلت: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ . قالت أم سلمة: جاء رسول الله ﷺ إلى بيتي فقال: «لا تأذني لأحد». فجاءت فاطمة فلم أستطع أن أحجبها عن أبيها. ثم جاء الحسن فلم أستطع أن أحجبه عن أمه وجده،

ثم جاء الحسين فلم أستطع أن أحجبه، ثم جاء علي فلم أستطع أن أحجبه، فاجتمعوا فَجَلّلهم رسول الله ﷺ بكساء كان عليه، ثم قال: «هؤلاء أهل بيتي، فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً». فنزلت هذه الآية حين اجتمعوا على البساط. قالت: فقلت: يا رسول الله، وأنا؟ قالت: فوالله ما أنعم، وقال: «إنك إلى خير».

حديث آخر: قال ابن جرير، حدثنا ابن وَكِيع، حدثنا محمد بن بشر عن زكريا، عن مصعب بن شيبة، عن صفية بنت شيبة قالت: قالت عائشة ﵂: خرج رسول الله ﷺ ذات غداة، وعليه مِرْط مُرَحَّل من شَعْر أسود، فجاء الحسن فأدخله معه، ثم جاء الحسين فأدخله معه، ثم جاءت فاطمة فأدخلها معه، ثم جاء علي فأدخله معه، ثم قال: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾.

ورواه مسلم عن أبي بكر بن أبي شيبة عن محمد بن بشر، به.

طريق آخر: قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا سُرَيج بن يونس أبو الحارث، حدثنا محمد بن يزيد، عن العوام ـ يعني: ابن حَوْشَب ـ عن عمٍّ له قال: دخلت مع أبي على عائشة، فسألتها عن علي ﵇، فقالت ﵂: تسألني عن رجل كان من أحب الناس إلى رسول الله ﷺ، وكانت تحته ابنته وأحب الناس إليه؟ لقد رأيت رسول الله ﷺ دعا عليًا وفاطمة وحسناً وحسيناً، فألقى عليهم ثوباً فقال: «اللهم، هؤلاء أهل بيتي، فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً». قالت: فدنوت منه فقلت: يا رسول الله، وأنا من أهل بيتك؟ فقال: «تَنَحَّي، فإنك على خير».

حديث آخر: قال ابن جرير حدثنا المثنى، حدثنا بكر بن يحيى بن زَبّان العَنزيّ، حدثنا منْدَل، عن الأعمش، عن عطية، عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «نزلت هذه الآية في خمسة: فيّ، وفي علي،

وحسن، وحسين، وفاطمة: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ .

قد تقدم أن فضيل بن مرزوق رواه عن عطية، عن أبي سعيد، عن أم سلمة، كما تقدم.

وروى ابن أبي حاتم من حديث هارون بن سعد العِجْلي، عن عطية، عن أبي سعيد موقوفاً، فالله أعلم.

حديث آخر: قال ابن جرير: حدثنا ابن المثنى، حدثنا أبو بكر الحنفي، حدثنا بُكَير بن مسمار قال: سمعت عامر بن سعد قال: قال سعد: قال رسول الله ﷺ حين نزل عليه الوحي، فأخذ عليًا وابنيه وفاطمة فأدخلهم تحت ثوبه، ثم قال: «رب، هؤلاء أهلي وأهل بيتي».

حديث آخر: وقال مسلم في صحيحه: حدثني زُهَير بن حرب، وشُجاع بن مَخْلَد جميعاً، عن ابن عُلَيَّة ـ قال زهير: حدثنا إسماعيل بن إبراهيم، حدثني أبو حَيَّان، حدثني يزيد بن حَيَّان قال: انطلقت أنا وحُصَين بن سَبْرَةَ وعمر بن مسلم إلى زيد بن أرقم، فلما جلسنا إليه قال له حصين: لقد لقيتَ يا زيدُ خيرًا كثيرًا [رأيتَ رسول الله ﷺ وسمعتَ حديثه، وغزوتَ معه، وصليتَ خلفه، لقد لقيت يا زيد خيرًا كثيرًا]؛ حَدِّثنا يا زيد ما سمعت من رسول الله ﷺ. قال: يا بن أخي، والله لقد كَبرَت سِنِّي، وقدم عهدي، ونسيتُ بعض الذي كنتُ أعي من رسول الله ﷺ، فما حَدَّثتكُم فاقبلوا، وما لا فلا تُكَلِّفونيه. ثم قال: قام فينا رسول الله ﷺ يوماً خطيباً بماء يدعى خُمًّا ـ بين مكة والمدينة ـ فحمد الله وأثنى عليه، ووعظ وَذَكَّر، ثم قال: «أما بعد، ألا أيها الناس فإنما أنا بشر يوشك أن يأتي رسول ربي فأجيب، وأنا تارك فيكم ثقلين، وأولهما كتاب الله، فيه الهدى والنور، فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به». فَحَثَّ على كتاب الله وَرَغَّب فيه، ثم قال: «وأهل بيتي، أُذَكِّركم الله في أهل بيتي،

أذكِّركم الله في أهل بيتي» ثلاثاً. فقال له حصين: ومن أهل بيته يا زيد؟ أليس نساؤه من أهل بيته؟ قال: نساؤه من أهل بيته، ولكن أهل بيته من حُرِمَ الصّدَقة بعده. قال: ومَنْ هم؟ قال هم آل علي، وآل عَقِيل، وآل جعفر، وآل عباس. قال: كل هؤلاء حُرِمَ الصدقة؟ قال: نعم.

ثم رواه عن محمد بن بَكّار بن الريَّان، عن حسان بن إبراهيم، عن سعيد بن مسروق، عن يزيد بن حَيَّان، عن زيد بن أرقم، فذكر الحديث بنحو ما تقدم، وفيه: فقلنا له: مَنْ أهل بيته؟ نساؤه؟ قال: لا وايم الله، إن المرأة تكون مع الرجل العصر من الدهر ثم يطلقها فترجع إلى أبيها وقومها. أهل بيته أصله وعَصبَته الذين حُرموا الصدقة بعده.

وهذه سيدية عمارة من الدر المنثور:

«أخرج الطبراني عن أم سلمة رضي الله عنها قالت: جاءت فاطمة عليها السلام إلى أبيها بثريدة لها، تحملها في طبق لها حتى وضعتها بين يديه. فقال لها «أين ابن عمك؟ قالت: هو في البيت. قال: اذهبي فادعيه وابنيك، فجاءت تقود ابنيها كل واحد منهما في يد وعلي عليه السلام يمشي في أثرهما حتى دخلوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأجلسهما في حجره، وجلس علي عليه السلام عن يمينه، وجلست فاطمة عليها السلام عن يساره، قالت أم سلمة رضي الله عنها: فأخذت من تحتي كساء كان بساطنا على المنامة في البيت».

وأخرج الطبراني عن أم سلمة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لفاطمة عليها السلام «ائتني بزوجك وابنيه، فجاءت بهم، فألقى رسول الله صلى الله عليه وسلم عليهم كساءً فدكيًا، ثم وضع يده عليهم، ثم قال: اللهم إن هؤلاء أهل محمد ـ وفي لفظ آل محمد ـ فاجعل صلواتك وبركاتك على آل محمد كما جعلتها على آل إبراهيم إنك حميد مجيد. قالت أم سلمة رضي الله عنها: فرفعت الكساء لأدخل معهم، فجذبه من يدي وقال إنك على خير».

وأخرج ابن مردويه عن أم سلمة قالت «نزلت هذه الآية في بيتي ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ وفي البيت سبعة: جبرائيل، وميكائيل عليهما السلام، وعلي، وفاطمة، والحسن، والحسين عليهم السلام، وأنا على باب البيت، قلت: يا رسول الله ألست من أهل البيت؟ قال: إنك إلى خير، إنك من أزواج النبي ﷺ».

وأخرج ابن مردويه والخطيب عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: «كان يوم أم سلمة أم المؤمنين رضي الله عنها، فنزل جبرائيل عليه السلام على رسول الله ﷺ بهذه الآية ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ قال: فدعا رسول الله ﷺ بحسن، وحسين، وفاطمة، وعلي، فضمهم إليه، ونشر عليهم الثوب. والحجاب على أم سلمة مضروب، ثم قال: اللهم هؤلاء أهل بيتي، اللهم اذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً. قالت أم سلمة رضي الله عنها: فأنا معهم يا نبي الله؟ قالت: أنت على مكانك، وإنك على خير».

وأخرج الترمذي وصححه وابن جرير وابن المنذر والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في سننه من طرق عن أم سلمة رضي الله عنها قالت:

«في بيتي نزلت ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾ وفي البيت فاطمة، وعلي، والحسن، والحسين. فجللهم رسول الله ﷺ بكساء كان عليه، ثم قال: هؤلاء أهل بيتي فأذهب عنهم الرجس، وطهرهم تطهيراً».

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم والطبراني عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «نزلت هذه الآية في خمسة: فيّ، وفي علي، وفاطمة، وحسن، وحسين، ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾».

وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد ومسلم وابن جرير وابن أبي حاتم

والحاكم عن عائشة رضي الله عنها قالت: خرج رسول الله ﷺ غداة، وعليه مرط مرجل من شعر أسود، فجاء الحسن والحسين عليهما السلام، فأدخلهما معه، ثم جاء علي فأدخله معه، ثم قال ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾.

وأخرج ابن جرير والحاكم وابن مردويه عن سعد قال: «نزل على رسول الله ﷺ الوحي، فأدخل علياً، وفاطمة، وابنيهما تحت ثوبه، ثم قال اللهم هؤلاء أهلي، وأهل بيتي».

وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني والحاكم وصححه والبيهقي في سننه عن واثلة بن الأسقع رضي الله عنه قال: «جاء رسول الله ﷺ إلى فاطمة، ومعه حسن، وحسين، وعلي، حتى دخل، فأدنى علياً، وفاطمة، فأجلسهما بين يديه، وأجلس حسناً، وحسيناً. كل واحد منهما على فخذه، ثم لف عليهم ثوبه وأنا مستدبرهم، ثم تلا هذه الآية ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾».

وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد والترمذي وحسنه وابن جرير وابن المنذر والطبراني والحاكم وصححه وابن مردويه عن أنس رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ كان يمر بباب فاطمة عليها السلام إذا خرج إلى صلاة الفجر ويقول: «الصلاة يا أهل البيت الصلاة ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾».

وأخرج مسلم عن زيد بن أرقم رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «أذكركم الله في أهل بيتي، فقيل لزيد رضي الله عنه: ومن أهل بيته، أليس نساؤه من أهل بيته؟ قال: نساؤه من أهل بيته، ولكن أهل بيته من حرم الصدقة بعده آل علي، وآل عقيل، وآل جعفر، وآل عباس».

وأخرج الحكيم والترمذي والطبراني وابن مردويه وأبو نعيم والبيهقي

معاً في الدلائل عن ابن عباس ﵄ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله قسم الخلق قسمين، فجعلني في خيرهما قسماً. فذلك قوله ﴿وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ﴾ [الواقعة: ٢٧] و﴿أَصۡحَٰبُ ٱلشِّمَالِ﴾ [الواقعة ٤١] فأنا من أصحاب اليمين، وأنا خير أصحاب اليمين، ثم جعل القسمين أثلاثاً، فجعلني في خيرها ثلثاً، فذلك قوله ﴿فَأَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ ۝٨ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ ۝٩ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝١٠﴾ [الواقعة ٨ - ١٠] فأنا من السابقين، وأنا خير السابقين، ثم جعل الأثلاث قبائل، فجعلني في خيرها قبيلة، وذلك قوله ﴿وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ﴾ [الحجرات: ١٣] وأنا أتقى ولد آدم، وأكرمهم على الله تعالى ولا فخر. ثم جعل القبائل بيوتاً، فجعلني في خيرها بيتاً، فذلك قوله ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرٗا﴾ فأنا وأهل بيتي مطهرون من الذنوب».

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة ﵁ في قوله ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرٗا﴾ قال: هم أهل بيت طهرهم الله من السوء، واختصهم برحمته قال: وحدث الضحاك بن مزاحم ﵁، أن نبي الله ﷺ كان يقول: «نحن أهل بيت طهرهم الله من شجرة النبوة، وموضع الرسالة، ومختلف الملائكة، وبيت الرحمة، ومعدن العلم».

وأخرج ابن مردويه عن أبي سعيد الخدري ﵁ قال: لما دخل علي ﵇ بفاطمة ﵇. جاء النبي ﷺ أربعين صباحاً إلى بابها يقول «السلام عليكم أهل البيت ورحمة الله وبركاته، الصلاة رحمكم الله ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرٗا﴾ أنا حرب لمن حاربتم، أنا سلم لمن سالمتم».

وأخرج ابن جرير وابن مردويه عن أبي الحمراء ﵁ قال: «حفظت من رسول الله ﷺ ثمانية أشهر بالمدينة. ليس من مرة يخرج إلى صلاة الغداة إلا أتى إلى باب علي ﵇، فوضع يده على جنبتي الباب، ثم قال:

الـصـلاة... الـصـلاة ...﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾».

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس ﷺ قال: «شهدنا رسول الله ﷺ تسعة أشهر، يأتي كل يوم باب علي بن أبي طالب عليه السلام عند وقت كل صلاة فيقول: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته أهل البيت ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ الصلاة رحمكم الله، كل يوم خمس مرات».

وأخرج الطبراني عن أبي الحمراء ﷺ قال: رأيت رسول الله ﷺ يأتي باب علي، وفاطمة ستة أشهر فيقول ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ .

أخرج عبد الرزاق وابن سعد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عـن قـتـادة ﷺ فـي قـولـه ﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ﴾ قال: القرآن، والسنة، عتب عليهن بذلك.

وأخرج ابن سعد عن أبي أمامة بن سهل ﷺ في قوله ﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ﴾ قـال: كـان رسـول الله ﷺ يصلي عند بيوت أزواجه النوافل بالليل والنهار. حتى ابن تيمية في الفتاوى الكبرى لم ينف أن المقصود من أهل بيته خصوص أهل الكساء. يقول «مَسْأَلَةٌ: فِي رَجُلٍ قَالَ فِي عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ عليه السلام إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِ الْبَيْتِ وَلاَ تَجُوزُ الصَّلاَةُ عَلَيْهِ، وَالصَّلاَةُ عَلَيْهِ بِدْعَةٌ؟» الْجَوَابُ: أَمَّا كَوْنُ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ مِنْ أَهْلِ الْبَيْتِ، فَهَذَا مِمَّا لاَ خِلاَفَ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ فِيهِ، وَهُوَ أَظْهَرُ عِنْدَ الْمُسْلِمِينَ مِنْ أَنْ يَحْتَاجَ إِلَى دَلِيلٍ، بَلْ هُوَ أَفْضَلُ أَهْلِ الْبَيْتِ، وَأَفْضَلُ بَنِي هَاشِمٍ بَعْدَ النَّبِيِّ ﷺ وَقَدْ ثَبَتَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ «أَنَّهُ أَدَارَ كِسَاءَهُ عَلَى عَلِيٍّ وَفَاطِمَةَ وَحَسَنٍ وَحُسَيْنٍ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ هَؤُلاَءِ أَهْلُ بَيْتِي فَأَذْهِبْ الرِّجْسَ عَنْهُمْ وَطَهِّرْهُمْ تَطْهِيرًا».

هذه مجرد عينات. ولسنا في وارد الاستقصاء. ولا في وارد الشرح والتعليق، حيث ما فيها يؤكد على أن الأمر ليس بالبساطة التي ساق بها عمارة رأيه ومحاولته العبثية لصرف آية التطهير عن خصوص أهل البيت الذين شملهم الكساء، وليس مطلق أهله وزوجاته ولا حتى عشيرته بالمعنى العام، لمقام المخصص، والحديث ها هنا يطول ويمكن أن يرجع إليه في محله، ولا يخفى علينا من أمر تلك المحاولات الفاشلة التي قام بها البعض بعد أن حاول الجمع بين أحاديث شاذة تدخل الأزواج في آية التطهير وأخرى تعينه في أصحاب الكساء، وذلك في محاولة مغالطة للجمع، ولا ندري هل ثمَّة جمع عرفي أحكم من أن نقول بالتخصيص، ونجعل ذلك معياراً لفضح ما جعل من أخبار يشتم منها أنها محاولة لتمييع آية التطهير، ماذا سنفعل بهذا الكمّ الهائل من النصوص الصحيحة الصريحة في تعيين المعني بالتطهير وتحديد أسباب النزول. وكيف نتحدث عن الجمع في المقام وقد كفانا حديث أم سلمة في استبعاد العموم وكذا استبعاد دخول الأزواج بظاهر لا يشوبه تأويل.

ولا أخال الكاتب هنا يجهل ما ورد في شأن أهل البيت، بقدر ما هي محاولة للتعمية والحجب. من هنا ـ مع افتراض أن رأيه لن يكون مقنعاً بالضرورة للجميع مع احتمال المطلعين من بين من يقصد من قرائه ـ حاول أن يبقي على شعرة معاوية في هذا الجدل البيزنطي، حينما قرر:

«وحتى إذا سلمنا جدلاً بأن نسل فاطمة من الإمام عليّ كرم الله وجهه هم أهل البيت.. فإن أهل السنَّة أشدّ حبًّا لهذا النَّسل من أي فريق آخر.. ولنأخذ أهل مصر على سبيل المثال.. إن أكثر الأسماء شيوعاً في مصر هي أسماء أهل البيت علي وحسن وحسين وفاطمة وزينب وخديجة ـ فضلاً عن محمد ـ ولن تجد في مصر واحداً اسمه معاوية!

ولقد أقامت مصر المزارات والمساجد والموالد والأحياء والميادين لعدد من أئمة أهل البيت حتى الذين لم يدخلوا هذه البلاد! كما هو

الحال مثلاً مع زين العابدين!.. فهل هناك من ينافس أهل السنَّة في هذا الحب الذي منحوه لآل البيت؟!..».

مغالطة أخرى، أكثر هذياناً وأجهل من الجهلات الأولى. على طريقته المعتادة في سرقة إنجازات الشيعة وتقمصها، يواصل الكاتب ملحمة خرط القتاد بعناد، يتحدث عن مصر وعن ثقافة الأسماء وعن المزارات، وإذا كنا لا ندري في أي حال كتب عمارة مقالته وهل كان بعضاً من العقل لا يزال معه، فإن ما يثير الشفقة على هذه الأمية التاريخية، هو أن عمارة نسي أن من ها هنا مرت دولة الفاطميين العظمى التي بنت الأزهر وفي ظلِّ وجودها ترسخت هذه الثقافة الشيعية في الأسماء والمزارات. هذه بقايا وآثار الوجود الشيعي في مصر الفاطمية وليس موضوعاً يصلح للمزايدة فيه على الشيعة. أي درك هذا ينزلنا إليه عمارة وهو يغالط في المسلمات التاريخية.

كان هدف عمارة من كل هذا التغليط بلوغ نهاية سيئة هي:

«إذن لم يبق لدى الشيعة ما يتميزون به في هذا المقام ـ سوى سب صحابة رسول الله ـ ﷺ ـ بعد أن سقط اختصاصهم بحب آل البيت!..».

في ضوء هذه النتيجة نفهم ونتفهم المحاولة العبثية العماراتية، أن الشيعة ليسوا على شيء، وليس في جعبتهم سوى سب الصحابة، وهو لهذا يعود فيلبس ثوب العقلانية ويستعيد عافيته بعد نقاش جنوني ومرضي، على طريقته الديماغوجية المعتادة ليقول ممسكاً بعصا الحكيم الذي خانه منطقه:

«أم أننا بحاجة إلى إعمال العقل في هذا الفكر الذي قسم الأمة ولا يزال يقسمها ويفتح في جسمها الثغرات التي ينفذ منها الأعداء؟!».

على طول النقاش البزنطي غاب عقل عمارة ولم يستنجد بالتحقيق، لينهي كلامه بنداء العقل: عليكم أن تعقلوا وتكفوا أن تكونوا شيعة. ولأن

الإسلام إما أن يكون سنيًا أو لا يكون. هذا هو عربون التقريب والوحدة والاعتراف بالآخر. منطق لستم على شيء. نتساءل بدورنا ماذا بقي لعمارة من مصداقية بعد هذا التدحرج في منحدر الطائفية ومغالطاتها. أما السؤال/الجواب فهو: ماذا سيبقى للأمة إذا شطبنا على إنجازات الشيعة من تاريخنا الإسلامي؟! والجواب الآخر: بلى يا سيدي عمارة، كفى تغليطاً ومكابرة.. وكفى ضحكاً على الذقون وتمثلاً لتلبيس إبليس.. لقد بقي الكثير الكثير، فهل أنتم مبصرون..

ما أوقح هذا الكلام!
هكذا تكلم سفيه الفلاسفة وفيلسوف السفهاء

- رد على مقال أبي يعرب المرزوقي المعنون: «الكأس فاضت: مع عنتريات حسن نصر الله»

لعل واحدة من أنكر الدعاوى التي تطالعنا اليوم بأبهى لبوسها المخادع، التموقف السلبي من الفتنة، ونقصد بذلك مواقف معروفة تزعم أن تاريخ الأمة هو تاريخ فتن من فوقها فتن إن أخرجت يدك لن تكد تراها، وعليه تعين الانسحاب والانزواء وإخفاء الحق ما ظهر منه وما بطن، والحق أن هذا الموقف لا يقل خطورة عن مواقف الفتانين الذين يزيدون الحقائق حجباً ويملؤون الدنيا شبهات ومغالطات، حتى باتوا رموز الفتنة ودهاقنتها، في حين كان المطلوب في الفتن أن لا تزيد الطين بلة ولا تسرف حيث يجب أن لا تكون ضرعاً يحلب أو ظهراً يركب.،لكن بما أن الفتنة هي امتحان تنصهر فيه الإرادات الكبرى فيلمع معدنها النفيس وينكشف فيها خور الإرادات الصغرى والنفوس المريضة فيخبو وهجها الزائف، كان لا بدّ للعالم أن يظهر علمه، ويناضل من أجل دحض حركة التزييف والتغليط. واليوم ها نحن نخوض غمار فتنة حقيقية تبدأ من اجتماعنا المتشظي حتى خطابنا المتردي. حيث فيها ظهر ما ظهر، وفيها من فشل في الامتحان الصعب وآخرون نجحوا بتفوق، وفي اعتقادي أن لا فشل أكبر ممن فشل

بعد أن تحقق نصر المقاومة اللبنانية على العدو في حرب عدوانية مدمرة. لا فشل أنكر ممن فسد ضميره إلى حدّ الوقاحة في تجريم المقاومة والتطاول على سيدها البطل، لسنا سذجاً كما قد يتراءى لبعض هؤلاء المرضى الذين أصبحوا كمالك الحزين الأعور الذي يحب أن يركب فوق عينيه نظارات سوداء مع بعض الكسور المشوهة للرؤية ويتمثل لغة الحكيم المزيف لمعالجة أدواء العقول والقلوب وهو الأخرب، وأحياناً لا ندري أي نوع من أنواع حكماء الحيوانات المصابة بالطاعون التي أتحفنا بها لافونتين، هؤلاء الذين اختاروا نظرية المؤامرة طريقاً أخصر لتركيب تهافتهم السياسي الذي تجاوزه وعي الشارع العربي حينما عبر عن وعيه وإحساسه الصادق طيلة ٣٣ يوماً من ملحمة الكرامة، الجماهير المسلمة مسكينة حتى أنها تنسى بسهولة غريزتها الطائفية قبل أن تذكرهم بها نخب السوء.

هذا الكلام أقل ما يقال في كاتب ازداد حنقاً واستبدت به الكراهية مذ انتصرت المقاومة وكذبت كل التوقعات التي تعالم بها نظراءه والقراءات الصبيانية التي تعنتروا بها تعالماً في التجريد حيث تعنتر سيد المقاومة بعد أن سطرها حقيقة تجبه مغالطاتهم وتصحح أغاليطهم، حيث كشفت كم هم أبعد الناس من أن يمتلكوا رؤية سياسية أو استراتيجية بعد كل هزائمهم المنكرة في الفكر كما في السياسة بل حتى في توقع الأشياء. ولهذا السبب وحتى لا تبصق الجماهير في وجوههم المنكرة فضلوا الصمت طيلة الحرب ليخرجوا علينا بعدها بوقاحة سافرة، سبق وكتب أبو يعرب المرزوقي مقالاً تحت عنوان المسألة الشيعية: كيف يمكن علاجها؟ كان ذلك عنوان المقالة التي كتبها الدكتور أبو يعرب المرزوقي، ونشرت ضمن ما نشرت في أخبار الأدب ليوم الأحد ١١، فبراير ٢٠٠٧م العدد ٧٠٩. وحينئذٍ رددنا عليه رداً مختصراً موسوماً بـ«الرد المختصر على الخطاب المبتسر. . وقفة مع رسالة أبي يعرب المرزوقي المفتوحة إلى السيد حسن نصر الله».

لكن يبدو أن الكراهية تمكنت من سويداء قلب كاتبنا، والحقد الأعمى الذي فجره انتصار المقاومة جعله لا يرعوي ولا حتى يملك أن يرى الأشياء كما هي. يشذّ شذوذاً غريباً، ويدعو إلى الارتقاء بالعقل ـ لا ندري أي عقل يقصد ـ فإذا به يعيد إخراج التحليل نفسه الذي قاتل به الزرقاوي المدنيين العراقيين، والذي مفاده أن العدو الحقيقي للأمة العربية هو إيران وحزب الله والشيعة. بل زاد أبو يعرب دعوة فوق هذه الوقاحة: علينا أن نتحالف مع أمريكا وضمنياً مع إسرائيل لكبح العدو التاريخ للأمة العربية والإسلامية: إيران!؟

نمط الخطاب

لم نقف على رؤية واقعية أو تحليل مدهش يصلح استراتيجياً بديلة للأمة في كل ذلك الهراء البئيس الذي يمثله الكاتب في الرد على ما سماه بـ«عنتريات حسن نصر الله»، بقدر ما وقفنا على تصريف مرضي يتوسل مفارقة في الخطاب، بقدر ما يتسافل فيه النظر في مراتب السلم الحجاجي، تتعالى الوقاحة طرديًا في مراقي السلم الطائفي. ثمَّة فئة ما يخاطبها الكاتب ويطلب ودها ويعلن نفسه فارساً مفترضاً لقلب الطاولة على من تقرّب منهم وعرض بضاعته، فوجد أن ما في خياله ليس له حقيقة في الخارج، فالكيان الشيعي لا يرشي أهل الكلام ولا يمنحهم مقدار البيترودولار الذي قد يحصل عليه صيادو الجوائز الطائفيون. يجب أن لا تؤخذ أحكام الكاتب مأخذ الجد. ولي في ذلك كلام سأذكر بعضاً منه استطراداً في محله وليس كله ترفعاً عن فضح المفضوح.

الكأس فاضت وقاحة

عنون أبو يعرب المرزوقي لمقالته بـ: «الكأس فاضت: مع عنتريات حسن نصر الله».

العنوان يكفي لفضح خلفية المقالة. في زمن لا يجرؤ على التطاول على إنجازات المقاومة إلا من سفه نفسه، يعلن المرزوقي موقفه الكامل، لطرق الباب الكبير، الباب الأمريكي والإسرائيلي بعد الباب العربي. وفي زمن اصطف جميع المثقفين في خندق المقاومة، يمارس الكاتب شذوذه المعهود كي يحتل ذلك الفراغ الذي عشقه دائماً مأوى لحماقاته، ما دام اعتاد على مخالفة التيار والمزايدة على خيارات الأمة بآراء أسذج من السذاجة وخطاب أوقح من الوقاحة.

يبتدىء الكاتب كلامه بالحديث عن السبب وراء توقف الباحث عند بعض الأحداث التي تمر بها الأمة والتي من شأنها أن تخرجه عن مجال التفكير في ما أسماه ببعائد الأمور وتكرهه على الاهتمام بقرائبها. وبذلك يوهمنا الكاتب أن رعاع كلماته التي نمقها وقاحة تنطح وقاحة، هو بمثابة عابر سبيل في هذا التحليل، أو لنقل هذا التصريف العبثي لحنق مسبق ومركب نفسي ازدادت شحناته مع انتصاره ـ وإن اعتبره حتى العدو وكل بني آدم انتصاراً ـ لم يعتبره كاتبنا المكابر انتصاراً، بل هو في هذا التميز والشذوذ الغبي محض مؤامرة. والحق أن الكاتب مارس سفسطته الطائفية حتى فيما كان من أمر هذه البعائد. وليس فيما صبه صباً في مجال القرائب إلا امتداداً طبيعيًا لموقف أيديولوجي مرتبك جعل كاتبنا لا يكتب إلا مفاهيم وآراء أشبه بالمعميات، ويتمثل لغة طرزانية لا تصلح إلا للقفز فوق أشجار البراري أو دونخشوت هذه المرة يستمتع بمقارعة كل معلمة من معالم الطريق، قل لي من يفهم مقاصد أبا يعرب أقل لك من يكون!؟ فسواء كنت في حاق البعائد أو في درك القرائب، فالمعميات المرزوقية ستملأ عقلك وقلبك قيحاً، وثمّة ما هو أبشع من هذا التقسيم الساذج لاهتمامات الأمة. فالمرزوقي يعتقد أن الخوض في الحديث حول أوضاع الأمة السياسية والاستراتيجية هو من جنس قرائب الأمور، ولا ندري إن كان التحكم بمصير الأمة والعالم استراتيجيًا هو

من قرائب الأمور التي ينأى المثقف عنها وينشغل عنها ببعائدها النظرية التي لا تصنع خبزاً يقوم به المعاش ولا تصنع استقراراً يقوم به الاجتماع ولا نصراً تستعاد به كرامة الأمم.

بل إن الكاتب فيما يزعمه يدين المقاومة والمقاومين ـ معينين، لما صارت المقاومة نفسها شأناً طائفيًّا وليس إنسانيًّا عند من يتحدث عن الإنسانية وبعائدها باستثناء إنصاف الشيعة أو على الأقل احترامهم كما جاهدوا وعلموا ـ ويؤكد على أن ما سماه بعنتريات سيد المقاومة اليوم هي حائل دون تحقق نهضة، إن ابتليت بقراءتها جزافاً في هذا المتن اليعربي، سوف تصاب بصداع الرأس وتخرج من جلي الفكر وواضحه إلى لعبة المعميات اليعربية ومداشرها الشائكة وجدلها البزنطي الذي يجعلك تطرح أسئلة أجنبية على المطلوب، أو تجيب بأجوبة على أسئلة لم تطرح في سياق المطلوب من مهام العقل العربي. نهضة الكاتب الغامضة لا تكاد ترى في انتصار المقاومة إلا حائلاً حقيقيًّا في طريق تحقق النهضة، أي «الحيلولة دون الأمة وتواصل العمل النهضوي بما تؤدي إليه عنتريات الزعماء الكاذبين من نكبات تغرق الأمة في ما لا مخرج منه».

عته طائفي بإخراج أيديولوجي رديء

يزعم كاتبنا أن خطاب السيد حسن نصر الله يذكره بعنتريات ما قبل ٦٧، وما أدّى إليه ذلك من آثار مدمرة: توطيد إسرائيل باسم القضاء عليها، وحده المرزوقي يقيس هذا القياس مع الفارق ـ وهو ما يسمى عند الشيعة بقياس إبليس، حيث سيظهر بعدئذٍ أن كافة أقيسة كاتبنا هي من هذا القبيل ـ، ووحده يتذكر حيث لم يتذكر حتى كبار الاستراتيجيين العرب الذين شاركوا في تلك الحرب واعترفوا أن المقاومة ليس أنها فقط حققت ما كانوا يدركون أنه كان الطريق الوحيد لتحقيق النصر، بل

اعتبروها ملهمة لطريق يستحق أن يقتحم الجامعات الحربية للعدو، ماذا نفعل إذن سيدي. هل ندخل حرباً من دون عنتريات؟! وهل العرب يملكون دخول أي حرب دون أن يستدعوا ثقافتهم في الشجاعة والفخر، حيث بها تستنهض النفوس وتستبد طبائع الفروسية والاقتحام؟! هذا مع أن سيد المقاومة كان العربي الوحيد الذي ساس حربه الكبرى بعقلانية مشهودة وصوت خفيض حينما جدّ الجدّ. ليست عنتريات العرب ما قبل ٦٧ هي من سبب انهيار المشروع العربي ولا أدّى إلى نكسة حزيران. لئن كان ثمة من سبب ساهم ضمن مركب الأسباب الأخرى في هذه النكسة، فهو هذه العقلية التي تتذاكى وتتعاقل حيث يجب التضحية والعمل. وهو لعمري هذا الهراء الذي يهزمنا قبل أن نبادر ويوهن عزمنا قبل أن ننهض. يحتاج أمثال أبي يعرب الذين يفتلون عضلاتهم بالتعالم المغالط حيثما انفلت منهم شيطان الوقائع، أن يقرؤوا غوستاف لوبون في أروع مقاربة لمفارقة تخالف الوعي الشخصي مع الوعي الجمعي.

إن الوعي لا سيما في الحروب يتدانى لصالح محفزات لا واعية من دونها ليس فقط سنخسر الحرب، بل من دونها سنخسر النهضة نفسها لأن للنهضة موقفاً جمعياً لا واعياً يلعب فيه الوعي الدور التأسيسي صمام الأمان الضامن لسيرورة النهضة. ولكن علينا ووفق هذه المقاربة أن نؤكد على أن الروح الجمعية مع فرض تقلص منسوب الوعي لا يعني أن مواقفها بالضرورة خاطئة. فالفرد حينما ينتظم في مشروع جمعي يكون أقل تسامحاً في التعلق ببعض المواقف والآراء. لكن المواقف الجمعية تكون صائبة، حيثما كانت تصب في مشروع صحيح يتطلب مزيداً من الباعثية والتعبئة. إن كاتبنا يسعى للبحث عن أرسطو بين المحاربين وعن إيساغوجي مسطوراً في حمأة المعارك وعبثية النار والتدمير، كما يبحث عن الوعي المطلق في مربع العمليات والمقولات في الصفوف الأمامية للنزال.

لا وجود لفيلسوف أدرك فنون الحرب وأسرار الاستراتيجيا يقول

بذلك إلا وعدم صواباً. حتى بومة هيغل الذي ولع كاتبنا بالتلصص على نصوصه، لم تمنح نفسها الحق بأن تقرأ الوقائع قبل وقوعها. لكنها على الأقل تستطيع بالليل أن تحصي أحداث النهار. فيما يبدو كاتبنا لا يحسن وصف أحداث النهار حتى لو تأخر خروجه ليلاً. في مقالته السابقة حاول الكاتب الوقوف على القدرة الواقعية والعملية التي تمتعت بها المقاومة فكانت سبباً للنصر. لكنه في مقالته هذه يعزو النصر لمؤامرة أمريكية إسرائيلية إيرانية توافقية، سمحت بالنصر أن يتم بلا ردة فعل. لم يشهد الكاتب كل ذلك الدم الجنوبي والدمار في الضاحية، ليؤكد بتعالم استراتيجي صبياني بأن الأمر يتعلق بمؤامرة وتوافق سري بين أقطاب تسعى للقضاء على العرب. وبأن هذا الخطاب يسعى لرهن ـ ليس لبنان فقط ـ الوطن العربي للسياسة الإيرانية. فالتهديد بالمفاجأة الكبرى لا يفهم منه الكاتب سوى واحدة من اثنتين: استعمال سلاح للدمار الشامل أو توريط الدول العربية جملة في حرب لن يربحوها أبداً، حيث لن يسمح الحليف الغربي أن تهزم إسرائيل، ما دام أن هزيمتها معناه نهايتها.

يذكر خطاب السيد نصر الله المحلل بعنتريات ما قبل هزيمة ٦٧. ولا يخفي المرزوقي أنه بهذا التحليل ينسب نفسه من أوسع الأبواب إلى تيار الهزيمة التي هي التعبير الأخير عن نكسة ٦٧. ومحللنا لا يكاد يدرك أن شرائط التاريخ تتحرك من تحت المنطقة ومن تحت العالم. التاريخ يعيد نفسه هنا ببهلوانية، وهذا ليس غريباً على باحث خلط ولا يزال بين الأزمنة الفلسفية والسياسية. الكاتب وحده من بين جيل نكباتنا التعيسة لا يقيم بين الأزمنة مسافات موضوعية. لذا فهو يستطيع وحده أن يقرأ في خطاب المقاومة اليوم عنتريات ما قبل ٦٧. جداتنا يملكن حدًّا أدنى من هذا التمييز ـ حيث تنهض الممارسة العقلية بحسن التمييز ـ ليس في خطاب سيد المقاومة ولا أداء المقاومين إلا فعلاً وواقعاً وإنجازات.

وحده سيد المقاومة قال وصدق ـ فعل ثم قال، حارب ثم تعنتر ـ حيث ليس له كلام تخطى فعله قيد أنملة.لكن أين البصر والبصيرة حتى نستطيع مع هذا السخف والعمى القولي أن نقرأ في النصر جواباً عن كل عنتريات العرب الذين يمثل الكاتب اليوم رأيهم ويغازلهم بلكنة الهزيمة لعله يحظى بمنظر الهزيمة ويكابر متوسلاً بخيمياء من الوقاحة والمكابرة، هذه المرة تصل إلى حدِّ التغني بأنشودة الأعلام المنكسة والعقول المهزومة بعد أجمل انتصار لمقاومة لم تكذب ولم تتعنتر جزافاً، بل صنعت نصراً بحجم الحلم وتعنترت بأقل مما أنجزت واستحقت. فمن يا ترى يملك كل هذه الوقاحة إذن لكي يهزمنا حتى صباح نصرنا؟!

إن إسرائيل وجدت لتبقى، فوجب عدم مقاومتها، بل إن مقاومتها هي مسبقاً فعل متعنتر. هذا مبلغ علم كاتبنا. لكن ما يخفى عليه، أن بقاءها هو أدعى لمقاومتها. بل إن بقاءها محتلة متغطرسة بدون فعل مقاوم لن يضمن استمرارها نشازاً في جغرافيّا وجودنا فحسب، بل سيحتفظ بها رأساً في مشروع شرق أوسط جديد مستدام التمدد في جغرافيا ذلنا. تخون الكاتب معطيات التكتيك والاستراتيجيا ليفتح المجال لشطحاته بل ومكابراته فيجعل من النصر هزيمة ومؤامرة ويجعل من الهزيمة والتآمر انتصاراً وحكمة. يمضي على بياض لمواقف الهزيمة من لبنان حتى آخر محطة عربية، ويقلب ظهر المجن لصوت التحرر والاستقلال والممانعة، القصة هي صراع بين من يسعى لرهن لبنان والعرب لإيران وبين ممانعين يسعون للحؤول دون وقوعهما في لعبة الاستقطابات. وسوف يرشدنا المرزوقي إلى ما هو أحكم للسياسة العربية والموقف العربي الرسمي الذي بدا له في وضعية حكيمة، وكأنه حقًّا يسعى وباستقلال تام لرسم سياسة الانعتاق من الهيمنة. اليوم وحسب هذا الخيمياء الكاذب لابي يعرب المرزوقي يكون الموقف العربي الرسمي هو من يمثل تيار الممانعة وهو تيار التحرر والاستقلال، وما عداه من

محاولات، هي عنتريات ستجلب على الأمة وبالاً. اجتهد أبو يعرب اجتهاداً كبيراً واجترح آراء بدت له عظيمة، لكنه في الحقيقة لم يفعل سوى أن صوب الموقف العربي السلبي الذي طالما وصفه بالانحطاطي كما صوب موقف الارهابيين الذين طالما وصفهم بالغباء، في مفارقة لا تفهم إلا في الفوضى الفكرية لكاتب سفسطائي بامتياز.

ومع ذلك يعرب الكاتب عن عدم شكه «في أن استعمال هذه الاستراتيجية التي تجعل الوطن العربي كله وليس لبنان وحده رهينة لطموحات إيران ليس هو ما يراه الشعب العادي الذي يقتصر مدى رؤيته على ما تصبه في آذانه دعاية الفضائيات الشيعية التي تفسد الأديان والعقول».

مرة أخرى نحن أمام شقاوة التعميم. بل أمام أحكام قيمة تدين الآخر لمجرد السعي إلى إظهار خطابه كما يسعى كل أهل معتقد في دنيا الناس. بغض النظر عن موضوع الجودة وما شابه، لم يستثن الشيعة من أن يتحدثوا عن رأيهم بصراحة؟. لقد سعى الجميع إلى إدانة الشيعة في تقيتهم، وها هم اليوم يدينونهم في بوحهم الصريح. المسألة تبدو في منتهى الغرابة. لا شيء يرضينا في أمر الشيعة؛ تقيتهم وصراحتهم معاً. لنقل إذن إن مشكلتنا معهم هي أنطلوجية رأساً. هكذا باتت الفضائيات الشيعية، لأنها شيعية فقط، مفسدة للأديان والعقول. فهي خارج منطق كل عقل وخارج منطق كل دين. كل عقل وكل دين هو أفضل مما تعقّله الشيعة أو تعبّدوه، حالة من التبشيع تعيدنا، بل هي حتماً إعادة إخراج لأبشع أشكال الخطاب الطائفي البغيض وثقافته التي لم تقهرها معاقلات وتأملات فيلسوف زعم دائماً أنه مع العقل يدور معه حيثما دار. كان بودنا لو كان الأمر يتعلق بالنقد البناء في أجواء محكومة بالمعقولية أن يكون النقد مطلوباً لترشيد وتنضيج النظام الإعلامي العربي برمته، لكن لما يكون جوهر المشكلة طائفيًّا، لا بدّ من رفض أي حكم ما دام

محكوماً في أحسن الأحوال بقاعدة «كلمة حق يراد بها باطل»، ليست الفضائيات الشيعية التي تسعى وتحاول أن تطوّر خطابها بصور مختلفة وإرادة للاندماج في مجتمع الإعلام الذي حرم منه هؤلاء خلال فترة تاريخية ساد فيها كل خطاب إلا خطابهم. لا أحد يريد أن يفهم أو يتفهم أن الشيعة لم يجدوا لهم فسحة ليعبروا عن أنفسهم إلا خلال سنوات قليلة. وحتى اليوم ليس لهم مساحة من الحرية في الوطن العربي إلا ما كان مشروطاً ومضيقاً ومكيفاً و. . و. .

على طريقة أهل التغليط الطائفي وليس أهل التحقيق المعرفي، يواصل الكاتب رياضته المغالطية، ليحرف الحقائق ويعيد إنتاج المضمون الساذج لخطاب الزرقاويين، مفاده أن لا شيء من هذه الوقائع المكتوبة بدم الشهداء وتضحياتهم سوى فانتازيا ممسرحة تسعى أطراف معينة لتخدير الرأي العام بها، فيما الأخاديد تحفر من الجهة الأخرى لتجعل في نهاية المطاف، المقاومة وحلفاءها الاستراتيجيين، نشطاء يتصرفون بالرايموت كونترل الأمريكي والإسرائيلي. يا جدتي ليتك تقدمي دروساً في الاستراتيجيا لهؤلاء المتعالمين المتحامقين في فوضانا السياسية. لكنها البهللة في أسوأ إخراج ما دام في نظر الكاتب أن الوعي العربي منحطّ إلى درجة لا يعدم وجود من يصدق بهذه الحماقات لبهاليل السياسة ومستهلكي خردتها في سوق أكباش التآمر والمؤامرة. لا غرابة أنك تجد الخيط الناظم لكل هذا التحليل المرضي، هو نظرية المؤامرة في متخيل فقير وعاجز عن الاعتراف. فلا تتعجب حينما تسمع جبلاً من التفلسف يلد فأراً معتوهاً من التحليل السياسي. يقول المرزوقي: «لكني لم أكن أتصور زعيماً يزعمون أنه لا يكذب يزعم أن نصره الأخير هو الذي أنقذ المنطقة من التفتيت وليست المقاومة العراقية (التي هي تكفيرية في أدبياته=إرهابية عند حلفائه الحقيقيين أي الأمريكان) والفلسطينية (التي هي جبة عثمان في دعايته وليست قضية الأمة! (. . .) لا غرابة عندئذٍ أن

يلجأ مثل هؤلاء الزعماء في دجلهم إلى الاستراتيجيات التي تؤسس سلطانهم على تعمية البصائر روحيًا فتفسد الدين وتعميتها عقليًا فتفسد السياسة: العداء الأسود لرموز التاريخ الإسلامي الوسيط والحالي وتمريره بالعنترية الكاذبة ضدّ عدو يثبتون عليه اهتمام العرب لمنعهم من إدراك أمرين: الحلف الخفي بين هذا العدو وأصحاب العنتريات والبدائل الممكنة لتحقيق شروط الغلبة على العدو حصراً للعمل في ما يقترحونه هم من توجهات تحقق أهداف إيران لا أهداف العرب».

في جذر هذا الكلام كما لا يخفى روح طائفية خبيثة. تمارس شطحاً من الكراهية، وتعود كل مرة في تحليلها للاستقواء بنفس طائفي تفتعله لجبر هشاشة منظورها السياسي والاستراتيجي. وهذا أمر ما أقبحه لما يصدر عن شخص ينتمي للدرس الفلسفي ويا ما زعم أنه ينتمي أيضاً للدرس المنطقي. إنه يتهكم على من يزعم أنه شخص لا يكذب ويقصد طبعاً سيد المقاومة الذي غدا عقدة في صدر أبي يعرب المرزوقي، كما لو كان يحسد الناس على ما أتاهم الله من فضل، فيصعب عليه الاعتراف بما اعترف به فواعل نظام العدو أنفسهم. لا أحد اليوم يستطيع أن يمارس هذا التهكم السوداوي في حق شخص لم يعد يخفى حتى يعلمنا أبو يعرب تعالماً سخيفاً، من يكون، إلا كاتبنا الغريب الأطوار. تتمطط الوقاحة رغماً عنها حيث أحياناً يمنحها الكاتب من كيسه بعضاً من العنفوان، لأن الوقاحة مع كاتبنا لها سقف تضطر معه إلى أن تكفّ عن مواصلة شططها، فيكون ما بعد الوقاحة مساحة لا يبلغها سوى هذا الشطح اليعربي الغرائبي. يريد الكاتب أن يكذب حقيقة شاخصة بالتأكيد يمكن أن يكذبها أصحاب نظارات مالك الحزين في مملكة الحيوانات المصابة بالطاعون. ويمكن أن تتطاول الوقاحة لرفض كل حقيقة ما دام صاحب الرفض العدمي لا تهمه سمعته المنطقية، ما دام يراهن على جبر المنطق الطائفي الذي يسمح بالشطط ويجبر الكسور ويعالج الاعورار.

نبقدر ما يستهين الكاتب بقوة الممانعة وتقنيتها وإنجازاتها يهول من تلك الأحداث التي على أهمية بعضها يشهد أهلها أنفسهم بأنهم لم يرقوا بعملهم المقاوم ذاك إلى مستوى التأثير على المشروع الشرق أوسطي القادم. بل إن لسان الخطاب السياسي للمنطقة هو التسليم بالمشروع والسعي لضمان «حتة» ذل على هامش من هوامشه. حتى الفعل المقاوم الفلسطيني أدرك عظمة الأداء الذي تميزت به المقاومة الكريمة التي فكت الحصار على العدوان الصهيوني على الفلسطينيين الذين ذبحوا في العراء أمام سمع وبصر العرب والعالم ولا من ينصرهم. الفعل المقاوم الفلسطيني له تاريخه المجيد، لكنهم جميعاً يدركون أن طريقة المقاومة اللبنانية هي مختلفة وناجحة لتستحق أن تكون لحظة أستاذية في تاريخ الفشل العربي. حتى المقاومة العراقية التي ندرك أن أغلب ما فيها اليوم لم يتبلور في صورة فعل مقاوم حقيقي خارج منطق تصفية الحسابات ولغة التكفير الذي صوب إرهابها لدى الكاتب ما دامت أثخنت في الدم الشيعي لا لأنها قتلت آحاداً من الجنود الامريكان، يعزو لها هذه القدرة الخيالية للقضاء على مشروع الشرق الأوسط وهي لم تستطع أن تطرد الأمريكان من قلب العاصمة بغداد ولا أطرافها. هذا إذا لم يكن من المفارقة أن نؤكد على أن إحدى أهم دعائم فشل المشروع الأمريكي في العراق هو الدورين السوري والإيراني الذين تناساهما الكاتب، ليتحدث عن عوامل خيالية لا وجود لها إلا في خيال فيلسوف تدحرج في لغة التحليل السياسي تدحرج البهلوان، حتى ما عاد يميز بين الناقة والجمل. هل إن حرباً كتلك التي شهدها العالم وانتصبت في مشاهدة يوميات شموخها كل أبصار الجماهير العربية والإسلامية، لم تكن مهمة في نظر كاتب فقد حاسة الشم وملكة التمييز، حتى أنها هي أهون مما تحدث عنه من مشاريع، يشهد رموزها وطلائعها أن المقاومة كانت هي التجسيد الحي لما يحلم به هؤلاء جميعاً.

يا لها من مكابرة ويا له من عناد إلا أن يكون صاحبه قد أصيب بعمى الألوان. لكن كما قلنا قبل قليل إن ثمة ما يجبر هذه الكسور التي أصبحت مقبولة في هذا النسق القرائي الطائفي، الحديث عن حلف بين أصحاب هذه العنتريات والعدو. هذا الحلف لا تعلم به الجماهير ولا باقي الأمم سوى نابغتنا الفريد. لكن لم يحدثنا الكاتب المخرف إن كان هذا الحلف الخفي كان من المنطقي أن يكتب عقده بأنهر من دماء الشيعة وحدهم الذي بدا لي أنهم طيبون إلى هذا الحدّ الذي ينسون فيه أنهم ليسوا مسؤولين عن مجد الأمة وحدهم، وعن استرجاع الكرامة للأمة فيما لا يزالون موضع شك وريبة من صناع الرواية الطائفية الفاشية السوداوية التي لا تضع إنجاز الشيعة في ميزان ولا تقم له اعتباراً.

الحلف الخفي كان لا بد أن يدفع ثمنه الشيعة في حروب تعرضوا فيها للإبادة ولا زالوا، لولا وجود الشرفاء الذين هم أبعد من أن يقبلوا بهذا التخريف السياسي اليعربي، لكان أولى أن يقال يا شيعة العالم كفوا أن تتعنتروا وتقاتلوا بالوكالة عن الأمة. لكن ما يهون من ذلك أن أبا يعرب يقبع في مربع شاذ من خريطة وعينا العربي والإسلامي الحر. وخطابه السفسطي ثقيل على العقل والوجدان تائه في معميات العصاب وأمراض اللغة. ولا أدل على ذلك من موقفه المهلوس من كل المثقفين العرب بمن فيهم القوميون العرب الذين زعم أنه أشبه ما يكونون بمرتزقة استمالتهم صحافة وفضائيات الملالي: «بعد أن صار جل نخبه أجراء في صحفهم وفضائياتهم أو سجناء في معازلهم ومحمياتهم».

وماذا يضير كاتبنا أن يحصل هذا التموقف الإيجابي خارج منطق الطائفية الجاثم على ذهن أبي يعرب كالشبح المخيف. وليس هذه النخب فاقدة لموازينها ووعيها لما شاركت في ملحمة الكرامة دون أن يشدها سفه المواقف البائسة التي جرت ولا زالت تجر على الأمة وبال الانحطاط. انظروا كيف أصبح الأمر: صحفهم وفضائياتهم. وليس صعباً

على رجل منطق أن يذكر بأن ذكر هذه النسبة لا يقع إلا بتضمير منطق التضايف، ليصبح الأمر واضح الاصطفاف أشبه ما يكون بفسطاطين: صحفكم وصحفنا، فضائياتكم وفضائيتنا. حتى الذين تموقفوا لقناعاتهم وإراداتهم السياسية المبنية على فهم ووعي وتشخيص هم مجرد سجناء في محمياتهم ومعازلهم. ليست الكلمات هنا تعبيراً عن حقائق ووقائع بل إنها تعبير عن كراهية مسبقة ونزعة سوداوية تتحكم بالكلمات وتحدد لغة الخطاب. وهنا لا أريد أن تستدرجني الوقاحة لأتحدث عن كل محاولات الكاتب للتقرب من هذه الصحف وتلك الفضائيات ومدى شوقه لأن يكون ناشرها الأوحد وفارس شاشاتها الفذّ. لن أتحدث فيما أعرفه في هذا الموضوع حيث كنت شاهداً على أمور من هذا القبيل. لكن دعنا نتحدث في المقال ولا نتحدث فيما نعلم من واقع الحال، وقد كنا طرفاً فيه حتى لو كان يبدو فاضحاً لطوية من زعم اليوم أنه ناقم على من اعتبروا في مقام المشتري والأسير في محمياتهم.

عودة فاشلة إلى لغة التخويف

«ذلك أنهم يعلمون طبعاً أن الشعب لن يسألهم لما لا يتكلم العدو على ما عنده من مفاجآت لست أشك أبداً في أن حسن نصر لا يجهلها ولا يجهل أن خردة الجيش الإيراني أمامها لا تساوي استراتيجيًّا نبال الهنود الحمر فضلاً عن كونها في حال الحرب لن تدمر إلا الوطن العربي لا إسرائيل فضلاً عن أمريكا».

بهذا الدرس يثبت أبو يعرب كبرى هذا الخطاب الانهزامي الذي يساوق عنتريات ما قبل هزيمة حزيران في أنه يبالغ في تصوير شروط المواجهة بتهويل يقعد بنا في قاع الهزيمة لن نخرج منه إلا بإعلان الاستسلام والإذعان المطلق، كما استهان الآخرون بالواقع وشروطه القاهرة. وجهان لعملة واحدة. ومع ذلك يقدم الكاتب درسه المتقادم دون أن يستدعي

معطيات الانتصار. نعم، إنه خطاب انطلق من فكرة غير مبرهنة ولا تصلح إلا للجاج السفسطائي، ألا وهي أن لا وجود لانتصار بقدر ما هناك فقط مسرحية شاء لها الأمريكيون والإسرائيليون أن تقع كما وقعت. بموجب الحلف الخفي الذي يحجبه خطاب العنتريات الكاذب. فالمقايسة اليعربية تتوقع أن تقدم أمريكا على إبادة العرب. وهو أمر معطى لمجرد وجود الفارق في التسلح. الحروب في نظر المحلل المتدحرج في هذا النمط من الوعي السياسي، لا تستدعي شروطاً ومعطيات أخرى سياسية واستراتيجية عادة ما يتم فيها تحييد جملة من الأسلحة، لأننا نعيش في عالم لا يمكن لأمريكا أن تهيمن فيه على العالم هيمنة مطلقة ولا أن تهيمن فيه على العالم هيمنة دائمة. هذا فضلاً عن أن الكاتب يجهل أن الحرب من هذا القبيل لا تقع وهي عند علماء الحرب لا تقع لما تصبح جادة. وقد أخبر سيد المقاومة أنه يتكتك على أساس أن الاحتفاظ بمفاجأت ربما العدو هو أقدر على تكهنها من كاتب يجهل كوعه من بوعه في منطق سياسة الحروب، هو لمنع وقوع الحرب لا استدراج المنطقة إليها. سوف تثبت الأيام كما ثبت بالملموس بعد الانتصار أن معدل الاعتداء على لبنان تراجع بفضل استراتيجية المقاومة. الحرب تقع لما يسود هذا الخطاب الذي لم يجر على الأمة العربية إلا الاستعمار تلو الآخر، وطعن القضية الفلسطينية في الصميم. هل يحسب الكاتب أن المقاومة أو إيران التي يقحمها في هذا الحلف الخفي على الطريقة التقليدية لصناع الثقافة السياسية الطائفية، لها في أجندتها أن تدمر أمريكا ولا حتى إسرائيل؟! هذا ما يعبر عن خيال سياسي صغير. إن الحديث هنا هو عن هزيمة سياسية أمريكية في مجال محدد. هزيمة سياسية ما في منطقة ما. كما أن المطلوب في أجندة المقاومة أن تحول دون وقوع مزيد من تمدد العدو في الجغرافيا السياسية للمنطقة والحدّ من تناسل شروط الهزيمة. وأما هزيمة أمريكا في نهاية المطاف هي أمر حتمي متى امتدت السياسة الأمريكية الفاسدة في العالم.

هذه الخردة العسكرية الإيرانية كما وصفها الكاتب هي الحدّ الأدنى من الردع الذي أخر عدواناً أمريكيًا على إيران ما كان ليستوعبه خيال مضمخ بثقافة سياسية تقوم على نظرية المؤامرة بصورة تفوق الحدّ السوي، إلا أن يعتبر ذلك ضريبة تحالف خفي وليس حتى ضمني. هذا تقدير ساذج للأمور. فهذا القدر من التسلح من شأنه أن يخلق مستوى من التوازن، لأن الحروب لا تقوم على نظرية الغالب والمغلوب المطلقين، بل على نظرية المباريات النسبية. قراءة الكاتب لمشهدية الحرب المتوقعة قراءة تقليدية ساذجة، لأن الحرب لا تقع إلا لتكون استمراراً للسياسة. وأحياناً تحول السياسة الناضجة دون وقوعها رغم كل أشكال التلويح. حتى أن إسرائيل بدت في وضع حرج ومأساوي لما غالطت نفسها واستدرجت لحرب وهي أسيرة إحساسها المرضي بالتفوق. وإذا كانت السياسة العربية قد أفلست منذ زمان في تدبير صراعها التاريخي مع إسرائيل، فليس بالضرورة أن لا تمارس إيران السياسة أو أن تخضع لشروط العرب الانهزامية. المشكل هو أن السياسة العربية مريضة إلى حدّ لم تعد تملك فيه من الأوراق ما يمكنها من المناورة الصحيحة والجادة. لم يرتفع تحليل الكاتب فوق هذا القدر من السذاجة السياسية. فهزيمة العرب هي ما تبغيه المقاومة، لأن غايتها أن تحقق إيران غايتها، أي تحقيق حصونها «الحامية للنظام الآيل إلى الزوال حتماً بمقتضى المنطق الإيراني الداخلي فضلاً عن المنطق العالمي».

المقاومة ليست وطنية حتى لو كانت هي جزء طليعي في وطن حققت له الاستقلال ورفعت من منسوب كرامته حتى كانت تاجاً فوق رؤوس العرب وإن لم يرق فيها إلا ذلك الدم الشيعي الذي يمقته هذا الخطاب الطائفي الأرعن. لا ندري كم يحتاج الأمر من التضحية ليثبت هؤلاء الشيعة أنهم مواطنون صالحون؟! لكن يبدو أن أبا يعرب المرزوقي يتوقع بل يتمنى من خلال هذا النفس الخطابي المغالط أن يسقط النظام

الايراني. تلك حقيقة في نظره يقتضيها المنطق الإيراني الداخلي فضلاً عن المنطق الخارجي. الإمعان في أيرنة المشروع المقاوم بالقدر الذي يسعى لنزع صفة الأمركة من مشروع الاستسلام والهزيمة في المنطقة، هي حقًّا إحدى معميات الخطاب السياسي العدمي الذي يعيد إخراجه أبو يعرب المرزوقي الذي عانق خطاب الهزيمة في الوقت بدل الضائع حيث لم تعد حتى إسرائيل نفسها تراهن على هؤلاء المهزومين. بل لا زالت تعيش على الآثار النفسية للهزيمة أمام فعل مقاوم لم يستوعبه خطاب أبي يعرب، الذي تجاوزه واقع المقاومة حتى بات اللجاج في هذا الموضوع يساوق رفض الواقع الملموس. لأن المقاومة شكلت نموذجاً للصدق ونظافة العمليات جعلها تستجمع صور الجمال والجلال كما جعل النظر مساوقاً للعمل. فقراءة أبي يعرب لمصائر الأمور فضلاً عن كونه متجاوزاً، هو شكل من العناد الرخيص الذي يسعى صاحبه لنزع جبال الواقع قبل تحريف وقائع الأحداث وتأويلها هذا التأويل الفاسد الأشبه بتجديف انحطاطي يذكرنا بالمثل الشعبي: طارت ولو عنزة!

هناك تجنٍّ فاحش على السيد حسن في ما نطق به المرزوقي، تجنٍّ يحمل نفساً من الكراهية الممزوج بمرض طائفي عادت نوباته لتعبث برأس فيلسوف طالما حاول القبض على منزلة الكلي فيما ضاعت منه فأرة الجزئي. على الرغم من أنه أدرك بنفسه هذا الشطط والإسراف ليتداركه بعناد أنكى وأمر حينما يقول: «وحتى أبين أن فهمي هذا ليس فيه من التجني على الرجل أدنى ذرة».

إني أترفع أن أتهمه في مقالتي هذه بالكذب، كما يفعل هو مع أصدق بني آدم في زمن الكذوبين. لكن يكفي أن نقرأ مقالته هذه وما سبقها لنتأكد أن الكاتب أراد اهتبال الفرصة ليظهر شذوذه بعد أن أفلس في مسايرة نبض الأمة وخياراتها لصالح هذا الدَّجل السفسطائي. إنه بعد كل هذا لم يظلم الرجل بمقدار ذرة. كلام المرزوقي وفق منطق الأقصى:

بمقدار ما يلصق بالشرفاء أكبر مؤامرة وخطر متوقع، يتحدث عن إنصاف شخصي يصل الظلم المنسوب إليه إلى أدنى من ذرة. هذا خطاب يصلح للتحليل النفسي للتعبيرات البارانويانية. إلا أن كاتبنا وهو يحاول بإصرار مفضوح على إخفاء حدة الكراهية والظلم، يستدل على صدق ما يقوله بمسألتين زعم أن السيد حسن يبني عليهما خداعه. «إحداهما سلبية وهي نفي تهمة الطائفية. والثانية إيجابية وهي اتهام من يعارضه بكونه عميلاً لأمريكا». سيحاول الكاتب مناقشة المسألة الثانية والأولى بالتتبع، حيث رأى أن تهمة المعارض بالعمالة لأمريكا ليس فقط أنها لا تصح، بل هي خدعة تعكس الموقف نهائياً، لتصبح المقاومة وحليفها الإيراني في صلب المشروع الأمريكي فيما المتهمون معارضون له على درجة كبيرة من الدهاء التكتيكي والأفق الاستراتيجي. كما أن الزعم بعدم طائفيته إن هي إلا خدعة أخرى مثل سابقتها. فالسؤال المطروح حسب المسألتين:

المسألة الأولى: أيهما أي أكثر خدمة للمشروع الأمريكي استراتيجية الصدام الإيرانية المزعومة أم استراتيجية السلم التي اختارها العرب؟

المسألة الثانية: هل الطائفية تهمة للحزب والشيعة وإيران أم هي حقيقة فعلية تفسر كل الأحداث الجارية وإن كانت أجلى صوره مقصورة على العراق؟».

سيجيب الكاتب على سؤاله الأول بالنفي. فهو يزعم أنه لو سلم تياسراً منه بحق أي حزب هامشي في الاستراتيجية السياسية العربية لفرض بدائل على خياراتها المجمع عليها في القمم الرسمية باعتبار السلم خياراً استراتيجيًّا. فإنه يسعى مرة أخرى لتهويل الموقف حيث إن الغرب كله لن يسمح بزوال إسرائيل. وهذا درس كما قلنا ليس ذا موضوع ولا هو محلّ النزاع. فالحرب هي حرب الحدّ الأدنى من الكرامة، التي تتصرف سياسيًّا في وضع صمام أمان ضدّ مرض الكيان

الصهيوني في عدم الوفاء بأي التزاماته تجاه كل الاتفاقيات نتيجة ثقافة الذعر التي نجح في جعلها حارس هزيمتنا. لن تصل النوبة للغرب ليس لأن الغرب يرى في المشروع المقاوم خدمة لمصالحه، بل لأن المشروع المقاوم يمتلك القدرة على المناورة وجعل الحرب غير ممكنة. المقاومة حاربت لا لكي تورط نفسها أو المنطقة في الحرب، بل قاومت لتجعل الحرب ليست الأداة الأولى والأخيرة في يد إسرائيل، بل إنها نجحت في تحييد عامل الحرب من مسار الصراع. وإسرائيل حسب قراءة المرزوقي تستغل هذا الوضع لمنع العرب من الفراغ لبناء نهضتهم. وفي ظنه أن الوطن العربي لا يمكن منعه من النهوض وإن كان بالإمكان تعطيل نهوضه. كلمة حق يراد بها باطل مرة أخرى. ولا نريد أن نناقش الكاتب في هذه المقدمة الخاطئة وهذه المعالجة الفاسدة للأمور. لما لا يقال إن مجرد وجود إسرائيل لن يمنح العرب سقفاً حقيقيًّا للنمو. ولو أمكن تحقيق الحلم الأمريكي والصهيوني في وجود شرق أوسط جديد، فذلك مدخل تاريخي لاسترقاق سياسي واقتصادي وثقافي وحضاري للوطن العربي.

فالكاتب يعبر عن الموقف العربي الرسمي: «فخيار العرب الاستراتيجي ليس هو إذن رفضاً للحرب أو خوفاً منها بحيث يتعنتر عليهم أحد موظفين الباسدارن».

لم يحدثنا الكاتب إن كان العرب استطاعوا قبل اللاعب الإيراني لو سلمنا جدلاً أن ينتزعوا لهم حقهم حتى بموجب القبول بوضعية ما قبل حرب ٦٧؟! وهل أمكن العرب بفعل خيارهم هذا المفروض بمركب كامل من الأسباب لعل كثير منهم استغل الصراع العربي الإسرائيلي لتعطيل التنمية فيما هو يقبل بكل شروط السلم المهزوم.لا نجد في مقالة الكاتب جواباً عن هذا، لأنه لا يملك وكل ببغاوات المزايدات باسم خيارات السلام يملكون الجواب. فعمر الهزيمة العربية أكبر من عمر اللعب الإيراني الذي كان كما أدركت سورية على الأقل لاعباً حقيقيًّا

استطاع أن يحقق نوعاً من التوازن الاستراتيجي الآخذ في التطور، في الوقت الذي لم يصدع صوت هؤلاء المهزومين لاتهام إيران زمن الشاه بأدنى اتهام لما كان لاعباً برهانات أخرى، ويوم اختار الشاه أن يكون دركي المنطقة وحليف إسرائيل الاستراتيجي. السؤال الذي لم يشأ أبو يعرب أن يطرحه، ماذا لو غيّرت إيران استراتيجيتها، وحالفت العدو جهاراً كما فعل الشاه، ومدت اليد لإسرائيل. ألا يكون ذلك طريقاً أخصر لاسترقاق العرب وتحويلهم إلى محميات وحشية بالتأكيد لن ينفع معها هذا التحليل القردي ـ وسوف أبين وأشرح بعد ذلك لماذا أصفه بالتحليل القردي ـ ولا هذه اللغة الشعرية الرومانسية الرديئة التي تغازل ذل العرب وترتقي بخياراتهم المهزومة إلا مرتبة الخيار الاستراتيجي. وعجباً كيف يقول هذا الكلام كاتب جمعتني به جلسات في حضرة فعاليات إيرانية تحدث فيها عن خيارات الأمة في المواجهة ومدح المواقف الإيرانية حتى كاد يخرّ من على المنبر. وهو الأمر الذي ذكرته استطراداً ولا أريد أن أتحدث عن سر هذه الانقلابية الحمقاء وتبديل اللون فيما أعرفه شخصيًا ولا أريد إقحامه في موضوعنا ترفعاً ووفاءً ـ المجالس بأماناتها ـ.

البراديغم السياسي المتحكم في هذه المعالجة المرزوقية السخيفة هي العداء المسبق للمشروع التحرري متى كان وراءه شيعة أو إيرانيين، هكذا سينفضح الأمر في النهاية لما اعتبر أن ليس من حق الشيعة ولا إيران أن تقود العالم الإسلامي، لأن النصر حليف العرب وإن انهزموا، والنهضة مآله وإن أعيق. والمجد الإسلامي له لا شريك لمسلم فيه غيره. ليس فقط أننا أمام هوس طائفي كبير ولا حتى نزعة عرقية فاشية، بل نحن أمام هذيان من طراز مختلف، يريد أن يقول: على الشيعة أن لا ينخرطوا في خيارات الأمة التحررية، وإذا حالفهم الحظ ذات مرة لبلوغ مرحلة الطليعية في الأمة وفق منطق الانتخاب الطبيعي، عليهم أن

يتراجعوا وينتظروا نهضة غيرهم، عليهم أن يتبعوا أو حتى لا يتبعوا الآخر حتى لو اختار الهزيمة أو تراجعت فاعليته، وإذا مد الشيعة اليد لإخوانهم السنّة وشرفوهم في حرب غاظت الطائفيين: فلا بدّ أن نحذر أنها مؤامرة. من هنا فموقف صدام وابن لادن في نظر المرزوقي هو محض غباوة أمام المخطط الشيعي والإيراني بعيد الغور. لا يعترف ببعد الغور للشيعة إلا حينما يربطه بعنصر المؤامرة. وما عدا ذلك فهم ليسوا على شيء!؟

يواصل الكاتب متعته السوداوية في هذا التحليل البهلواني الصاخب، ليؤكد على «أن مجرد إرجاع إسرائيل إلى حجمها المتقدم على ٦٧ يعد أكبر هزيمة لإسرائيل فضلاً عن كونه علامة على تخلص العرب من العنتريات التي أوصلت إلى نكبة ٦٧ وصلاً عن بعث الشعب الفلسطيني».

كل هذه الإنجازات المقاومية هي محض عنتريات. وعليه يصبح التنظير للهزيمة فهلوة خرافية تتحدث عن السياسة بلغة الأحلام. وضع المرزوقي نفسه خارج منطق المقاومة الفلسطينية نفسها، رغم سنيتها حينما تجاسر ليصفها بالغبية. ويتجاهل المرزوقي عنوة أن حتى عملية إرجاع إسرائيل إلى حدود ما قبل ٦٧، لم يكن معطى إلا بفضل العمل المقاوم في الميدان والممانعة السياسية للمشاريع التي لم تقبل بمنطق الهزيمة التي أرادت إسرائيل أن تفرضها حتى في المسلسل التفاوضي، وحيث يعيد المرزوقي اليوم منطقتها وإخراجها بخداع فكروي لا يقل عن الخداع السياسوي لمنظري الهزيمة. والحق أن هؤلاء المهزومين يعيشون اليوم على أفضال المقاومين الذين لا زالوا مانعاً استراتيجيًّا أمام المشروع الصهيوني الذي يسعى للتوسع لبلوغ حتى المربعات الانهزامية التي يقف عليها هذا الجنس الشاذ من منظري الشقلبة البهلوانية على بساط الهزيمة. إرغام إسرائيل على التدحرج إلى ما قبل ٦٧ هو نتيجة ممانعة ومقاومة مستدامة لم يرق إلى فهمها الكاتب حتى لو قلب الحقائق

وزيف الأحداث وأعاد تركيبها كمسوخ سياسية قذرة. ولهذا يعتقد أن زوال إسرائيل حتمي لمجرد أن نتفرغ للنهضة في التعليم والاقتصاد وما شابه. فسنجد الغرب سيتخلى عن إسرائيل حينما تصبح هذه الأخيرة «مجرد قاعدة استعمارية يمكن للاستعمار أن يتركها تسقط كما ترك جنوب أفريقيا والمستعمرات التي سلمتها بريطانيا للصين وكما سيكون مصير تايوان: ينبغي أن يصبح العرب بعكس ما يريد أمثال نصر الله».

المسألة هي محل جريان هذا الضرب من المقايسة التي لا تحمل وعيًا بالمفارقات التي تجعل ما يحدث في الشرق الأوسط لا نظير له من حيث ما يمثله هذا المجال في مصائر الغرب الصناعي، وما يمثله ثقافيًا وتاريخيًا في قصة اغتصاب الأرض، لا يمكن أن يتخلى الغرب عن إسرائيل إلا أن يكفّ العرب عن الحديث عن نهضة يحدثنا عنها المرزوقي كما لو كانت النهضة أمراً معطى أيسر من مناورة ومقاومة لانتزاعه. تلك قصة أخرى تنزل بالتحليل المذكور إلى حكاية الجدات وأحكام الجاهلين بأسرار السياسة الإقليمية والدولية ما خفي منها وما ظهر. إسرائيل ليست هي حكومة جنوب أفريقيا. والشرق الأوسط ليس هو جنوب أفريقيا إلا عند من تشقلبت الحقائق وتشقلب معها برخصة طائفية تسمح بممارسة هذا الشكل من التجهيل المغالطي. ومع ذلك تعين القول أن هذا مجرد مغالطة، حيث ما حصل في جنوب أفريقيا هو دليل ضدّ تحليل المرزوقي، إذ الأمر يتعلق بواحدة من أكبر أشكال المقاومة ضدّ التميز. ولم يحصل ما حصل في هذه البلاد إلا بفضل المقاومة لا بفضل هذا النوع من الثقافة السياسية المعبرة عن خيال مهزوم حتى النخاع، وعقل معاند حتى الثمالة.

المقاومة اليوم تؤدي حسب الكاتب دوراً لن يخدم مصلحة العرب. ولو قيد للعرب أن ينجحوا لافي خيار الهزيمة الراجح في تحليل بهاليل الهزيمة، فلن يتحقق حلم إيران، إذ في عالم الأقطاب يفترض أن يلغى

الدور العربي الذي يتنزل منزلة القلب الموحد للعالم الإسلامي، والحق يقال إن العرب اليوم بسياستهم هذه كانوا عنصر تشتيت للعالم الإسلامي. ولا ندري هل العالم الإسلامي الذي يحدثنا عنه المرزوقي سيكون عربيًا فقط وسنيًا فقط حيث مقتضى مقاربته الأيديولوجية والسياسية قاضية بإخراج فارس والشيعة من صناعة مصير الأمة، إلا أن يكفوا أن يكونوا على ما هم عليه: أي أن تعود إيران إلى الصفوف الخلفية وترضى بدور التابع للدور العربي الذي بدا لكاتبنا طليعيًا بالقوة. وغالباً ما يتحول ما بالقوة إلى ما بالفعل، فيسود الإحساس بأن العرب مؤهلين لقيادة العالم الإسلامي برومانسية مرزوقية، على اختياراتهم المهزومة، نعم، إننا ندرك أن العالم العربي هو الأكثر مظلومية في هذه اللعبة القذرة، لكن المشكلة اليوم أن أمثال المرزوقي يعلقون الفشل العربي ليس على اللاعب الحقيقي والأسوأ في المنطقة: الغرب وإسرائيل. إن تحليل الكاتب يقودنا إلى نتيجة حتمية مفادها أن إيران شر مطلق لا يصلح عمقاً استراتيجيًا للعرب. وبأن كل إنجاز قام في ظلّ خيار المقاومة هو لعبة أمريكية ـ إيرانية. والنتيجة أن لا يكون لإيران أي دور ولا تعمل وفق أي أجندة خارج خيارات الهزيمة. فالعالم الإسلامي وفق هذا المنظار المثقوب، قائم بالعرب.

إن خيارات المقاومة والتصدي والممانعة هي خيارات إنسانية أولاً وقبل كل شيء، وجدت قبل إيران وقبل حزب الله. وإذا أمكن أن تتماهى مواقف إيران والمقاومة مع مبادئ حركات التحرر الوطني فذلك يحسب لها لا ضدها، إن تحليل الكاتب يذهب إلى حدّ تعزيز وتكريس المركب الإيرانوفوبي الذي يجعل كل مشروع وكل أجندة إيرانية أو شيعية حتى لو كانت عربية، محطّ ريبة ورفض. كأن لسان حالهم لنرض بالذل الإسرائيلي والأمريكي ولا نقبل بإيران عمقاً استراتيجيًا ولا حليفاً نستقوي به على قضايانا حتى لو كان ذلك في صالح العرب ومستقبلهم.

فإيران هي في قلب العالم الإسلامي وتاريخه الحضاري، وحرص البعض على محوها من الوجود أكثر من حرصهم على هجاء إسرائيل، ليس تجنيًا فاحشاً يرفضه العقل والقلب، بل هي مرض يتعين أن يعافى منه الثقافة السياسية لصناع تفاهاتنا النظرية وقبائحنا العملية، فلننظر إلى نموذج من قبائح التحليل السياسي للكاتب حينما ينبه إلى أن الغرض من الفعل المقاوم هو تحويل الوطن العربي كله إلى جنوب لبنان، ومثل هذا فعلوه بالعراق وسيفعلونه بسوريا.

على أساس هذا التنطع البهلواني تخلط الحقائق، ويلقى الكلام على عواهنه جرياً على أحكام القيمة المعروضة بالجملة والتقسيط في مزاد وعيناً الفقير سياسة وأخلاقاً. . نظراً وعملاً. أصبح واضحاً أن المرزوني منح نفسه الحق في أن يعطي دروساً في السياسة والاستراتيجية لدول الصمود والممانعة بحجة أنهم لا يعلمون ما في حوزة عدوهم من إمكانات وأوراق، الآن ما فعلوه بالعراق يضارع ما فعلوه بلبنان يضارع ما سيفعلونه بسوريا، وما يمكن أن يفعلوه بدول الخليج أيضاً، في كل هذا لا وجود للتاريخ في هذا التحليل البهلواني شديد التنطع، المائع حدّ التقزز، لا تحضر المقاومة اللبنانية في سياقها التاريخي اللبناني منذ العمل الفدائي الفلسطيني وقبل حتى قيام الثورة الإيرانية واصطفاف قيادييها إلى صفوف القضايا العربية وحركات التحرر الوطني. ولا يحضر السياق التاريخي لخط الصمود السوري منذ آخر حرب خاضتها سوريا ضدّ الكيان الصهيوني دون أن تتمكن الهزيمة، وتراجع الموقف العربي منذ إعلان اتفاقية سلام بين مصر والكيان الصهيوني، من الموقف السوري المشهود. حدث ذلك قبل التحول الثوري في إيران الذي أتى بخيار سياسي واستراتيجي ينتمي للسياق المعنوي والاصلاحي للمشروع الاصلاحي والنهضوي العربي والإسلامي منذ القرن التاسع عشر الميلادي.

إن الهاجس الطائفي يصغر دائماً ويتسافل بعقول أضراب أبي يعرب، حتى أنه اعتبر كل ما يصدر عن الشيعة عرباً وعجماً مجروحاً ؛ مجروحون في مقاومتهم اللبنانية ومجروحون في سياستهم بالعراق، فالتهديد الإيراني لإسرائيل هو في منظور الكاتب تقوية لإسرائيل من أجل منع المارد العربي من تحقيق نهضته التاريخية!؟ وهذا يعني أن المشكلة أصبحت مستحيلة الحلّ؛ على الشيعة أن يرحلوا من حاق الوجود!؟لا ندري حينما تعزم إيران على أن تكون جادة في مواجهة المشروع الإسرائيلي، ماذا عساها أن تفعل، إلا أن يكون ضدّ الضدّ، هو الدحرجة إلى صفوف المهزومين أو بالأحرى حكماء الحيوانات المصابة بالطاعون على الطريقة المرزوقية.

وأخيراً كشرت الطائفية عما تبقى من أنيابها وهلوست

تدرج المرزوقي في نزع الغطاء عن طائفيته الرعناء. فحتى حينما كتب مقالته السابقة «رسالة مفتوحة إلى السيد حسن نصر الله كان لا يزال يمارس بعضاً من خدعه الصغيرة في حجب نزعته الطائفية الغالية. ولم تسقط عنه ورقة التوت بعد. لكنه اليوم أدرك بعد أن حسبها جيداً، يخرج إلى المشهد الطائفي عارٍ من دون دثار أو شعار. لقد قضم الدود ما تبقى من ورقة التوت! لا يمكننا في هذه المقالة أن نستدرج لردود حقيقية على مجمل أحكام القيمة التي صبها بوقاحة على الشيعة والتشيع، حيث لا يمكن أن يصدر مثل ذلك وباللغة السافرة التي تمثلها الكاتب، إلا سفيه لا يعيش بمسؤولية مشكلات الأمة ولا يهمه ما يؤوّل إليه خطاب نذل كهذا. فالصعوبة التي وضعنا أمامها هذا المقال المغرض، أنه جمع بين نزعته الانهزامية والطائفية معاً. ولن نناقشه في تفاصيل رؤيته الطائفية وجهالاته في الجملة لأن المقام لا يتسع ولا يسمح، حيث لنا معها موقف آخر ومناسبة أخرى. ثمة رسالة يريد منها الكاتب أن تصل وتؤدي

دورها القذر في مشهدنا البالغ الحساسية. أين ضمير المرزوقي من كل ما يجري اليوم حتى يسمح لوقاحته أن تأخذ كل هذه المساحة من التهريج؟ هكذا يمتد لسان المرزوقي الطائفي الطويل للنيل من كل شيء، حتى من «سلطان الحوزات الذي يخدر الشعوب ليبقيه في القرون الوسطى سعيًا إلى الانتقام لمجد فارس بقلب قيم الإسلام».

أو عن الشعب المسكين «الذي يكفي أن ترى كيف يخدروه في المآتم وفي الاستعراضات الفاشية». . . وغيرها من صنوف الشتائم التي كالها الكاتب لمن أكرموه وتشرف بالحضور في فعالياتهم الثقافية وأيضاً بنفاق فاق المتوقع. غير أنه اليوم لا يرى فيما يقدمه هؤلاء علماً ولا كفاحاً. فبقدر ما تهيج البارانويا المرزوقية في أقصى سوداويتها من الآخر الشيعي حتى تجعل من جلي إنجازاته محض هباء، تهيج مرة أخرى وفي أقصى نرجسيتها لتجعل من كل منجز عند الآخر السني أوج الإنجاز، فما فعلته الانتفاضة الفلسطينية وما يسميه بالمقاومة بالعراق، أرغمت العدو الأمريكي على الركوع. في حين أن كل هذا المشهد الملحمي في الجنوب اللبناني إن هو إلا مسرحية، لا تخيف أمريكا التي تستطيع أن تمحو إيران لو شعرت بأن تهديدها جدي ولا إسرائيل التي تستطيع أن تمحو الجنوب وتمحو إيران من الخريطة. على العرب أن لا يغفلوا ذلك حتى لو حاولت «النخب الإعلامية والمزعومة فكرية صانعة الرأي العام قد اشتراها الملالي أو حماها محميوهم في محمية الضاحية بعد أن نضبت خزائن الأحزاب القومية وتاهت بوصلة الأحزاب الدينية السنية».

مرة أخرى: العرب. . السنة. . خطاب طائفي أرعن ومقزز يسعى من خلاله الكاتب لتلويث وعي المتلقي وتبشيع ما بدا له واقعاً ملموساً لا يحتاج إلى كل هذا الضرب الهجين من السفسطة الرديئة، وبينما يتحدث المرزوقي عن النخب التي باعت نفسها للملالي، يوحي للقارئ بنزاهة ضميره ومناعته وزهده، بعد أن طاف على كل الأروقة كعطار

فكر، من سلفية إلى شيعية. فمثل هذا الخطاب مارسه يوماً بدافع الضغط على المؤسسات السلفية ودول الخليج دون أن يحصل إلا على إهانات وإهمالات متكررة، ومثل ذلك فعل مع مؤسسات ومنابر شيعية، لم يجد فيها طموحه، آخرها لما أسر لي سائلاً إن كانت إحدى هذه المنابر التي توسطت له معها تقدم أموالاً. مرة أخرى لا نريد أن نقف عند هذا إلا من باب الاستطراد.

أمريكا إذن وحسب التحليل البارانوياني الخيالي لكاتب احترف التخريف والنط بعناد، لا تحارب إيران ولا حزب الله. بل هي «تحارب السنّة في العالم كله من جزر مورو ومندناو إلى صحارى المغرب الأقصى».

كل ما حصل في لبنان هو لعبة، بكل هذا الدمار وكل هؤلاء الشهداء الذين تستهين بهم قراءة مرزوقية حمقاء ويبخسهم ضمير فقير، هي لعبة محض لعبة. لكن سيشفع له في هذا النزق استناده إلى السنة استقواءً لا إخلاصاً. فالمسألة طائفية مائة بالمائة. وأمريكا حتى لو فتكت بالشيعة وبإيران فهي ليست جادة. هي حاربت بقايا القاعدة وهم وحدهم السنّة عند المرزوقي حتى وإن وصفهم بالغباء بين الفينة والأخرى. على الأقل كان بعض هؤلاء الأغبياء في نظره يتحدثون عن حرب أمريكا على الإسلام والمسلمين، في حين خصص المرزوقي هذه المواجهة ليجعلها بين أمريكا والسنّة. أتعس من هذا التحليل لا يوجد إلا لدى شرذمة الطائفيين الغرباء عن وعي الأمة الجمعي وصلحاء نخبها الذين تجاوزوا هذه القراءة المتسافلة، حيث كانت حرب ٣٣ يوم مناسبة تاريخية للقطع مع هذا الهراء، في الوقت الذي يحاول عطار الأيديولوجيا الطائفية اليوم أن يجعل أشرف لحظات الأمة محطة للتشويه وتكريس طائفية النظر والعمل. ليبقى السؤال الحقيقي لأجل من يبعث هذا الخطاب الميت من القبور ومن يغازل صاحب هذا التجديف المفتعل؟!

إن أمريكا حسب الكاتب لا يخيفها «دراويش المآتم الدائمة بل هو

عودة المارد الإسلامي بزعامة عربية وما يساعدها في حربها عليه هو صاعق الطائفية».

أصبح واضحاً أن أمريكا حسب المقاربة المرزوقية لا يخيفها إلا العرب، لا أحد في العالم ستأبه له أمريكا غير العرب، ومع أن المرزوقي اجتهد كثيراً ليؤكد بأن غير العرب من المسلمين لا يملكون قدراتهم، ليجعل المعول عليه في هذا التحدي هو النفط وليس القيم إلا تبعاً لذلك، حتى أنه حكم على إيران بقلة مواردها ومحدوديتها كمؤشر على عجزها عن قيادة العالم الإسلامي، يؤكد أن موازينه مادية وليست روحية كما يزعم دائماً. لكن أخطر ما في الأمر أن المقوم للزعامة العربية هي السنّة لا غير، بل تلك التي هي أوجب أن تكون قد سلمت عقلها وروحها للتفسير السني الوحيد كما عند الكاتب: التفسير التيمي ـ نسبة لابن تيمية ـ أي لا بدّ من أن تمر الأمة العربية من معمد التكفير الذي يبقي على أبعاضها، بعد أن يتم استئصال جمهور المتصوفة والشيعة العرب ومختلف التعبيرات الإسلامية الأخرى في الوطن العربي. لأن المرزوقي وهو يتبختر بهذا الخيال الساذج، لما يقيس مصير التفوق بحجم الموارد، ينسى أن أكثر المناطق العربية الغنية بالنفط هي مناطق شيعة العرب. وأن العرب لو أنصتوا لا سمح الله لهذا الخطاب الطفالي اللامسؤول، سيصبح سنة العرب بدواً في مجال متصحر ومتوحش فقير حتماً لا يرضاه لهم إخوانهم الشيعة.

ومع انتفاخ أوداجه الطائفية وإسرافه في هذا المجال، يعتبر الكاتب أن هذه الحرب الأمريكية لا تتم إلا بصاعق الحرب الطائفية. ليس المتهم ها هنا هو نبرة الكاتب ووقاحته التي جعلته يكيل التهم بالجملة ويصب الشتائم بضمير فاسد، بل المسؤول هو إيران. ماذا فعلت إيران إذن؟ أجل، «إيران التي تعيث فساداً ـ وهي أشياء رأيتها بأم عيني في جنوب شرقي آسيا وأراها في المغرب العربي ـ في العالم الإسلامي من أندونيسيا إلى المغرب» .

النزعة الطائفية هي من يضطر الكاتب أن يرى في كل ما تقوم به إيران أو الشيعة فساداً في الأرض. يقصد ببلاهة أن دولة كبيرة مثل إيران لا ينبغي لها أن تقوم بدورها الديني ولا أن تفعل بأقل مما تفعله دول عربية سنية في أقطار العالم. لا يجوز أن يكون لهذه الدولة سياسة دينية كما هو شأن بلاد العالم، فقط لأنها بلد شيعي. فهو يزعم أنه رأى ذلك بعينه في جنوب شرق آسيا، وهو بالتأكيد يقصد ما سمعه أو توهمه أثناء مكوثه أستاذاً زائراً في كوالا لامبور، حيث لم ينقل ما شاهده من نشاطات تبشيرية غير شيعية في مثل هذه البلاد. هذا التبشير في نظر المرزوقي يضارع التبشير الكاثوليكي، مع نهج التزييف للتاريخ الإسلامي«جعل ابن العلقمي يصبح في مسلسلات بعض التلفزات بطلاً إسلاميًّا!».

فلا زلنا مع الكاتب لم نخرج من التهم التقليدية لأمثال ابن تيمية. تحليلات تستنجد دائماً بالماضي وبتهيؤات الفوضى الخلاقة لنهج التزييف الكلامي والتاريخي لخصوم الشيعة عبر التاريخ، حيث رسموا بورتريه بشعة لكل الرموز التاريخية. ليس إلا ابن تيمية من أطنب وزاد بهراته لنعت أولئك القوم بالخيانة. كنت أنتظر من الكاتب أن يترفع عن هذا التنميط التافه السخيف الذي تغذت عليه أذهان السذج من مرددي الأسطوانة المشروخة تلك من دون تحقيق. ما كنا لنتوقف عند هذه الفرية حيث ليس المقام التوسع في حقائق تاريخية كهذه التي باتت أنشودة سخيفة على ألسن الجاهلين أو المتجاهلين بأحوال التاريخ. لكن سنقول كلمة في هذا المجال فقط حتى نظهر مدى سخف المتترس بالمغالطات التاريخية وإرسالها إرسال المسلمات من دون إعمال نظر حتى استوى العامة والخاصة في هذا الضرب من التجهيل. من وجهة نظر العامة يجب أن نعترف بأن الخطاب التاريخي العربي كان ولا يزال مجالاً خصباً للتزييف، ليس فقط اليوم بل منذ نهض صناع الإخبار التاريخي إلى اليوم. ويبدو لي أن المرزوقي يريد أن يطبق نهجه الرواقي نفسه على المادة

التاريخية ليحولها إلى ضرب من النومينا الكانطية، وليكون التاريخ هو ما نريد لا ما هو ماثل في الواقع.

إن حجم المغالطات في إلقاء تهمة سقوط بغداد في خيانة ابن العلقمي، لا تؤكد على سذاجة صناعة التزييف، بل هي مؤشر على درجة الوعي الذي تقبل تلك الأكذوبة التي يسخفها التاريخ نفسه، ولا أريد أن أسافر بالمرزوقي إلى أقدم المدونات التي أرخت لأحوال بغداد في هذا المجال، بل سألزمه برائد مشروعه الميتا ـ تاريخي: ابن خلدون الذي اعتبره الكاتب أعلم من كل المثقفين العرب المعاصرين، فكما يورد أبو الفدا حول الفتنة التي جرت بين السنة والشيعة بالكرخ حينما يقول: «وكانوا روافض مثلما كان الوزير مؤيد الدين بن العلقمي رافضيًّا.. فأمر أبو بكر ابن الخليفة وركن الدين الدوادار العسكر فنهبوا الكرخ وهتكوا النساء وركبوا منهن الفواحش، فعظم ذلك على الوزير ابن العلقمي فكاتب التتر وأطمعهم في ملك بغداد يؤكد ابن خلدون الحكاية نفسها وهو هنا لا يفعل سوى ترديد ما ذكره هؤلاء مع تكريسه الصورة النمطية للخيانة الشيعية كما هي عادته في كثير من المواقف.

فيقول ابن خلدون: «فاضطر بالناس وضاقت الأحوال وعظم الهرج ببغداد ورقعت الفتن بين الشيعة وأهل السنّة وكان مسكن الشيعة بالكرخ في الجانب الغربي وكان الوزير ابن العلقمي منهم فسطوا بأهل السنّة وأنفذ المستعصم ابنه أبا بكر وركن الدين الدوادار وأمرهم بنهب بيوتهم بالكرخ ولم يراع فيه ذمة الوزير فآسفه ذلك وتربص بالدولة وأسقط معظم الجند يموه بأنه يدافع التتر بما يتوفر من أرزاقهم في الدولة، وزحف هلاكو ملك التتر سنة ثنتين وخمسين إلى العراق وقد فتح الري وأصبهان وهمذان وتتبع قلاع الإسماعيلية ثم قصد قلعة الموت سنة خمس وخمسين فبلغه في طريقه كتاب ابن الصلايا صاحب إربل وفيه وصية من ابن العلقمي وزير المستعصم إلى هلاكو يستحثه لقصد بغداد».

مع أن ابن خلدون لم يعمل النظر والتحقيق في مثل هذه الحكايات التي نقلها جملة وتفصيلاً من كتابات المتقدمين إلا أننا لا نغفل أن ابن خلدون لم يحافظ على موضوعيته في كل ما أرخ له، كما لم يحافظ على منهجيته على طول ممارسته للإخبار. أليس ابن خلدون نفسه الذي يتحدث عن تعقيل ومنهجة الممارسة التاريخية كان يعتمد في أمور شتى على آراء المنجمين والتنجيم في تحقيق بعض الحوادث التاريخية؟! أليس هو من أرسل إرسال المسلم حكاية قتل الجن لسعد بن عبادة الخزرجي؟! فحينما يتعلق الأمر بمحطات حرجة في تاريخنا نلجأ للتزييف. وليس المرزوقي الذي تبنى هذه الطريقة ببعيد عنها اليوم هل يعقل على فيلسوف التاريخ الحقيقي أن يعزو انهيار دولة عظمى لمجرد خيانة شخص كالعلقمي، نسي هؤلاء أنهم أضروا بمقصدهم وهم يمارسون هذا الزيف، حيث تحميل ابن العلقمي مسؤولية سقوط بغداد هو أشبه بخرافة قتل الجن لسعد بن عبادة وإنشادهم في ذلك بيتاً ذكروه وحفظوه بغباء. ذلك لأن المؤرخ أكد بوقوع فتن وتطرق إلى المجازر التي تعرض لها الكرخ ما يؤكد على الظرف الأليم الذي عاشه الشيعة يومئذٍ.

فلو سلمنا افتراضاً بصحة هذه الفرية المفضوحة، لكان ذلك كافياً بأن يجعلنا نصحح موقفنا. وبدل أن نبقي على هذا النهج السافر من الاضطهاد للشيعة أن ندرك بأن ذلك من شأنه أن يستغل من قبل الاستعمار، لكن من يا ترى يسعى اليوم لإعادة عقارب الساعة إلى الوراء؟! أجل إن المسؤول مع فرض التسليم بما ليس قابلاً للتسليم، هم أولئك الذين فتكوا بالشيعة فتكاً كبيراً، لا يملك المرء فيه إلا أن يستنجد بالشيطان. ومثل ذلك حدث بالعراق، فكان بطشهم هو السبب لا المسبب. لكن ترى هل كان حقًّا ابن العلقمي الوزير كذلك. انظر كيف وصفه صاحب الفخري: «وكان مؤيد الدين الوزير عفيفاً عن أموال الديوان وأموال الرعية متنزهاً مترفعاً».

بل كان رجلاً صالحاً حتى أن ابن الطقطقا أشار إلى أنه لم يخمر. نعم، فالمسألة بالغة الأهمية أن يكون ابن العلقمي لا يخمر في دولة بني العباس. ولهذا استوزره هولاكو حسب صاحب الفخري، ولك أن ترى مدح ابن أبي الحديد المعتزلي البغدادي في شرح النهج. إن من يدرك خطورة الهجمة التترية التي لم ينج منها الشيعة أيضاً، حتى أنهم فتكوا بإسماعلية آلموت بإيران فتكاً مرعباً، كما دمروا فارس وعاثوا فيها فساداً، ولا زال الشيعة حتى في بغداد يتحدثون عن آلاف المصنفات الشيعية التي أحرقت وقذف بها في دجلة من قبل هؤلاء المتوحشين. هجمة التتر التي كانت على العالم الإسلامي كله وليس على السنّة فقط، كما يعيد المرزوقي اليوم نهج التحليل نفسه باعتبار أمريكا تحارب السنّة فقط، ليجعل من شيعة اليوم وإيران ابن علقمي هذا الزمان. أجل، فمن يطلع على قوة التتار حينئذٍ لا يصدق أن القصة هي حكاية خيانة شخص. وكان لا بد أن يقرر ما ذكره بروكلمان حينما قال: «والحق أن هولاكو ما كان في حاجة إلى أن يحرض الشيعة من الفرس كالطوسي مثلاً، على قصد بغداد والاستيلاء على هذه الغنيمة الباردة».

لكن المرزوقي لم يكن ليصدق على الرغم من أن ابن خلدون نفسه يعترف لتيمورلانك بعد ذلك بأن ملكهم لم تشهد البشرية لقوته نظيراً منذ آدم، كان ابن خلدون قد استولت عليه هذه الحكاية الأسطورية لدور ابن العلقمي، فقرر أن يهادن تيمورلانك ويمنحه من المساعدة ما يحتاجه تيمورلانك لاحتلال ما تبقى من الوطن العربي. المرزوقي لا يمكن أن يحتفظ بالمنهج نفسه وهو يستحضر اللقاء التاريخي بين تيمورلانك وابن خلدون الذي قبل يده وأظهر له من الخضوع الكثير، بل ومنحه ١٢ كناشاً معلومات على المغرب الأقصى ووصفاً لجغرافيا المنطقة وكل ما يحتاجه عسكري لاحتلال بلد.

إن المرزوقي في الحقيقة وبغض النظر عن خرافة مسؤولية ابن

العلقمي، يدعو العرب لمثل هذا الدور مع أمريكا وإسرائيل من أجل محاصرة الشيعة، وكذا إخراج إيران من اللعبة الدولية بحجة البادي أظلم، ولذا ليس غريباً أنه يؤكد مرة أن أمريكا لو تشاء تمحو إيران من الخريطة وبأن كل محاولة لمقاومتها عنترية لا ترد واقعاً، في حين يعتبر دخولها المنطقة بلعبة علقمية معاصرة من الشيعة وإيران، لم يكن التتار في حاجة إلى ابن العلقمي ليحتلوا بغداد بالأمس، كما لم تكن أمريكا تحتاج إلى المعارضة العراقية لتحتل بغداد اليوم. نعم استغلت الاضطهاد السافر والعذاب الذي وقع بشكل كبير وبالدرجة الأولى على شيعة العراق، هو استغلال لواقع بدل أن يتم تجاوزه وجدنا من يعيد إحياءه مرة أخرى، فيقاتل الشيعة أكثر من مقاتلة الاحتلال. المرزوقي يدعو العرب أن يستسلموا لا أن يتعنتروا، لأن لا راد لقوة الغرب. ولكنه يدين الشيعة سواء أهادنوا أمريكا أو حاربوها. فهم خونة في العراق بخذلانهم ومجيئهم بالاحتلال حسب زعمه، وهم أهل خدعة في لبنان وفي إيران لأنهم يحاربون.

بل لعلهم هم السبب الذي حول الخليج إلى محميات أمريكية؛ هم وليس عراق صدام حين غزى الكويت، وليس هجمات القاعدة في الحادي عشر من سبتمبر.

لا يمكن محاربة أمريكا! هذه هي الفكرة المحورية لهذا الدجل المنمق. والدليل سيجده المرزوقي في الوعي السائد اليومي: «ولولا صحة ما نقول أي إمكان ما وصفنا إذا جد الجد فاقتنع الأمريكيون أن بلداً ما يهدد المصالح الاستراتيجية تهديداً فعليًّا لما رأينا الصين وأوروبا وروسيا والهند كلها رغم كونها لا وجه للمقارنة بين قوتها وقوة إيران تهادن أمريكا ولا تخرج عن طوعها عندما تكشر ولو بمجرد التلميح: فهم جميعاً لا ينسون ما حصل لليابان والألمان بل وحتى للاتحاد السوفياتي».

مرة أخرى وأخرى يحاول الكاتب أن يغالط القارئ فأوروبا

والصين وروسيا تنافس أمريكا ولا تهادنها لما يصل الأمر إلى قرارها المستقل، فهذه البلدان تملك إرادتها وتناور بما فيه الكفاية لضمان مصالحها، وما يحصل في مربعات النفوذ من تفاهم هو خارج موضوعنا عن قصة الهيمنة الأمريكية ومحاولتها التحكم في القرار السياسي. هنا المشكلة: هل أمريكا تتحكم بالقرار السياسي الصيني أو الأوروبي أو الروسي؟! لا يقول هذا الكلام إلا جاهل، ولا يقيس مثل هذا القياس إلا إبليس. الصراع اليوم في المنطقة هو في مقاومة النفوذ الأمريكي على القرار السياسي وليس على النفوذ الخارجي. وإذا استثنينا أوروبا، فإن العنتريات الصينية والروسية هي من حيدت الخيار العسكري وسلطة التدخل. وفرق بين المناور والمهادنة في كسب النفوذ الخارجي وبين التسليم والاستسلام حيث لا طريق للتخلص منه إلا بفعل الممانعة لا بديل عنه.

هكذا بات المرزوقي يتدارك في الوقت بدل الضائع الموقف ليعيد إخراج النزاع في لبوس التنظير لأسوأ خيارات الأمة، يتعدى الأمر إلى الداخل اللبناني ليدين المعارضة ويجعل من تيار السلطة عنوان الممانعة الحقيقية وتحرير لبنان من دور الدارقة التي تخفي من ورائها مناورات إيران!؟

وعليه، بما أن إيران حسب المرزوقي تسعى إلى إخراج العرب من المعادلة الدولية، يكون إخراج العرب لإيران من هذه المعادلة مشروعاً. فبعد هذه المقدمات الفاسدة، تصبح الدعوة قائمة اليوم عند المرزوقي وأشباهه من صناع الثقافة السوداوية والأيديولوجية الطائفية التحريضية التي تسعى لركس العقل العربي في تفاهة التكفير والاستئصال بخبث نظري يخفي مضموناً طائفيًّا ساذجاً لكنه قاتل لن يجر على العرب إلا الويلات، أجل فبعد كل هذا تصبح الدعوة المرزوقية للعرب أن يدخلوا في حرب مع إيران وبتحالف أمريكي صريح. إن المرزوقي هو أسوأ

نموذج لهذا النهج الخاطىء وهو لهذا ليس مؤهلاً للدفاع عن القضايا العربية. فكل من يشعل الحروب الطائفية ويقتحم مجال التنظير للأمة وهو يكيل الشتائم صراحاً ولا يرعوي هو عدو حقيقي للأمة لا يهمه سلامتها ولا يهمه سوى أن يقدم سلعته الرخيصة في سوق الاستقطابات القذرة. وإلا ما معنى أن تكون الأمة عرباً لا عجماً.. وسنة لا غير.. وطبعاً لو سايرنا المرزوقي في هذا الشطح سنجد أنفسنا أمام سلسلة من المضايقات تنتهي بالأمة إلى قزم سياسي وثقافي لا يملك أن يرفع صوته خارج مداشره الصغيرة بدل أن يكون صاحب ريادة كونية كما يدعي الكاتب. ليس هذا إلا ما يطلبه المرزوقي صراحة، العرب لا بما هم عرباً فيهم الشيعة بتعبيراتهم جميعاً والسنّة بتعبيراتهم جميعاً، بل والمسيحيين وغير المسيحيين، بل العرب تحولوا في هذه الهلوسة المرزوقية إلى طائفة: سنة. فهو يقول: «وبدايتها (يقصد محاولة إيران لإخراج العرب من المعادلة) مفيدة لأنها حركت العامل الذي يمكن أن يكون محور التوحيد الحقيقي لكل العرب أعني الإسلام السني الذي هو في الحقيقة الإصلاح المحمدي إذا فهم على حقيقته فهماً يلغي حتى المعركة الزايفة بين العلمانية والأصلانية».

أصبحت إيران ومن ناظرها سلوكاً وموقفاً في دائرة الشيطنة، بل معياراً للشر. وسواء أكان الموقف عادلاً أو لا، فإن كل من وقف موقفاً يلتقي مع الموقف الإيراني فهو مرفوض ومريب ومدان، حتى لو تعلق بقضايا الاستقلال والحق في تقرير المصير والتمسك بالوحدة الوطنية. فإذا عرفت كيف يتصرف الموقف الطائفي الأحمق في لغتنا السياسية المعاصرة، فما عليك إلا أن تستمع إلى المرزوقي وهو يعتبر أن التفاوض مع أمريكا ممكن وضروري، لكن إيران تنافس العرب فيما لا يمكن المساومة عليه أو التفاوض من أجله. والقضية التي تنافس فيها إيران العرب هي قيادة الإسلام العالمي، «اعني القوة الروحية الوحيدة

المنبقية في القرن الحادي والعشرين بعد تدجين الغرب لكل القوى الروحية الأخرى: وتلك أمور ليست خاضعة للتفاوض إذ هي عين الوجود المستقل للأمة».

وعليه كان لا بدّ أن يحذر العرب ويعتبرون أن الخطر الحقيقي ليس أمريكا ولا حتى إسرائيل، بل هو إيران. لقد عبر المرزوقي هنا، ليس عن سذاجة سياسية، ما دام يتحدث عن قيادة للإسلام العالمي يتنافس عليها العرب وإيران. ويا ليتهم تنافسوا في ذلك ـ وفي ذلك فليتنافس المتنافسون ـ، حيث كل قطر عربي تحول إلى جزيرة معزولة وكيان محروس، وحيث لا هم يشغل العرب اليوم سوى أن يعيشوا ككائنات سياسية في الحدّ الأدنى من نفوذهم القطري. لكن الغريزة العرقية المرزوقية تأبى أن تعترف أن تاريخ الحضارة الإسلامية هو تاريخ هوية مركبة ساهم في قيادتها الطولى غير العرب. وليس أخطر من هذه الدعوة التي لا ينهض بها عقل أو ضمير عقلائي أو شرعي سوى نزعة عصبية غير متحضرة البتة.

ويحذر المرزوقي العرب من أن إيران ستسرق منهم سر قوتهم إذ لا قوة لهم سوى هذه القوة الروحية نفسها. لكنه قبل قليل تكبد مشقة السفسطة والتغليط ليوضح أن قوة العرب حتمية لامتلاكهم قوة الموارد الطبيعية بخلاف إيران ذات الموارد المحدودة. لماذا نسي المرزوقي نبوءته الاقتصادية حيث العرب مؤهلون ليكونوا بعد سنوات بقوة الهند ـ ونعم القوة التي جادت بها نبوءة المرزوقي، حيث لا ندري هل الهند ومن يتقدمها تنموياً ستظلّ على حالها أم أن قطار التقدم والتنمية سيجعل العرب وفق وتيرتهم في النمو يتراجعون القهقرى ـ، ليحدثنا الآن عن أن يد العرب بيضاء من دون القوة الروحية وحقهم في قيادة الإسلام. لقد انتقد المرزوقي مسألة الإمامة عند الشيعة بوصفها توريثاً غير عقلاني للخلافة، وها هو بعد فهمه السيئ لمفهوم الإمامة نفسها، يمنح العرب

حق القيادة الروحية للإسلام العالمي من دون دليل راجح، وهو بهذا يتجاهل على الأقل فلسفة الاستبدال القرآنية التي تجعل المؤهلين لهذه القيادة مطلق الأقوام ما داموا قادرين على ذلك. فالعرب قبل قليل سينهضون كقوة بقوة الطبيعة وحتميتها لأنهم يملكون الموارد الكبيرة. لكنهم بعد هرولة سفسطائية مرزوقية سيكون العرب لا مستقبل لهم إلا بالرسالة. فلا معنى: «لوجود العرب التاريخي من دون الرسالة الإسلامية إذ هم بهم دخلوا التاريخ الكوني وبه يعودون إليه. ولعلم الجميع بذلك تدور الحرب العالمية الرابعة حول القرآن».

على هذا الأساس وجب أن يتحرك العقل السياسي العربي باتجاه قبول التحالف مع أمريكا ـ تحالفاً وليس حماية ـ. الأمر الذي لا يقوم إلا إذا «تقاسم المقاومة والأنظمة الأدوار في إدارة المعركة الاستراتيجية مع أمريكا. فالمقاومة ينبغي أن تواصل إذاقة أمريكا الأمرين لتأتي إلى الحلف بين الأنداد والأنظمة ينبغي أن تواصل مهادنة أمريكا لتجنب الحسم بحرب مناجزة شاملة. وذلك هو شرط حرب المطاولة كما حددها ابن خلدون: والحمد لله فذلك ما هو حاصل الآن حتى وإن لم يكن بتخطيط قصدي».

ابن خلدون يحضر في المغالطات المرزوقية عند الطلب. مع أن ابن خلدون نفسه أوضح بما فيه الكفاية أن الحضارة ليست شأناً عربيًّا. بل هم مفسدو الدول والحضارات. لكن لننظر إن حديث المرزوقي هنا أصبح التعبير الأكثر سفسطة ومحاولة لتعقيل خطاب الزرقاوي تماماً. فقبل قليل يحدثنا عن أن العنتريات لا تنفع وبأن لا مكنة لأي مقاومة أن تنتصر على القوة الأمريكية. بل كل محاولة من ذاك القبيل تصب في مصلحة أمريكا وإسرائيل. لكن هنا الحديث سيتحول ١٨٠ درجة، لتصبح المقاومة فقط حينما تكون زرقاوية تقتل المدنيين أكثر من الأمريكان هي المطلب الأساسي لحماية استراتيجية التحالف مع أمريكا. إذن ليست المقاومة عنترية إلا حينما يمارسها الشيعة، وليست ناجعة إلا حينما

يمارسها قتلة الشيعة!؟ ولكنها مطلوبة ولو مع الغرب كله حينما ينهض بها من كتب يرشدهم يوماً لأفضل مقاومة في العراق: أي الزرقاويين. فالمرزوقي لا يرفض إرهابهم وتكفيرهم إلا حينما يصبح غباوة يستفيد منها الشيعة وحلفاؤهم.

يجب أن تكون القيادة للإسلام العالمي للعرب حتماً. ومبرر ذلك، هو الإسلام والعروبة. ويمكنك أن تدرك إلى أي منحدر سفسطي يقودنا هذا التحليل المغالطي. العرب يجب أن يقودوا الإسلام بسبب الإسلام!؟ وأيضاً يجب على العرب أن يقودوا الإسلام بسبب العروبة!؟ وهذه التكنولوجيا العمياء يمكن حلها كالآتي: العرب وجب في حقهم قيادة الإسلام لأنهم عرب. والعرب وجب في حقهم أن يقودوا الإسلام لأن الإسلام إسلام. وحينئذٍ وجب على إيران وبالتالي غيرها من الأمم غير العربية حتى لو كانت سنية خيارين لا ثالث لهما، حيث «وعندئذٍ ينبغي أن تعود إيران إلى حجمها الطبيعي: الخيار بين أن تكون مجرد تابع روحي للحضارة العربية الإسلامية أو أن تعلن صراحة عن كونها مجرد غطاء إيديولوجي للصفوية».

فحيثما تطلعت أمة من الأمم غير العربية للقيام بدورها الطليعي في الإسلام كانت خارجة عن منطق الإسلام. وهو منطق يضارع منطق شعب الله المختار، حيث ليس للمرزوقي دليل شرعي يعزز هذه العصبية التي تمنح للعرب حق احتكار السلطة الروحية للإسلام، فيما ينفي أساس أي سلطة روحية في الإسلام بعد غياب صاحب الدعوة كما هو جوهر دعوة أبي يعرب المرزوقي وقوام مشروعه في نفي السلطة الروحية في الإسلام رأساً.

هل الطائفية تهمة للحزب الشيعي كما يقول المرزوقي؟

كلا، إن الشيعة طائفيون لمجرد أن يكونوا شيعة. والطائفية ليست حينئذ تهمة لهم بل هي حقيقة فعلية فيما يجري لا سيما في العراق. الشيعة طائفيون بغض النظر عن التوظيف الأمريكي للورقة الطائفية. لا

ندري ما الذي يجب أن يقوله المرزوقي أكثر من أحكام القيمة الساذجة أحياناً والمغرضة أخرى حتى لا نسمي ما تقيأه عقل مريض بالطائفية، أنه طائفية بالفعل!؟ وهذا بغض النظر عما ذكرنا تأسيس خطير لمستقبل مظلم من القطيعة التي يرقص لها نظر المرزوقي وينفخ في نارها بعناد، حينما نقول إن التركيبة البنيوية للتشيع وللشيعة طائفية. هذا في أقل التقادير كما سيعرب الكاتب مراراً، وجب على الشيعة أن لا يقبلوا داخل الأمة إلا أن يصبحوا غير شيعة، أي سنّة. تحصيل حاصل. وهي آلية المرزوقي الحجاجية. أن يكون العرب طليعة الإسلام لأنهم عرب ولأنه الإسلام. وعلى الشيعة والسنّة أن يتوحّدوا والحلّ هنا كما في كل الحلول الغرائبية للمرزوقي، أن يصبح الشيعة سنة!؟ وبعد ذلك ليس في وسع عاقل إلا أن يقول ـ إن لم يقل ما أوقحه من كلام ـ يا له من منطق. . ويا له من تحليل؟!

لقد مزج المرزوقي تحليله السياسي القائم على خلفية طائفية تستهين بكل شراكة شيعية سنيّة في نضالات الأمة، وتتساهل في التخوين وتنحطّ على مناخرها في مستنقع نظرية المؤامرة حتى سخفها، وبين التحليل الاستراتيجي. حيث الشيعة أشرار ـ لا شيء شر منهم ما دام ليس في شينهم سوى منبع الشر كما جاءت في حكاية ابن عبد ربه، لما رأى فيها أحدهم شر وشنار وشقاء وما شابه ـ في كل تحليل موضوعي لا يمكن أن يوجد الشر المحض إلا إذا تعلق الأمر بالشيعة والتشيع، فلا وجود للإيجاب الذي وجده المرزوقي في كل أمر قابل للنقد إلا في الشيعة.

والمرزوقي ليس فقط بسبب هذه الغريزة الجامحة لكراهية الشيعة ـ حيث لا أدري لماذا رأى فيهم شراً محضًا وقد كان يطوف على موائدهم ويحضر مجالسهم ويصاحبهم إلى حين قرر أن يكونوا شرّ الناس وأشقى الناس ـ ليس أهلاً للخوض في مسائل الخلاف، بل إنه مغالط كبير حتى أنه لا يحسن التنظير خارج شقوة الطائفية التي جعلت الكراهية تأكل كبده

وتفسد ضميره وتعور عقله إلى حدّ أمكن القول فيه أننا أمام نزوة طائفية عارية متقحبة في ماخور التجهيل والتغليط والتجديف!

ففضلاً عن خطر الشيعة في السياسة وفي تمذهبهم النقيض للتسنن حسب هذا التحليل الأجرب، فإن خطر الشيعة يتهدد الدين نفسه. لم يعد الحديث عن العنتريات ولا عن حزب الله ولا عن إيران، بل هنا حقًّا فاض كأس الكراهية ليصبح استطراداً مسرفاً سفيهاً يتعرض لعقيدة القوم وتربينهم وسلوكهم ونفسياتهم واجتماعياتهم وجغرافيتهم وتاريخهم، باختصار نحن أمام بيت القصيد، فالكاتب يعبر عن حقد طائفي لا عن أخطار أو حتى أخطار سياسية! فالشيعة مفرطون في المآتم وغلاة ولكن هذه المرة أيضاً في الكلام عن الدين، بل:

«فضلاً عن الأسلوب الممزوج والركيك وثقل الظلّ للدعاة والمتعالمين منهم في تفاهات وتشقيقات لغوية خلال محاضراتهم في الفضائيات من أكبر الأخطار على الدين ـ ومثله عند السنّة التي ابتليت بالتقليد السخيف للمناحات التي نجد نظيرها عند الدعاة المودرن من جنس عمر خالد لأن ذلك سرعان ما يتبين أنه في الحقيقة في خدمة المشروع الأمريكي ـ لأنها ستنفر منه فئات الشعب كلها وخاصة المتعلمين منها فلا يبق الدين إلا بشرطين أحلاهما مر: إما بالانحصار في القلة الأمية عندما تتحضر الشعوب الإسلامية أو بالحرص على إبقاء الشعوب في الأمية للإبقاء على سلطان الدّجالين بالدين».

وعلى عكس ما يمكن أن يتوقع المرزوقي، فإنني سأشاطره هنا الرأي، حيث كان كلامه سيصح فقط وفقط لو أنه كان نابعاً من الشروط الآتية:

ـ أن يكون كلاماً للإصلاح يتجه إلى حال الأمة بسنيّها وشيعيها لا يفرق بين أحد منهم. ففي مثل هذه الحالة لن يكون النقد طائفيًّا وتكون له ثمرة تربوية وأخلاقية وتوجيهية.

- إن ملاحظاته لا تستحضر مطلقاً المناخات والشروط التي يقوم فيها هذا النوع من الإعلام، ولا يستدعي تاريخاً من الحصار على الشيعة في أن يعبروا عن قناعاتهم حيث لم يمنحوا ما منح كل أمم الدنيا من فرص للتعبير عن أنفسهم.

- إن المثال الذي ضربه لنا نظيراً للطريقة الشيعية فيه مبالغة وتعميم سخيف، حيث كان لا بدّ من القول إن الشيعة وحدهم يستطيعون أن يميزوا رغم كل هذا الكلام بين الخطباء والعلماء، بين الخطيب العالم والخطيب المحترف.. إن أميي الشيعة وعوامهم يميزون بين أهل الخبرة وغيرهم. فالشيعي حتى لو كان في حكم العوام يدرك ممن يجب أخذ الفتوى، بخلاف من يخلط بين العلماء والخطباء. وكثير من عوام الشيعة يختبرون الفقيه المجهول الحال لديهم باستفتاءاتهم ليدركوا مقدار علمه قبل أن يمنحوه الثقة وإلا استعانوا بأهل الخبرة أو العدول.

- إن كلام المرزوقي صحيح لما يتعلق الأمر بفضائيات أشبه ما تكون بمجالس للوعظ، وإن كان ذلك دليلاً على أنهم يعرضون نشاطهم كما هو بعفوية، وبأن ذلك دليل إضافي على أنهم لا يمارسون التقية في عرض ما يجري في بيتهم الداخلي، فإنني أعتقد أن وضع إعلامنا يحتاج إلى وقفة وتأمل. ليس ذلك نظراً للتسامح في تدبير الشأن الإعلامي ووضع مصيره في أيادي غير مهنية ولا محترفة مع التسامح بل الفوضى في انتقاء الشخوص إعلاميًا وعلميًا، غلبة الحزبية والشللية والاعتباطية في العمل هذه ثمرتها. فكم من مشقق مبالغ وكم من ثقيل الدم عند هذه الطائفية أم تلك.. وكم من متعالم ومهازل تجعلنا نخجل ولا نقدر على أن ندافع أو نبرر من أمرها شيئاً.. فمع وجود هذه الشروط وإن كان قصد المرزوقي من هذا الكلام التعميم والتجديف، فإنني أنضم إليه في هذه الفوضى

الإعلامية، حيث لا بدّ أن تتكسر على طريق الممارسة لتكشف عن وجهها الناضج بعد أن تبلغ رشدها.

المشكلة ليس هنا أن ننتقد القبح والسذاجة والتفاهة حيثما حلت. فالشيعة مثل باقي بني البشر شعوب وقبائل ينالها من العوار ما قد يصيب غيرها. فقد يبلغ بعضهم الرشد وآخرون يتشبثون بالحماقة. ومثل هذا لا ينبغي أن يعمم. بل الشيعة حوصروا بما فيه الكفاية لتظهر لديهم من سلوكيات جمعية هي نفسها السيكولوجيا الجمعية للمضطهد. وهذه السلوكيات هي المؤشر على وضعيتهم التاريخية المزرية. ماذا تنتظر من طائفة حصدت كل هذه الكراهية بالجملة ولا زالت متهمة في أصل وجودها، في تاريخها وجغرافيتها؟! غير أن مشكلة الكاتب تبدأ لما يحاول أن يلصق بالمقاومة تهمة الطائفية ـ مرة أخرى وفي موقف نشاز لم نجد له مثالا غير الزرقاوي في آخر تصاريحه ـ.

إن هذا أمر لا يتطلب دليلاً من المرزوقي بل هو مفروغ منه، و«لسنا بحاجة إلى تفاقه نصر الله لكي نعلم أن الغرب لم يستعمر العالم من دون سياسة فرق تسد (. . .) ولكن السؤال هو: هل يوجد معنى آخر للتشيع غير الطائفية فتكون الطائفية مجرد تهمة من الأعداء ويكون حزب الله ليس طائفيًّا بذاته (. . .) لم أكن أتصور زعيماً يزعمونه لا ينطق عن الهوى يذهب به الغرور إلى ظننا سذجاً فيحاول إقناعنا بأن أعمال حزبه ليست طائفية بل تندرج ضمن تصدي العرب منذ بداية القرن الماضي للمشروع الاستعماري الساعي إلى تفتيت المنطقة العربية لكأن وجود الحزب نفسه ليس هو أهم جزء من هذا التفتيت. ذلك أن هذا الحزب ليس هو إلا أحد عناصر الجناح الشرقي من نفس المشروع الاستعماري المتمم لجناحه الغربي. فهو الثمرة الأولى وتلتها الثمرة الثانية التي هي تفتيت العراق ثمرة سعي الشاهين الأب والابن لبلع الخليج والهلال والتي يواصلها الملالي بدهاء أكبر، وثمن ذلك مساعدة إسرائيل لتحقيق

إسرائيل الكبرى حتى يتم تقاسم النفوذ على المنطقة العربية والعودة إلى التجربة المماثلة التي حصلت مرة قبل الميلاد: تهديم العراق وإعادة اليهود إلى فلسطين».

لقد قالها المرزوقي. ويكفي أن يقولها ويؤكد على أن الأمر مفروغ منه أو واضح عند العقلاء أو قطعي ليكون كذلك. فالتحليل يستقوي بالأحكام الجاهزة. وتكرير المحفوظات نفسها. المرزوقي هنا مثله مثل أي شخص طائفي آخر ولو من عامة الناس المشحونين بهذا المعجم السخيف لا يكلف نفسه التحقيق، حتى أن التواريخ تتراقص أمامه ويصبح أمر إيران اليوم مثله مثل أمرها يوم استعادت اليهود من الأسر البابلي، حدث هذا قبل قرون وقبل الميلاد. لكن المرزوقي الذي زعم أنه يقتفي أثر ابن خلدون قدم لنا مشهداً بهلوانيًا عن التاريخ بوصفه ظلال أزمنة تعانق بعضها البعض. ولقد قالها إنها العودة المماثلة التي وقعت قبل الميلاد في العراق. بهذا المنطق الصبياني ذي الخيال الفقير تتماثل الصور، وتتضخم هواجس المؤامرة وعودة التاريخ بدون شروط، حيث لم تكن إيران القديمة هي إيران الإسلامية ولا هي إيران اليوم، حيث هي اليوم مجموع أعراق، قد يوجد أهل فارس خارج إيران اليوم كما توجد الجذور العربية والتركية في إيران اليوم. لا الجغرافيا هي الجغرافيا ولا التاريخ هو التاريخ، قياس مع الفارق: قياس إبليس! لكنه عنوان المنطق المؤسس لهذا التحليل المتصابي المتحامق. بل الطائفية هي لصيقة بهؤلاء، «ولعل أكبر الأدلة على طائفية هذا الحزب دلالة اسمه».

وختامه سحت

أراد المرزوقي أن يختم مقالته التي هي في حقيقتها تصلح خاتمة لخلفية منجزة ومقروءة سلفاً. يكفي أننا نستطيع أن نتنبأ بنوبات هذا الهراء وهو يتدفق من أفواه قطعت مع عقلها وضميرها وهي تصب الكراهية في

صورة متوحشة لا يوجد فيها احترام لمعتقد الآخر على الأقل أيًا كان الموقف منها. خاتمة سحت تساءل فيها الكاتب وهو يقول:

«ولأختم بهذا السؤال الذي يحيرني لأنه في نفس الوقت العائق الأساسي للتحرر من الطائفية وتحقيق الصلح بين السنّة والشيعة وهو في نفس الوقت عقب أخيل في المذهب الشيعي كله: كيف يمكن أن يكون لزعماء التشيع منطق صحيح ـ تركا لمسألة صحة العقيدة إلى الفقهاء ـ إذا كانوا يبنون كل مذهبهم على النفي والسلب بما في ذلك سلب أساس المذهب ذاته أعني مبدأ الوصية المعصومة للمعصومين؟ فالمعلوم أن أساس التشيع هو مبدأ الوصية المعصومة للمعصومين مبدؤها الذي يعتبره أهل السن والجمع من المسلمين بدعة تنافي كل نصوص القرآن الكريم: فهل تكون الوصية ذات معنى إذا الموصي غير معصوم وعديم العقل أم ينبغي أن يكون ذا عصمة وذا عقل مساوٍ على الأقل لعقل الحكماء؟

لكن كل ما يقال في هذا المذهب عن الرسول الأكرم ينفي عنه التمتع بملكة العقل حتى بمفهومه العامي فضلاً عن الحكمة والعصمة. فإذا كان أي إنسان عادي متوسط الذكاء والحكمة فضلاً عن النبي لا يعلم أن صحابته هم على الصفات التي يصفوهم بها أصحاب هذا المذهب الصفات التي أستحي من ذكرها، ولا يعلم أن زوجاته لسن فاضلات ولم يتفطن إلى أن كل رجالات الأمة الذين بنوا مجدها التاريخي باستثناء واحد يمكن أن يتصرفوا من بعده كالأوغاد في عرف دعاية هذا المذهب فكيف يكون عاقلاً فضلاً عن أن يكون نبيًا معصوماً وكيف يكون فاهماً لأمور السياسة فيقرب منه مثل هذه الحثالة التي أنشأت أكبر إمبراطورية رغم حنق اللطامين؟

كيف لا يفهمون أنه لو صح ما يصفون به سلوك محمد ﷺ لسقطت الوصية فيسقط معها مذهبهم؟ هل يوجد من لا يفهم أن وصية رجل بالصفات التي يصفون بها كل أفعاله تصبح عديمة المعنى؟ أليس

أصحاب المذهب فاقدين لأدنى قدر من المنطق إذ هم مثل جحا يقطعون الغصن الذي يجلسون عليه: لا يستطيع الشيعي أن يزعم التشيع ما لم يفقه أساسها فيعود إلى التسنن إلا إذا قرر أن يخلط بين حب آل رسول الله وحب آل كسرى أنو شروان».

أحببت أن أنقل هذا الشطح الطائفي للمرزوقي لنقف على تساؤل آخر غير تساؤله الأحمق العاري من كل المعطيات التي تجعل منه غير مؤهل للفقه أو الكلام المقارن، على أن تساؤلنا هو أهم من تساؤل المرزوقي الذي تكرر مرات عديدة وأجيب عنه حتى بح القوم ولا حياة لمن تنادي سوى الإصرار على التجهيل والتدجيل والتجديف. وحسبك أن المرزوقي يتهم الشيعة بأنهم يصفون أمهات المؤمنين بما يترفع عنه كاتبنا فاسد الضمير في لغته الممسرحة تلك. فحتى عائشة التي خطؤوا حربها على علي بن أبي طالب برؤوها من الإفك فكان ذلك عنوان عقيدتهم في ما يخدش في شخص النبي الذي نزهوه ديناً وعقلاً. فلا يصار إلى تساؤل المرزوقي إلى بعد أن يفوت حيلته السفسطائية على المتلقي. ولو أن المقام لا يليق ولا يتسع لفضح هذا التساؤل البليد، وهذا التفلسف الأحمق وهذا التمنطق المغالط لأضحكنا على المرزوقي الثكلى، نظراً لجهله حقيقة مدعى التشيع وحقيقة ما يعتقد به الشيعة، حيث ما بقي له سوى هراء طائفي خلده أعداء الشيعة ملهاة للحمقى وعظاماً تتلاعقها كلاب الطائفية البلهاء. لكن لك أن تتصوّر فيلسوفاً مخاتلاً ومنطقيًّا مغالطاً، يتكبد كل هذا الممشى ويتحامق كل هذا الحمق ويتسافل كل هذا التسافل حتى يمنح لخطاب الزرقاوي منطقاً ويكسبه تحليلاً ويعقلنه بمنظور تفضحه كراهية تدفقت حتى أسكرت الكاتب المغالط. هذا ما سميته دائماً تعقيل خطاب التسلفن وتنوير خطاب الظلام والضحك على الذقون وسلب ملكة التمييز من الأمة بافتعال الفوضى الخلاقة في مجال التنظير حتى لو بدا التنظير فاضحاً جهولاً متحامقاً،

لأن المطلوب هو أن نقول ونقول أي شيء، ولا عبرة بالبرهان بعد أن حلّ البهتان. هكذا قزمت الغريزة الطائفية عقل الكاتب حتى لم يعد يرى لإنجازات المقاومة ما اعترف لها به الأعداء، حيث تحليل العاجز هو أن ننصب خبالات وخيالات نظرية المؤامرة وقاعدة الأشباه والنظائر منهجاً لرؤية العالم والناس. وهذا أمر تحسنه الجدات مع احتفاظهن بقوة التمييز وسلاسة الأخلاق. وأما مع كاتبنا المحتال، فإن التحليل بات مهلوساً حتى افتقد معه ملكة النظر وشامة العمل. ما رأيك أن نستمع مرة أخرى قبل أن نختم إلى واحدة من كلمات المرزوقي لأنني أريد لها الخلود بين جنبينا حتى يبصق عليها التاريخ يوماً، كما بسق على كل تخريفات الطائفيين الذين لم ينفع معهم خطاب ولا تسامح.

إن الشيعة أفسدوا الدين وأفسدوا السياسة، لذا سأتساءل وأساعد المرزوقي ـ أحد المرضى بالتشيع ـ ماذا بقي لهم لكي يرحلوا من الوجود، ويعود الأمر كما بدأ، حيث مشكلة خصوم الشيعة مع الشيعة هي مشكلة أنطلوجية! يتحدث الكاتب عن إيران تارة وعن الشيعة تارة، يتناسى أن ليس كل إيراني هو فارسي بالضرورة وليس كل من في الوطن العربي هو عربي بالضرورة وليس كل عربي هو سني فقط أو شيعي فقط أو مسلم فقط... مثل هذا الخلط والحصر والتصفيف لا يصدعن محقق. يقول الكاتب إمعاناً في التجديف: «لذلك فإنه لا يمكن لأصحاب المذهب أن يستمدوا سلطانهم إلا من ممارسات تعمم الغباوة على الشعوب حتى يقبلوا بمثل هذه الخرافات التي تقتل الدين وعندما يجدون ما يشبه الكلام الثوري والعنتري يحولون الشعب إلى تنظيم فاشي فيقتلون مع الدين السياسة.

ولن يخرج من هاتين الجريمتين في حق الشعوب العربية الإسلامية في الغاية إلا دكتاتورية الغوغاء بزعامة الديماغوجيا الجهلاء. وإذا واصلت النخب العربية بيع ضمائرها للملالي فإن النكبة القادمة لن تكون

توطيد أركان إسرائيل ما دون الضفة فحسب بل إسرائيل الكبرى التي تتقاسم العراق مع إيران فيسيطران على الخليج والهلال ويحققان ما يزعم حسن نصر الله أن حزبه ينضوي في حركة التصدي له».

ماذا عسانا أن نقول. فليس بالإمكان أن يعلق على كل كلام. فالكلام الذي ظهر سخفه يحمل تهافته معه.إذن لنختم:

أخيراً وليس آخراً:

ذكرت قبل قليل أن هذا التحليل قردي بامتياز. وآن الأوان أن تعرف ماذا أعني بذلك الوصف. لا يحتاج المرء وهو يقرأ هذا الفساد القولي الممتد الجذور في النظر والعمل اليعربي، إلا أن يستبدل عبارة ما أوسخنا في إحدى أمهات قصائد مظفر النواب، بعبارة ما أوقحنا، فيستقيم حينئذٍ الوزن ويتضاعف المعنى لنقول:

ما أوقحنا. . . ما أوقحنا. . . ما أوقحنا

ونكابر

ما أوقحنا

لا استثني أحداً

فحينما تستبد الوقاحة، ويهجم رعاع الكلمات، ويتدنى النظر ويتسافل العمل، فما علينا إلا أن نستدعي مظفراً. وحده هذا الشاعر الذي فطر على ركل الوساخة العربية. . بل وحده من عرف كيف يسخر من وقاحة ليل عربي كلما نسيِ هذا الأخير أنه ليل بالفعل، فأخذ يتغنى بفهلوة الصباح كبهلوان قذر. هذا الشاعر وهو طريح الفراش، وفوق مخياله المخضرم جبال من ذكريات هذا الشطح العربي البئيس، بعد أن بكى العراق وأشبع قلبه حزناً وهو صاحب القلب الهوري الأصيل المعتق بفطرة الطين اللزج بماء الفرات. . وبعد أن يئس ولا من يئس مثله من أمجاد العرب الورقية. . وبعد أن لعن من لعن ووصف من وصف بأولاد

الـ. . . قال أجمل كلام في المقاومة. . . يقول مظفر وهو الذي بتر السافاك الشاهنشاهي الإيراني خصيتيه، دون أن يفقد صوابه وتطيش كلماته أبعد من الصواب، ويمرض عقله وقلبه بهذه الايرانوفوبيا التي فاقت داء الإيدز في بيئتنا الثقافية والسياسية المستباحة للمرض والعدوى، يقول مظفر أمام مجد المقاومة:

أتحدى أن يرفع منكم أحد عينيه

أمام حذاء فدائي يا قردة

النار هنا لا تمزح يا قردة

أجل، حضرة المظفر. . النار هنا لا تمزح يا قردة. . وخطاب المقاومة لا يمزح يا سفهاء. . وأطنان من الاسمنت المسلح المنهار فوق هامات أبناء الضاحية لا يمزح يا أهل الوقاحة. . وسواعد المقاومين الذين أعجزوا الجيش الذي لا يقهر في أن يتقدم خطوة صغيرة في الجنوب لا تمزح. . هم لا يمزحون ونحن أيضاً لا نمزح. فلماذا يمزح فقط قردتنا حيث لا يمزح القرد الأمريكي الذي ابتلع لسانه واستوعب الدرس. . وهل الهزيمة ستمتد إلى مزاحنا، فلا نمزح إلا مزحة الرعديد. . أم أن لغة الطائفية الرعناء تجعلنا لا نرى إلا ما تراه، ولو اقتضى الأمر تغطية الشمس بالغربال والتعنتر برعاع الكلمات والتعالم حدّ الوقاحة.

وأنا هنا وعلى طريقة مظفر أتحدى واحدة من أسوأ المقالات والتحليلات القردية التي سقطت في سوق نخاستنا العربية هذه الأيام. لم نفاجأ طبعاً، حينما تصدر الوقاحة من أحد محترفيها البواسل. مقالة أبي يعرب المرزوقي المسماة: الكأس فاضت: مع عنتريات حسن نصر الله. والحق لا من فاض سوى كأس الوقاحة: مع هذه البارانويا المتعالية/ المتسافلة، المتشقلبة، لأبي يعرب المرزوقي. لذا استحق بها عندي على الأقل ـ وأنا على ذلك مسؤول وبه زعيم ولا أبالي ـ وسام: سفيه الفلاسفة وفيلسوف السفهاء، بامتياز!

المسكين يهجر
حينما فقد القرضاوي رشده

من يسكت هذا الشيخ؟

مرة أخرى وعلى صفحات جريدة المصري اليوم (٨ ـ ٩ سبتمبر ٢٠٠٨م) تنطلق تصريحات طائفية لامسؤولية من شيخ ظلّ حتى حين يوهم مخاطبيه أنه نصير لمشروع الوحدة والتقريب والاعتدال. وهي تصريحات اجترها الشيخ منذ فترة، ظهرت بشكلٍ فاضح أثناء حضوره فعاليات مؤتمر التقريب المنعقد بالدوحة خلال السنة الماضية. مفتعلاً يومها ضوضاء حول قضية بلا موضوع في شبه مسرحية سيئة الإخراج. ولا يزال الشيخ فيما يحدث به هنا وهناك مصراً على كلامه لا يحيد عنه قيد أنملة. ومع أنه ما ترك شيئاً في اتهام الشيعة والتحريض عليهم والحكم عليهم بالانحراف والضلال والبدعة بوقاحة ومن دون حياء، إلا أنه لم يتحمل أن يرد عليه كاتب من وكالة أنباء شبه رسمية من إيران ولا حتى تحمل ردوداً ودية من قبل الشيخ التسخيري، والسيد حسين فضل الله المعروفين في الساحة السنيّة بخطابهما التقريبي والوحدوي. وما إن ظهرت تلك التصريحات حتى تساقطت أوراق التوت عن عورات أخرى في شبه تصريحات داعمة للشيخ من قبل شخصيات ومؤسسات أغلبها يواجه اليوم الإفلاس الفكري والسياسي في الساحة الإسلامية. ويكفي أن جملة من العلماء والفعاليات من العالم مجَت هذا الخطاب الشاذ في

المرحلة وردته بكبير أسف. حيث يحسب لهذه الفعاليات احتكاكها الحقيقي بمشكلات العالم العربي والإسلامي، ونباهة فكرها وصحة مواقفها، وانخراطها في مشاريع الأمة وليس في مشاريع غوغائية ذات أبعاد إعلامية وشخصية.

ماذا كان يجب على القرضاوي قوله أكثر مما قاله شططاً، حتى يحق لضحايا تحريضاته المتكررة أن يعتبروه رسميًّا رجل طائفية حمقاء أو رجل فتنة عمياء؟

وبأي نوعية من العبارة غير ما صدر من تصريحاته اللامسؤولة وفي أي ظرفية غير ما نحن غارقون فيه اليوم، حتى لا يحق لنا وصفه بشيخ الفتنة بامتياز؟

كيف نثقف الخلاف لا كيف نهستر الخلاف؟

إن التبديع والتضليل للشيعة جهاراً والتحريض عليهم والتخويف منهم عنوة والتجديف الأهوج الذي بلغ مداه حتى بات هذياناً يشفق على أصحابه وعقدة جاثمة في نفوس هذا النمط من رموز الفتنة، أصبح يشكل استثناءً فيما ينبغي التحلي به إزاء حقوق المختلف. إنه ومن دون خجل يسيء إلى عقيدة يعد أصحابها بالملايين المملينة. وهم جزء لا يتجزأ من جملة المليار ونصف مسلم التي يتمشدق بها الشيخ نفسه متى تحدث ببجاحة وفخر عن عدد المسلمين اليوم في العالم ـ بمعنى آخر يقصد مليار ونصف أغلبهم من أهل الضلالة والبدع إذ أغلبية المجتمعات السنيّة على التدين الشعبي المتهم بالبدعة والضلالة من قبل شيوخ التكفير والتضليل ـ ربما نسي شيخنا أن الأمة ليست ولن تكون منذ غياب صاحب الدعوة ﷺ على مدرسة واحدة ولا على هوى شيخ واحد. فهناك في العالم السني نفسه ـ الذي يحب القرضاوي التعبير عنه كما لو كان رأياً واحداً وعقيدة واحدة ـ أغلبية من المؤمنين يتصوَفون ويعيشون على

التدين الشعبي الذي يجعلهم يقدسون مقامات الصلحاء والأولياء ويبنون عليهم المزارات، وهم في ذلك يسلكون على الطريقة الشيعية نفسها. وهم إذ يكفرون الشيعة ويستشهدون بمظاهر التدين الشعبي الشيعي، يكون الموقف شاملاً لعموم المسلمين سنّة وشيعة، من الذين هم على الطقوس نفسها.

إن هذا الفكر هو من جعلهم يوماً من الأيام يكفّرون المؤمنين في البلاد السنية ويحملون طقوس أهلها على الشرك. إن الشيخ القرضاوي يظن خطأً أن الأمة هي سنية فقط أو أحياناً إذا تلطفوا، هي سنيّة وشيعية فقط، الأمة واسعة متعددة المدارس والمذاهب والطوائف والأقليات. فحتى المذهب الواحد فيه مذاهب، والطائفة الواحدة فيها طوائف، هذا واقع لم يتغير حتى في أكثر اللحظات التي ساد فيها السلطان العاري والتحيز الشقي، حيث أمكن فيها الاستئصال خارج أي رقابة للضمير الإنساني والمواثيق الدولية التي تمنع التحريض وقمع الأقليات والسعي إلى استئصال قناعاتها وعقائدها، فإذا كان هذا يزعج شيخنا وأمثاله، فهو واقع قائم لن تجدي معه شوشرة وزمجرة شيوخ الفتنة. وهو أمر لدينا نحن الطيبون الإنسانيون الأحرار الديمقراطيون التواصليون الحواريون؛ باختصار المسلمون المعتدلون حقًّا، مقبول وطبيعي كما هي عادة أهل الدنيا المتحضرين. إن التعددية مصير الأمم قاطبة لا رجعة فيها إلا في خيال الرجعيين.

فماذا أعددت لها من خطاب للتدبير السعيد يا شيخنا بدلاً عن خطاب الطائفية المتوحش والبالي، إن الأمم القوية اليوم ليست قوية بوحدة عقيدتها وطقوسها وأساليب دواوين التفتيش، فأنت بهذا الفهم الرجعي تعيش زمن ما قبل الدولة، فحينما تصبح الأمم ضعيفة والدول هشة، فإن كل ما فيها يصلح مبرراً للحرب الأهلية. ودائماً هناك ما

يصلح لذلك عرقيًا وطبقيًا وجهويًا ودينيًا وما شابه. إن الخصومات والصراعات التي تقوم في المجتمعات المنسجمة دينيًا وطائفيًا ومذهبيًا لا تقلّ عن نظيراتها المتعددة المكونات. انظر إلى ذلك الصراع والنزاع اليومي في أرشيف القضاء، القتل والفتك والسرقة والاعتداءات والإهانات والأنانيات التي يقدحها السلوك والثقافة والأوضاع الطبقية وما شابه.

القرضاوي يحب أن يستشهد بالعراق ولبنان، وبوقاحة أيضاً يجعل مشكلتهما في وجود الشيعة لا في غيرهم ـ لا يوجد ما هو أوقح من هذا الوصف الطائفي القبيح ـ وكأن التشيع دخيل وجديد على البلدين، وكأن الشيعة هم أصل الفتنة هناك، لكن ما سبب الفتنة في السودان وأفغانستان والصومال وفلسطين وما شابه، ولماذا تفترض أن الفتنة تتبع كل وجود شيعي. وهل وجب أن يكون قربان الوحدة أن نرمي بملايين الشيعة في البحر، ما هو منشأ هذه الطهرانية المغشوشة التي تمنحها نفسك ورأيك: أنا الحق وغيري الباطل.. أنا الصواب وغيري الخطأ.. أنا الإجماع وغيري الشذوذ.. أنا الصراط المستقيم وغيري الانحراف.. أنا محور الاستقرار وغيري مصدر الفتنة.. أنا الغيور وغيري اللامبالي.. متى إذن ننتهي من هذا الخطاب الظلامي المهستر، لكي نفتح كوة نحو عالم لم يعد رشده يسمح بحماقاتنا. وماذا يعني شيخنا بأن تقوم الدول السنية بمنع الاختراق الشيعي؛ هل يقصد أن تعلن الحرب رسمياً على الدول الشيعية، وتؤسس لها لجاناً أشبه بدواوين التفتيش وبوليساً خاصاً للضمير، وجيوشاً تنسى كل وظائفها لتصبح حارسة العقيدة، تمنع الناس من القراءة والاتصال بالمعرفة وتتدخل في ضمائر الخلق. من أي غاب أتيت يا شيخنا ومن أي الكهوف امتحيت خطابك الوحشي هذا. ولا تحسب أنك وحدك تملك أن تتحدث وتغضب وتحتج. إن كنت رأيت

نفسك كما ذكرت في حوارك مع الصحيفة المصرية أنك خوفت الشيعة بكلامك الذي لا منطق يسند ظهره ولا أخلاق ترفعه، فأنت واهم.

يا عزيزي القرضاوي أنت في أرذل العمر لم تعد تملك خطاباً يقنع جدتي فكيف بهذا الجيل المتعطش لمن يقنعه لا لمن يستغفله بخطاب ميت ومميت. ومحفوظاتك الخمسينية والستينية تهرأت وتقيحت وما عادت تطرب أهل الحي ولا حتى أهل الدار، هذا واقع أنقله لك من داخل الرأي العام نفسه الذي سعيت ولا زلت تسعى لإثارة عواطفه وانفعالاته في قضايا لا يعلمها حقًّا.

المجتمعات الغربية يا شيخنا ليست منسجمة في معتقداتها الخاصة ـ كل المجتمعات الغربية هي متعددة تتعايش داخلها مذاهب وطوائف وأعراق وطبقات اجتماعية ومجموعات وأقليات بلون الطيف ـ بل هي منسجمة في إحساسها الوطني المشترك المبني على مفهوم المواطنة والمصلحة والوفاء للأرض والشعب والقيم المشتركة التي تظلّ مشتركة حتى لو توزعتها المذاهب والأديان والأعراق، بل إن المجتمع المتحضر الذي يحترم كرامة مواطنيه يحول التعددية إلى عامل إثراء وقوة لثقافته، كما أن المجتمع المتخلف الذي لا يحترم كرامة مواطنيه يحول الوحدة الوهمية إلى قبح وملل وجمود وتخلف، إن قياس عظمة الأمم والشعوب يا شيخنا اليوم هو في مدى احترامها للتعددية والاختلاف وليس في انسجامها الموروث الذي لا يقدم ولا يؤخر، والذي ترعاه الأمية والانزواء. الوحدات المفروضة بالقمع والوهم. إن للتطور ضريبة. فماذا تنتظر من المجتمع المفتوح والعولمة وتقدم التعليم وتطور الحقوق المدنية والحريات العامة وتداخل الثقافات وتصاغر الكوكب حتى بات قرية صغيرة بفضل ثورة الاتصال والتواصل. . . أتريد أن نقبل بكل هذا دون ضريبة انسياح القناعات. وبدل أن تبحث عن خطاب يدرب عقول

الأجيال على احترام الآخر وعلى التسامح، ها نحن نراك تنفث سم التعصب وتختفي داخل قوقعة مذاهبك المحروسة. دعني يا شيخنا المعتدي أعلمك شيئاً من اللَّياقة التي يجب أن نتحلى بها جميعاً في جيلنا الذي يهوى التعايش والتسامح ويقبل بالاختلاف. إن الخطر لا يكمن في الاختلاف كما يزعم بقايا أزمنة الظلام.

إن عصرنا يعلمنا أن نختلف ونختلف في تسامح واحترام، لنلتقي في مربعات مشتركة هي عامل وحدة أقوى من الوحدات المفروضة بالوهم والجهل وكموروث أزمنة الانحطاط. لنختلف حتى نعرف كيف نبني وحدتنا العقلانية الواقعية المقنعة الجميلة: الوحدة في الاختلاف السعيد. الاختلاف هو طريق التوحد الأقوى في نطاق المشتركات المتعددة: الإنسانية الوطنية الثقافية المصلحية التاريخية الدينية. . . وبدل أن تضع يداً في يد مع المختلف لتربية الأجيال على التعايش والاقتصاد في الخلاف والتوصل إلى صيغ للتعايش والتقارب بين المذاهب بما يؤسس لثقافة جديدة تهذّب العلاقة المتوترة بين أبناء الطوائف والمذاهب التي لا أنت ولا من قبلك ولا من بعدك يملك إزاحتها من الوجود، أصبح حاميها حراميها. ألا يردعك عن هذا أن يكون خطابك يشوه سمعة المسلمين أمام عقلاء الأمة وأمام العالم. . ومن سمح لك بأن تعيد رسم الخرائط وتوزيع الجغرافيا. فهل أنت معني ببلداننا أكثر منا. وهل انتماؤنا لأوطاننا أقل من تسلطك عليها بسبب المذاهب المحروسة. إن الذين يخافون كالخفافيش من الاختلاف هم كائنات أحفورية منبعثة من رميم الماضي ومن أزمنة ما قبل الدولة وما قبل فكرة المواطنة وما قبل ثقافة التسامح والاحترام للآخر. ترى ماذا بقي بعد كل هذا. . وما الذي لم يقله شيخنا المفدى لتأجيج الفتنة الطائفية؟

لقد عادت حليمة إلى عادتها القديمة: القرضاوي يغضب ويزمجر

فيقول ما لا يجوز أن يصدر عن أهل الرشد. يكفي أن الرادون عليه الممتعضون من تصريحاته اللامسؤولة هم من رجالات الدعوة والفكر والسياسة، . ففي ظرفية صعبة بتقدير أهل الفكر والسياسة، يعبر هذا الفكر الانسدادي عن بالغ شقوته. لم يعد في جعبة شيخنا الأمير ما يقدمه للأمة في هذا الزمان وفي أرذل عمره سوى نفثات طائفية تحريضية هوجاء، قوامها معلومات مغرضة تارة وساذجة تارة أخرى. كأني بشيخنا الأمير قد أفلس في سوق الدعوة والدعاية فشاءت له شقوة أرذل العمر أن يكبكب في حجيم الطائفية الرعناء ويختطف له بعض الأضواء في (مجاكرات) ضارة بحاضر الأمة ومستقبلها.

التخويف والتحريض والقتل بالإشارة، تلك أسلحة شيخنا اليوم في سوق من التهريج الطائفي يعاني أهله كساداً مريعاً على مستوى الرشد. ترى ما هي دوافع شيخنا الأمير وما هي مطالبه وما هي غايات تصريحات حمقاء كهذه. وقبل ذلك كله ما معنى ما قال؟

شيخنا الأمير يقول إن الشيعة ضالون مبتدعون. وهو لم يكفرهم أو يصفهم بالكفر البواح ـ كثَّر الله خيره ـ فهو يتفضل على الشيعة بأنه لم يكفرهم لكنه اكتفى بتبديعهم وتضليلهم. فهم في محكمته الخاصة التي تستند إلى رأي إجماع مذهبه وليس إجماع الأمة بكل أطيافها ومدارسها ضالون مبتدعون. وإذن أمثالهم لا تقبل شهادتهم ولا روايتهم ولا يحملون على محمل ـ وبالتالي حتى مقاومتهم ليست معتبرة ولا دماؤهم محترمة لأنهم ليسوا عدولاً حتى لو كانت مقاومتهم هي ما يدفع البأس عن الأمة كلها، وليست ثرثرة القرضاوي كلها بقادرة على تغيير واقع ذل العرب والمسلمين. هذا هو التكريم المنتظر منه لمن قدموا أرواحهم ورهنوا مصيرهم للدفاع عن الأمة. . إنه دم رخيص لا اعتبار له حتى لو أهرق في الدفاع عن كرامة الأمة، لسببٍ بسيط وقناعة ضميرية: أن هذا

الدم هو مهدور سلفاً وهو غير محترم فقهاً: هو دم مهرق بالقوة في خيال شيوخ الفتنة. ما قيمة دم يراق في سبيل كرامة الأمة، وقد كان من المفروض أن يراق شرعاً. فالدماء التي يقدرها هؤلاء هي الدماء المحترمة. والدم الذي سال في حرب الكرامة هو دم غير محترم. هل عرفت لماذا كل هذا الاستهتار؟

لكن ثمّة صك غفران تكرم به شيخنا الأمير، وذلك حينما نزع عنهم الكفر البواح. على الأمة أن لا تخدع بهذا الخطاب المغرض لأنه يعنيها جميعاً ويجعلها تتآكل من أطرافها. اليوم الشيعة وغداً الصوفية الذين كفروهم وبدَّعوهم حتى شبعوا وآخرون مثل الزيدية والأباضية.. وغداً سلفية ضدّ أهل السنّة.. وبعد غد حنبلية تكفر وتبدع مالكية أو شافعية أو حنفية.. مسلسل التضليل والتبديع هنا ثقافة وعادة وأحياناً هسترة لها نوبات.

وإني أسميه شيخنا الأمير، لأنه يتصرف كأمير يخول له خياله الفقير أن في مقدوره التحكم في ضمائر الناس وعقائدها. ففضلاً عن أن هذا موقف لا يجدي نفعاً، فهو موقف استفزازي أهوج. شيخنا يتصرف كأمير يصادر الأمة حقها في الاختيار. فيما يعنيني شخصيًا أقول: طز وألف طز على هذه الهسترة المرضية. أكبر قوة في العالم لن يكون لها الحق ولا القدرة على أن تسلب من إنسان حر قناعاته. فقناعاتنا لا تسلب بقوة ولا تباع في سوق النخاسة. لكن أخلاقنا تفرض علينا ـ ونحن قادرون أكثر من شيخنا الأمير المسكين على أن نملأ الدنيا ضوضاء من هذا القبيل ـ أن نختار ما فيه مصلحة الأمة. قناعةً لا خوفاً.. إحساساً بالمسؤولية لا تقية تجاه من لا يهابهم نمل الأرض.

من جهة أخرى زعم شيخنا الأمير أن الشيعة تصرف الملايين بل البلايين على التبشير الشيعي ـ يا لها من عبارة مغرضة ـ ويبدو الأمر

واضحاً هنا. إن شيخنا الأمير هو أكبر من صرف أو صرف له للدعوة ـ أو بالأحرى التسلط والتفرد بوسائل الدعوة ـ، وهو يقوم بما لا تقوم به مؤسسات شيعية مالاً ورجالاً. فهذه الفضائيات العربية تفتح له المجال ليعبر عن رأيه بلا رقيب. بل هذه الجزيرة وهي الأوسع انتشاراً والقناة العربية الأولى تفسح له أوسع المجال للتعبير عن رأيه وزيادة كشيخ أمير، فما الذي يزعجه من تلك القنوات البسيطة والضعيفة والتي لا زالت تتكامل في مهنيتها، وهي تؤكد على أن الشيعة لو كانوا كما يصورهم القرضاوي يصرفون البلايين على دعوتهم لكانت قنواتهم مهنيًا وتقنيًا هي الأولى. المسألة وما فيها أن شيخنا الأمير وجد أن سوقه كسدت بعد صعود نجم الشيعة ـ رغماً عن عين شيخنا الحسود ـ بعد أن تحولت عن خطابه المكرور والممل والانسدادي الأضواء وسلطت على جيل غير جيله وعلى آفاق غير آفاقه. إنه أصبح يرى خطابه مقارنة مع الذي يجري أكثر عثياناً، فقرر أن يقول شططاً. ثم بعد أن أعلن تضليله وتبديعه للشيعة ـ عينك عينك ـ يبرر كأحمق أنه قال الحق ويتساءل: لماذا يردون عليه؟؟. لكن ما لا يريد أن يفهمه شيخنا الأمير ولا مريدوه الذين حجب عنهم الشيخ رؤية العالم الجميل من حولهم، أن الشيعة حتى اليوم لم يحاربوه ولم يردوا عليه كما يستحق حتى وإن كانت الهسترة الطائفية قد بلغت مداها مع شيخنا الأمير.

تصريحات القرضاوي: عنترية في غير محلها

من حق المرء أن يتساءل عن الأسباب الحقيقية التي حركت القوة الغضبية للشيخ القرضاوي بافتعال توتر بدا في تصاعد في الزمان والمكان غير المناسبين. ومن حق الناس أن يرقوا في تحليلهم حول سر هذه الهجمة الطائفية التي بات القرضاوي لا يحسن سواها، فلا يستسلموا

لتبريرات الشيخ الذي اعتبرها مجرد كلمة حق يريد أن يبرئ بها ذمته الواسعة. وقد بدا الشيخ متشرعاً إلى حدّ نسي مقاصده كلها ونسي اجتهاده كله ليتحدث في زمان استثنائي لا يسمح بالحماقة وفي منطقة ملتهبة لا تقبل برسم أحمق. لقد اعتبر الشيخ أن تأصيله لجذبته الطائفية الحمقاء هو تطبيق سدّ باب الذرائع. وأقل ما يقال في هذه الجذبة أنها حمقاء، لأنها طائفية بامتياز. ومهما حاول الشيخ أن يبرر نزعته الطائفية التي انكشفت كفضيحة قبيحة، أنه جاهر برعونة في تضليل وتبديع الشيعة، مبرزاً نزعة استئصالية لا تجرئ فقط السفهاء على استباحة دمائهم في مناطق التوتر الطائفي بل استمر في تحريضه النظم على أن تتدخل بطريقتها التي لا يهم أن تكون دموية قمعية تحاسب الناس على قناعاتهم وضمائرهم. لقد أثبت القرضاوي أنه استئصالي يعيش عصراً غير عصرنا. وأنه ظهير فقهي للاستبداد ودواوين التفتيش وخطاب التبديع والتضليل وأنه زعيم مشروع سماه جهلاً منه: «هذه بلاد خالصة للشيعة وتلك خالصة للسنة». لكنني أسأل القرضاوي: وأين توجد الأمة الإسلامية؟ وحيث إن الشيخ بات مدركاً أن خطابه لم يعد مقنعاً للناس، وأن إفلاساً دعويًا يتهدد صيته الذي بناه على أرضية الاحتكار المعنوي للدعوة، صمم على أن يلفت النظر إليه ولو بالانزلاق إلى ضحالة الخطاب الطائفي. إن القرضاويساير في خطابه الأهداف الملحة للاستئصاليين والقمعيين وكذا للمشروع الصهيوني الذي كان ولا يزال في حاجة إلى أن يسقط شخص مثل القرضاوي في لعبة التفريق ونفث الروح في الطائفية الهوجاء.

لقد أزعج شيخنا ذلك التقارب القطري الإيراني وكذا وقوف قطر مع المقاومة. فصدم بالواقع الجديد. انتهى الزمان الذي كان فيه القرضاوي وحده يملك أن يحتكر القول الديني كأمير في قطر. ففي قطر

تقام نشاطات دينية مفتوحة، من شأنها أن تفتح الآفاق على خطاب ديني غير ركيك ومكرور وسطحي فكراً وفقهاً بات يبعث على الملل. يريد القرضاوي أن يشوشر ويرهن خطابه التحريضي لجهات خارج قطر في نوع من الضغط غير المباشر على قطر نفسها لتوتير العلاقة بين الخليج وإيران. وهو التوتر الذي عاش في مناخه شيخنا كأمير وليس كرجل دعوة. فالأموال التي يتحدث عنها القرضاوي، والتي زعم أنها تصرف على الدعوة الشيعية لا تقارن بما يصرف على حياته الشخصية وجولاته الوعظية التي لم يعد لها من مصداقية ولا من طعم بعد أن أصيب بالهسترة الطائفية. القرضاوي أغنى الدعاة وهو أغنى من كل المراجع الشيعية. فالأموال الشرعية لا تصل إلى المرجع بل هي تصرف على مستحقيها في الطريق. بينما الأموال الشرعية هنا تصرف في البذخ الشخصي وعلى القصور التي لو قورنت بأكواخ مراجع الشيعة لبان الفارق الفاحش. التهريج الطائفي الذي نزل به القرضاوي إلى الجمهور أسقطه في عين العقلاء.

أجل، لست هنا في وارد مناقشة شيخنا الأمير نقاشاً فقهيًا أو عقائديًا لأسباب، منها أن المقام ليس فيه سعة. وحتى لو وقع فنتيجته محسومة سلفاً. لكنني أناقشه في عموم الموقف فكريًا وسياسيًا وأخلاقيًا. إن القرضاوي يعرف في قرارة نفسه أنه أقل جدارة من أن يناقش في تفاصيل اتهامه للشيعة. وهو لذلك لاذ بالإعلام يخاطب العامة لا العلماء. ولا أريد أن أتّحدى القرضاوي إن كان يستهويه مخاطبة العامة أن يتكرم علينا في برنامجه الشريعة والحياة في مناظرة مباشرة حول مزاعمه الحمقاء وجهاً لوجه. أعلم مسبقاً أنه لا يعرف عن الشيعة إلا بمقدار ما يعرفه فلاح من منغوليا عن الإسلام. نعم إنه يعرف شيئاً آخر عن الشيعة والتشيع، تلك الصورة النمطية الغثيانية التي حفظها ونعلمها

كالغرير في متون خصومهم.. وهذا ليس علماً ولا تحقيقاً ولا رشداً في الفهم والتفهيم.

أريد أن أعلم القرضاوي الذي فاجأنا بحماقاته اليوم أنه غير مؤهل للحديث عن السلم المجتمعي والسلام العالمي والحوار والتواصل والتقريب والوحدة. إن الذي يدعو إلى تغيير المصطلحات فيقول المواطنة بدل أهل الذمة لا يزال مصرًّا على أن يضلل ويبدع الشيعة. فمتى يغير القرضاوي معجمه الطائفي حتى يتسنى له الانتماء إلى العصر الحديث؟

الأمة تمر يا قرضاوي مما لا حاجة للتذكير به من إكراهات وتحديات. وهي في حاجة إلى من يصلح حالها ثقافيًّا واجتماعيًّا وسياسيًّا.. يهدئ من روعها لا يشنجها.. يثقفها لا يهسترها.

العصر يا قرضاوي يتطلب ذهنية جديدة وفهماً للدين أبعد من أنف شيخنا الأمير. العصر يتطلب منا تعديلاً جذرياً في سياستنا الفقهية والكلامية والمعجمية: كيف نقبل بالآخر المختلف دون أن تمتلئ قلوبنا قيحاً.

أنت يا قرضاوي تقول إننا نحن أهل السنة مجمعون على تضليل الشيعة وتبديعهم وهناك من يكفرهم. طيب، هل أنت واعٍ بما تقول؟

من ضلل الشيعة وبدعهم؟

أنتم، أي المخالفون.. أي مدرسة واحدة من مدارس الإسلام الكثيرة.. هل الإسلام هو الذي ضللهم وبدعهم.. هل بين أيدينا فقه وكلام إسلامي مشترك أو مجرد يصلح أن يحكم بين المدارس الإسلامية أم إن المسألة هي تضويخ واحتيال على ضمير الأمة، حيث تعتبرون حكمكم الطائفي والمذهبي حكماً للإسلام. وإذن وجب أن يقال إنه دليل بدليل، والمطلوب إسلاميًّا ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾. بل المطلوب دينيًّا وأخلاقيًّا: وبشر عباد ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ

أَحۡسَنَهُۥٓ﴾. وأنت شيخنا الأمير لا أتيت ببرهان ولا أنت أحسنت السمع للقول. بل أراك اكتفيت بوردك الطائفي التقليدي ورميت به رمية أعشى. وحيث لا دليل ولا مناظرة مكشوفة ولا هم يحزنون، فكل كلام لن يكون سوى تجديف وادعاء وحمق ورجم بالغيب.

العصر يا قرضاوي يقتضي منك التثبت في معرفة الواقع. فأنت يزعجك أن هناك من تشيع ثم تعلن نفسك وصيًّا للدفاع عن السنّة. سؤالي لك: من أعطاك الحق في أن تمارس هذه الولاية على الناس والتحجير على عقولهم.. وبأي فقه وبأي أخلاق وبأي كلام تمنح نفسك هذا الحق فيمن أراد أن يقتنع بفكرة هنا أو هناك مما هو ملك وتراث للأمة جميعاً. فالتسنن كالتشيع هو ميراث أمتنا لكل عاقل الحق أن يعرف ويفهم ويقرأ ولم لا، يقتنع. أم أنك تقول ليس من حقه؟.. وماذا تريد من النظم أن تفعل حيث بت تحرضها وتستنجد بها تكتيكياً بعد أن كنت تحرض على الانقلاب عليها، وبعد أن كان لخطاباتك في آذان جماعات الدم طنيناً أوردهم موارد الهلكة فقتلوا اليابس والأخضر فأفسدوا العراق بمقاومة حمقاء تخطئ المحتل وتصيب المدنيين في الصميم. فهل تنتظر من هذه القوى أن تعلن الحرب على الشيعة شعوباً وأنظمة لكي ترتاح من المنافسة العقلائية الشريفة.. هل المطلوب أن يمنعوا فضائياتهم ويدخلوا من حصلت له القناعة بفكرهم إلى السجون ويقيموا لهم المقاصل ويحاكموهم كما في دواوين التفتيش.. ماذا تقصد ويقصد حمقى آخرون ممن زمزموا حول الفتنة أن تتدخل الجهات المعنية.. ومتى كانت الجهات المعنية غائبة حتى تخبروها شططاً بما يقع. أم إنها محاولة لتوريطها في مصائب وقضايا بلا موضوع. حتى يخلو الميدان للقرضاوي ليعيد شراء أسهم الدعاة المقموعين ويتربع على كرسي إمارة الدعوة لمواصلة تكرار محفوظاته العتيقة؟

العصر يا قرضاوي تجاوز خطابكم الاستئصالي والتحريضي والدموي، وتناساه كما تناسى أي حماقة جائمة في ذاكرتنا الشقية.

العصر يا قرضاوي يسلك طريقاً يحتاج إلى التسامح كله والانفتاح كله والعقلانية كلها والتواصل كله والفهم كله.

العصر يا قرضاوي جعل عالمنا أعقد مما تصوره كلماتك في الشريعة والحياة، وأوسع مما تصوره فانتازيتك الطائفية الحمقاء.

العصر يا قرضاوي عصرنا جميعاً لا عصرك وحدك. لن ترسم لنا خريطة الطريق فـ ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾.

العصر يا قرضاوي يقتضي أن تصلح وتهذب عبارتك ولا تقول ما يجرح الآخر.

العصر يا قرضاوي لا يسمح للرعونة في الخطاب أن تدوم إلا بمقدار ما يتحمل العقلاء الحمقى. أي مقداراً قليلاً قبل أن يقذف بها في مزبلة التاريخ. فلا ينفع أن تغضب وتقول شططاً. فالتاريخ أكبر من أن يتغير بمجرد افتعال الهسترة الطائفية.

العصر يا قرضاوي ناضج إلى حد لا يلتفت إلى الغوغائية ولا يصح إلا الصحيح. ولا يقبل بخطاب: اقتلوهم تحت كل حجر ومضر، وبالشبهة والظنة.

العصر يا قرضاوي لا يسمح لك بأن تحكم بالضلال والبدعة على من خالفك الرأي بدليل. وليس لك إلّا حق مقارعة الدليل بالدليل. وفي غياب المناظرة المكشوفة والصريحة كالتي أظهرت فشلك وقبح أسلوبك وضحالة حيلتك في لقاء جزيري سابق مع الشيخ رافسنجاني، ما عليك إلا أن تصمت أو تتحدث باحترام.

سألت مرة أحد أصدقائنا من المشايخ الأزهريين بدعابة ـ وهو من

اشتغل سبع سنوات في مكتب شيخنا الأمير ـ: ما رأيك فيمن يضيق صدره من الآخر ولا يسمح بالرأي الآخر؟

أجاب الشيخ الأزهري: حُمار (بضم الحاء).

ختاماً

ليت مثقفنا المغالط تواضع بعد تكبر فاحش تأباه سنة طلب المعرفة والاستزادة من ثمراتها. وليته تعلم من عميد الأدب العربي ـ طه حسين ـ بعضاً من الإنصاف وأدرك بعضاً من كلماته الخالدة. حينما قال في كتاب «علي وبنوه»:

- «إن خصوم الشيعة نسبوا إليهم ما يعلمون وما لا يعلمون».
- «لا يكتفي خصوم الشيعة من الشيعة بما يسمعون عنهم، أو بما يرون من سيرتهم، وإنما يضيفون إليهم أكثر مما قالوا، وأكثر مما سمعوا، ثم لا يكتفون بذلك، وإنما يحملون هذا كله على علي نفسه، وعلى معاصريه».
- «وخصومهم (خصوم الشيعة) واقفون لهم بالمرصاد يحصون عليهم كل ما يقولون ويفعلون، ويضيفون إليهم أكثر مما قالوا، وما فعلوا، ويحملون عليهم الأعاجيب من الأقوال والأفعال، ثم يتقدم الزمان، وتكثر المقالات، ويذهب أصحاب المقالات في الجدال كل مذهب، فيزداد الأمر تعقيداً وإشكالاً، ثم تختلط الأمور بعد أن يبعد عهد الناس بالأحاديث، ويتجاوز الجدال خاصة الناس إلى عامتهم، ويتجاوز الذين يحسنونه إلى الذين لا يحسنونه، ويخوض فيه الذين يعلمون والذين لا يعلمون، فيبلغ الأمر أقصى ما يمكن أن يبلغ من الإيهام والإظلام، وتصبح الأمة في فتنة عمياء لا يهتدي فيها إلى الحق إلا الأقلون».

مثل هذا وأكثر لخصته عبارته: ما أكثر ما حمل خصوم الشيعة على الشيعة. لا زلنا في حاجة إلى عقلٍ كبير مثل ذلك الذي تحلّى به عميد الأدب العربي في زمن شحيح من أدب المتأدبين. وإن ما نشاهده اليوم ليس يرقى إلى هذا المرقى الثقافي الذي بلغه مثقف عربي قلّده المثقفون العرب في كل شيء إلا أن يقلدوه في تحرره من مرض الطائفية. وليس فيما نقدمه سوى نماذج لها نظائر في مشهدنا المريض.

الفهرس